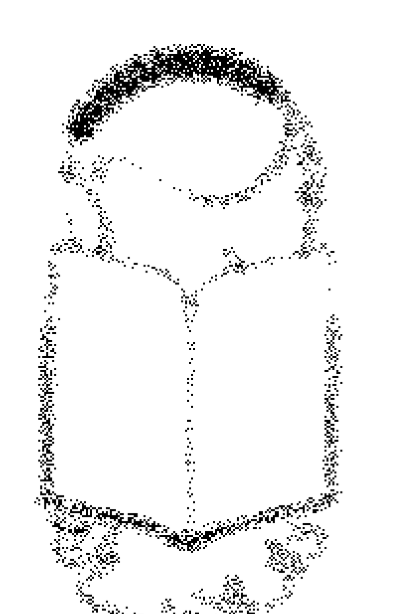


بيير بيلمار

جون فرنسوا ناهمياس

الجرائم الكبرى في التاريخ

العنوان الأصلي للكتاب

Les Grands Crimes de l'histoire

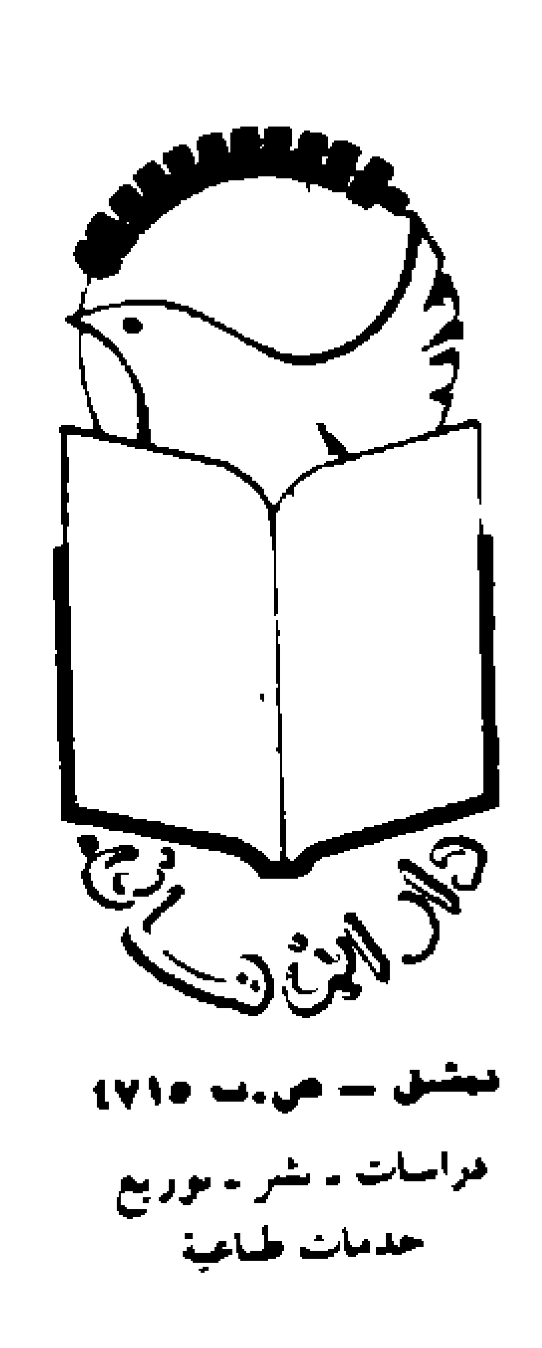
Tome I

بيير بلمار
جون فرنسوا ناهمياس

الجرائم الكبرى في التاريخ

ترجمة

فارس متري ضاهر



* الجرائم الكبرى في التاريخ

* **تأليف:** بيير بيلمار وجين فرانسواز نامسيس.

* **ترجمة:** فارس متري ضاهر.

* **الطبعة الأولى:** 1993 - 1000 ن

17042 م

* **الناشر:** دار ابن هانيء للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق ـ شرقي ركن الدين الموحد ـ محضر 42

هاتف: 771096 ـ ص.ب: 4715

الجريمة القذرة

اغتيال الزعيم جان جوريس في باريس

باريس ١٩١٤ م

باريس ، ٣١ تموز ١٩١٤ م الساعة التاسعة والنصف ليلاً . حتى في هذه الساعة المتأخرة كان الحر شديداً . . . لا يطاق . كان الجو خانقا ، مضطربا . أقل ثلاثة رجال سيارة التاكسي في منطقة « غران بوليفار » فالرجل الجالس عند الجهة الخلفية ، وراء السائق ، يتميز بمظهر جسماني غير مألوف : إنه ذو قامة معتدلة ، لكنه عريض المنكبين ، وذو عنق غليظ ورأس كبير الحجم حيث تزينه لحية كثيفة شقراء . . . تميل نحو اللون الأبيض . لا يبدو الرجل أنيقاً ، إنه بالأحرى انسان مهمل : بنطاله قديم ، قميصه رمادي خاص بالعمال وربطة عنقه بالية ، ويمكن الحصول عليها في المخازن الشعبية بسعر بخس لايتجاوز الخمسة والأربعين سنتيما[١] ، وسترة مشوهة بسبب وجود عدد وافر من الكتب والكراسات .

توقفت سيارة التاكسي عند ساحة « المادلين » ، اذ يتجمهر عدد من الشبان وحاولوا الاعتداء على شخص يناهز الثلاثين من عمره . . فحاول الدفاع عن نفسه بشتى الطرق والأساليب توالت عليه الضربات الموجعة وتعالت الصرخات :

ـ هذا ألماني . الموت للجاسوس :

صاح الرجل معترضا ومتوسلا : ـ دعوني أرحل . لست ألمانيا .

ولكن تدفقت عليه اللطمات من كل جانب . فالحالة العصبية واضحة والانفعال العاطفي ، قد سيطر على عقول هذه الجماعة الهائجة .

أخيرا استطاعت سيارة التاكسي أن تشق طريقها ، بين هذا الحشد من الشبان الغاضبين ولكن ، بعد فترة وجيزة ، دنت من السيارة مجموعة من الشبان ، وهي تلوح عاليا بالعلم الفرنسي ذي الألوان الثلاثة ، ثم أخذوا يلوحونه عاليا بقبعات القش

---

(١) سنتيم وهو جزء على مئة من الفرنك الفرنسي

ويقولون للفتيات الباريسيات بنبرة ساخرة وابتسامات الغرور لا تفارق الشفاه :
- سوف نقضي عليهم . . في برلين . سوف نقص شاربي « الكايزر »
في داخل سيارة التاكسي ، قال الرجل المعتدل القامة بصوت درامي أجش وبنبرة أبناء المنطقة الجنوبية - الغربية من فرنسا :
- يجب تجنب فظائع هذه الحرب . .
الحرب . . ٣١ تموز ١٩١٤ م . يبدو هذا التاريخ المشهود . قريباً جداً . . لقد اجتاز عتبة المستحيل وبات أمراً محتوماً . . بدأت النمسا تتحرك عسكرياً أما تحرك ألمانيا وروسيا كان جزئيا . وبدت فرنسا مستعدة ، للقيام بنفس الخطوات العسكرية .
هل تستطيع المحاولات الدبلوماسية الأخيرة ، تغيير مجرى هذه الأحداث الدرامية المتلاحقة ؟ بالطبع ، كلا . ليست الحرب على الأبواب وحسب إنما هي مرغوبة . فهذه هي الطاقة الكبرى . تلفح الجرائد الفرنسية ، بالتصاريح العدوانية ، المحبة للحرب « الحرب ، جوهر رباني . إنها تملك قيمة تربوية ، فهذا أمر لا جدال فيه » . هكذا كتب « بول بورجيه » في صحيفة لوغولوا « أما الصحفي » أبل بونارد فصرح بما يلي في جريدة « لوفيغارو » . « يجب تقبيل الحرب من جميع جوانبها الشعرية المتوحشة »
غير أن الرجل ، الموجود حاليا داخل سيارة التاكسي ، لا يشاطر رأي مثل هؤلاء الأشخاص المتحمسين بالنسبة له ، لا تبدو الحرب فتية ومرحة ، بحيث يتم خوض غمارها والزهرة معلقة على فوهة البندقية وانشودة « المارسييز » لا تفارق الأفواه ، كتب هذا الرجل الصامد بعنف ضد هذا التيار الحربي الجارف :
« لنتصور انكلترا ، ألمانيا ، فرنسا ، روسيا ، ايطاليا والنمسا وهنغاريا . . . في حالة حرب : الملايين من الأشخاص سيدمرون أنفسهم وستلتهمهم دائرة الموت وتنقض بوحشية على المصادر الحيوية للأمم ، يوماً بعد يوم . كم من الآلام وكم من الهمجية » .

لم يخطىء حدسه . بدت له حرباً مريعة ، تفوق تصور العقل قبل وقوعها . يحاول هذا الرجل الملتحي ، ذو الثوب الزري ، وذو نبرة سكان « تارن » منع اندلاع هذا الأتون من الحرب المسعورة ، بأي شكل من الأشكال ، وبجميع الوسائل والامكانيات . ولم تنقصه الوسائل الكافية لتحقيق هذه الرغبة الملحة .
لم يكن وقتذاك أحد عظماء هذا العالم . لم يكن حتى وزيراً . لم يكن سوى النائب

الشعبي المتواضع ومدير جريدة « الأومانتية » . . رغم ذلك ، تجاوز صوته أهمية ، صوت قيصر روسيا وامبراطور المانيا ، ورئيس وزراء فرنسا وبريطانيا .

عند العشية ، هتف الاشتراكيون الألمان ، في بروكسيل : عاشت فرنسا ، ترحيباً وتأييدا لآراء جون جوريس السلمية . رغم الاستعدادات الحربية الحامية والمتزايدة ، ما يزال يوجد عدد وافر من الأصوات التي تطالب بالحلول السلمية ، وتعتبر الصحافي « جوريس » الحاجز الوحيد والأمل الأخير .

وانطلقت سيارة التاكسي وهي تحدث صريراً حاداً ، اذ قطعت الطريق فجأة ، عربة جياد[1] محاولة تجنب الجمع المتراحم من المارين . عندها ، صاح سائق التاكسي :

ـ مابك ؟ أتريد قتلنا ؟

ظل الحوذي صامتاً ،اذ وقع بصره على رجل جالس على المقعد الخلفي من السيارة . على الفور ، رفع طاقيته باحترام وقال :

ـ اني أعتذر ألف مرة . . ولكن لا يوجد خطر . . لا أحد يود قتل المواطن جوريس .

توجه المواطن جوريس الى مقر عمله . . الى مكتب جريدة « الأومانتييه » . . الجريدة الشعبية التي أسسها بنفسه . قصد المكتب لكتابة مقال آخر ، محاولاً منع وقوع الكارثة لم يهتم بمصيره ولا بمصالحه الخاصة . لقد قبل المجازفة منذ زمن طويل . ولا ينوي التراجع حتى في أحلك الظروف وأشدها تعقيداً . فهاك ما أعلنه عند العشية :

« سوف توقظ هذه الحرب ، كل العواطف الحيوانية . . الراقدة في أعماق الانسان . اننا نتوقع اغتيالنا عند منعطف الطريق . . »

انها الساعة الثامنة مساء في هذه الأثناء ، يتجه شاب سيراً على قدميه ، نحو جادة « غران بوليفار » انه في التاسعة والعشرين من عمره . . قصير القامة ، نحيل الجسم ، محياه جامد وسطحي ، فلا يثير اهتمام الناظر اليه . . اطلاقا . ويدعى « راوول فيلان » . ولد في « رمس » ، وأصبح مقيماً في باريس ، منذ مدة وجيزة ، في شارع « آساس » وقد نال مؤخراً شهادته في المصريات في مدرسة اللوفر . ولم تسعفه هذه الشهادة كثيراً ، في حقل الحياة العملية ، فهو محروم من الحظوة في الميدان الفكري وفي

---

(١) فيكر وكلمة فيكر ، مأخوذة من مكان استعملت فيه هذه العربات للمرة الاولى .

الميدان الجسدي ، على حد سواء . غالباً ما يصاب بنوبة من التطرف الانفعالي ، لدى ذكر موضوع حماسي كالحرب مثلاً أو الوطنية . عندها ، يندفع بصورة لا واعية وتنطلق الكلمات الملتهبة من خلال خطاب عدواني وعشوائي . . فيتحول كلامه الى جعجعة . . ورصف ألفاظ طنانة ، ورنانة ومتضاربة .

وضع يده في جيبه وقبض بعصبية على مسدسه « سميث ويسون » الذي اشتراه حديثاً . منذ زمن طويل ، وهو يشعر بأنه مهيأ لكي يقوم بمهمة عظيمة في حياته ، تماماً مثل « جان دارك » التي يعتبرها نموذجاً له .

قتل جوريس ؟ لم تكن فكرته الأولى . لقد خطرت بباله في البداية ، اغتيال امبراطور ألمانيا ، غيوم الثاني . لكنه غير رأيه فيما بعد . لماذا ؟ يكفي أن يصغي الى أقوال الناس وأن يطالع الجرائد . اقتنع راوول فيلان ، في الحال : يجب قتل جوريس وليس غيوم الثاني . ان غيوم الثاني ، عدو وحسب . . لكن جوريس « هر جوريس » كما يلقبونه ، فهو خائن . . على حد رأيه .

انها الساعة الثامنة و ٣٠ دقيقة ليلاً ما يزال جان جوريس منكباً على الكتابة في قاعة التحرير . واختار العنوان التالي لمقاله الافتتاحي : ضرورة برودة الأعصاب .

« مازلنا نأمل بالحل السلمي . ان الخطر الأكبر يكمن في العصبية التي تتزايد قوة ، من خلال الانفعالات الفجائية الناتجة عن الخوف . نحتاج الى عقل صامد ، واضح وهادىء ، للصمود أمام هذه المحنة . هنا ، تكمن السلامة الحقيقية ، هنا يتوفر ضمان المستقبل » .

« المستقبل » . . كانت الكلمة الأخيرة في مقال جان جوريس ، التي تلخص كل أفكاره . أصبحت الآن الساعة الثامنة و ٤٥ دقيقة . تعالى صوت ، وسط مناقشات الصحافيين داخل قاعة التحرير :

ـ هيا نذهب لتناول الطعام في مقهى « إلكوك دور » هز جوريس رأسه : كلا . هناك توجد الموسيقى والنساء . هيا بنا الى مقهى الكرواسون . . وسوف نرجع بعد ثلاثة أرباع الساعة .

انها الساعة التاسعة مساء . وصل راوول فيلان قرب جريدة « الانسانية » (لومانيته) . انه لايشعر بأي ارتباك ازاء هذا العمل الاجرامي الذي ينوي تنفيذه . سوف يقتل « جوريس » الذي وصفه « موريس بارس » ، « بالفتاة التي بيعت لألمانيا »

بالنسبة له ، ان قتله واجب حتمي وفعل ضروري للسلامة العامة .

مثل هذه الافكار الحاقدة اطلع عليها راوول فيلان ، من خلال الجرائد ، التي كانت في متناول يده اذ شنت الصحافة المعادية له هجوماً عنيفاً ضد هذا الخطيب الشعبي الذائع الصيت . كتب ليون دوديه في الأكسيون فرانسيز :

« لانريد تعيين أحد الاغتيال السياسي ولكن ، لا بد من السيد جوريس أن يرتجف خوفاً . انه قادر على دفع شخص ممسوس الى التأكد من نظريته واختبارها بعد قتله . يود القاتل طرح السؤال التالي : « هل سيطر أي تغيير بعد موت السيد جوريس ؟ »

أما « أوربان غوهييه » ، فكتب ما يلي ، في « السوسيال » :

عند عشية الحرب . . فالجنرال الذي يأمر رجاله الأربعة والعريف كي يلصقوا المواطن جوريس على الحائط ورميه برصاصة داخل دماغه . . انما يقوم بواجبه على أحسن ما يرام . « وشارل بيغوي » يطالب بصوت عال ، موت رفيقه الاشتراكي القديم :

« يجب قبل كل شيء ، فور اعلان الحرب ، اعدام جوريس رميا بالرصاص .لن ندع هؤلاء الخونة يعيشون بعدنا ، في أمان . . . »

في الواقع لم يفهم فيلان كل هذه التصاريح الاستفزازية حق الفهم . غالبا ما تنتابه افكار مشوشة . انها كحالة دائمة ، فيما يبدو . عندما كان طفلا رضيعا ، أهملته أمه فسقط من مهده . رفعته عن الأرض ، لترميه فوراً من النافذة . بعد ذلك الحادث ، وضعت الأم في مصح عقلي وماتت هناك . أما والده ، فهو أكثر تعقلاً ، لكنه يبالغ في تناول الأبسنت . وظلت جدته الهزيلة المريضة ، حبيسة غرفتها لمدة ، تجاوزت الخمسة والثلاثين عاما . كانت تقول مراراً لراوول الصغير :

ـ لن أموت أبداً . سترفعني مريم العذراء من شعرى الى السماء . في هذا اليوم بالذات ارفع بصرك الى الأعلى . سوف ينال كل شاهد على الأعجوبة ، مبلغاً من المال ، مقداره أربعون ألفا من الفرنك الفرنسي . . بواسطة كاتب العدل .

ماتت الجدة في الأسبوع الفائت . لم يصل راوول في الوقت المناسب . . لم يستطع مشاهدة مريم العذراء وهي ترفع جدته من شعرها الى اعالي السماوات . لكن هذا الحدث أثر كثيراً في حياة راوول وسبب له اضطراباً جذرياً . واعتبر هذا الاضطراب الشديد ، دلالة اضافية على صحة قراره في قتل الصحفي الاشتراكي . قال لنفسه :

« آن الأوان كي أقتل جان جوريس . لم يعد هناك أي مجال للتردد . . يجب أن أقتله » .

هل يؤجل راوول فيلان « تنفيذ قراره الاجرامي الى أجل غير مسمى ؟ . هل تساعده الظروف في تحقيق رغبته المهووسة ؟

اقترب « راوول » من بوابة جريدة « الاومانتيه » وسأل موظفة الاستعلامات بكل تهذيب عن الاستاذ جوريس . فأجابته على الفور ، دون أدنى تردد .

ـ انه يتناول الطعام حاليا مع اصدقائه ، في مقهى الكرواسون .

ابتسم القاتل المهووس بلطف وقال :

ـ اشكرك شكرا جزيلا .

لفظ هذه العبارة الرقيقة ويده لا تفارق جيبه ليمسك باحكام المسدس « سميث ويسون » وحمل معه مسدساً آخر فهو سلاح احتياطي . من يدرى ، ربما تعطل الأول فجأة واستعصى عليه الأمر . . .

يشير عقرب الساعة الآن الى التاسعة والعشرين دقيقة . اختارت هيئة تحرير جريدة الاومانتيه ، مقعداً منجداً ، في مقهى الكرواسون ، قرب النافذة . كان الطقس حاراً جداً والنوافذ مشرعة ولا يوجد سوى ستار من الدانتلا ، كحاجز فاصل بين الصحفيين والشارع ، كان جوريس جالساً في الوسط وقد أدار ظهره للرصيف . دنا منه موظف في الجريدة ، وسلمه برقية قال جوريس معلقا :

ـ لقد تكلم اللورد « أسكيت » أمام مجلس العموم . ترفض انكلترا حسم الموقف قبل يوم الاثنين . في هذا اليوم . . . سيفوت الأوان . . .

في الخارج ، توقف بعض الأشخاص الحشريين على الرصيف المقابل للمقهى ، ليلقوا نظرة اعجاب على جوريس ، فهو معروف في هذه المحلة بوجه خاص ، اذ يقصد هذا المقهى باستمرار ، ان الوقوف تجاه المقهى لتأمل هذا الصحفي الذائع الصيت ، أمر طبيعي ومألوف . لذا ، لم ينتبه أحد الى هذا الشاب النحيل ، ذى المظهر التافه . . عندما انضم الى هذه الزمرة .

انتهى الصحفيون من تناول وجبة الطعام . حاول أحد الصحفيين تغيير الجو والانتقال من مناخ المناقشات الجدية الى الحديث عن موضوع عائلي برىء . . فقدم لجوريس صورة فوتوغرافية ملونة : ـ انها ابنتي الصغرى . ما رأيك ؟

للمرة الأولى ، بعد هذه السهرة الشاقة ، ارتسمت ابتسامة مشرقة على شفتيه :
- انها رائعة . كم هو عمرها ؟

- الاغتيال -

فجأة أزيح ستار الدانتلا . . وظهرت يد ، قابضة على مسدس . لمع برق ، دوت طلقة رصاص تلتها طلقة ثانية ، حيث رافقتها ضجة الأواني الزجاجية وهي تتحطم أرضاً ، وصرخة حادة أرسلتها امرأة بشكل درامي :
- جوريس . لقد قتلوا جوريس . . .
هكذا سقط نائب « تارن » متهالكاً بهدوء على كتف جاره الجالس عند جهة اليسار من الطاولة . أغمض عينيه . لكن الابتسامة البريئة لم تفارق شفتيه . . حتى بعد مماته .

هرع اليه أحد الأطباء الذي كان موجوداً في المقهى وقتذاك ، وحاول انقاذه من هذا الموت المحتوم . طلب وضع الجسم على الطاولة ثم أخذ يفحصه . يا للعجب ، ما زال القلب ينبض وذلك بفضل قوته البدنية الفائقة والاستثنائية . . انما تلاشى الأمل ، رغم جميع محاولات الطبيب اليائسة : ان الرصاصة التي اخترقت رأسه ، تحت الأذن اليسرى ، ترسخت في نصف كرة الدماغ الأيسر .
بعد ثلاث دقائق ، أعلن الطبيب وهو يتفحص نبض الصحفي الجريح :

(مات جوريس)

هل استطاع القاتل الفرار من قبضة الشعب الثائر . . الذي تلقى نبأ موت الزعيم الاشتراكي بذهول مأساوي مريع ؟
في الخارج ، لم يحاول القاتل الفرار ، بل ظل واقفاً مكانه . . وأوشك أن يمزق ارباً على أيدي مجموعة من الشبان الثائرين ، لكن تدخل شرطي في اللحظة المناسبة ، خلصه من هذا المصير الدموي المحتوم . . فاقتاده على الفور الى مركز الشرطة .
بسرعة خاطفة انتشر نبأ اغتيال الصحفي الاشتراكي : جان جوريس . . . أولاً في أماكن « غران بوليفار » ثم في سائر أرجاء فرنسا . . لينتقل أخيراً الى أوروبا برمتها :

« لقد قتلوا جوريس »

«قتلوا جوريس» . . هذا يعني بأن الحاجز الواقي الأخير ضد دعاة الحرب ، قد

انهار هكذا ،عم الفرح الهستيري قسماً من الناس ، بينما أصيب قسم آخر بالصدمة المفجعة والخيبة القاتلة لأنه بموت جوريس ، تغيرت وجهة قطار السلام لا بل توقف عند محطة اليأس المرير لتحل محله قطارات الاستعدادات الحربية المسعورة ،على اختلاف أنواعها وبسرعة مذهلة .

وصلت سيارة الاسعاف قرب مقهى الكرواسون . حاول أصدقاء جوريس ترتيب ثيابه البالية ، على جسمه ، الهامد . . بالاضافة الى جواربه البائسة التي لا تتجاوز قيمتها الثلاثة عشر قرشاً . . محاولين في نفس الوقت ، ابعاد الأشخاص الذين اغرورقت أعينهم بالدموع ، وقد اقتربوا من جوريس علهم يقطعون خصلات من شعره .

بعد فترة قصيرة ، جاءت الشاعرة آنا دو نواي ورثته بأبيات شعرية مؤثرة بعد أن انحنت فوق نعشه بكل هيبة واجلال :

رأيت هذا الميت العظيم ، ذات يوم صيف . . .

هذا الراقد المهيب ، حيث غار في أعماقه ، السلام .

٢٤ آذار ، ١٩١٩ م ، الساعة التاسعة صباحاً . بدأ رئيس المحكمة بوكار : بقرع الجرس . هنا ، في قصر العدل في باريس ، افتتحت الجلسة لمحاكمة راوول فيلان ، المتهم بالقتل عمداً ، الصحفي جان جوريس .

لقد تبدلت الأمور جذريا ، منذ الأمسية الصيفية الحارة ، في ٣١ تموز ١٩١٤ م ومنذ وقوع مأساة مقهى الكرواسون .

بين الوقائع الحسية والأفكار الداعية الى الحرب والمتفائلة ، ترسخت هاوية سحيقة الأغوار : لمدة خمس سنوات متواصلة ، حدث اثنان وخمسون شهراً من القتال الدموي العنيف ، خمسة ملايين من الضحايا ، من بينها مليون وثلاثمائة ألف فرنسي ، اثنا عشر مليون جريحا من الجانبين معاً .

بينما راوول فيلان ، جالس بهدوء في سجنه . لم يتغير فيه شيء . ظل على حاله ، حيادياً ، تافهاً . لقد عاش هذه السنوات المريعة من الحرب ، بعيداً عن أهوالها ، داخل سجنه . لم يشهد فظائع فردان وشومان دي دام ، ومعارك ١٩١٧ م الدموية والمعركة الاسبانية . لقد قررت السلطات تأجيل محاكمته الى موعد آخر ، بعد الحرب ، كي لا ينقسم الشعب الفرنسي .

تولى قضية الدفاع عن المتهم الأستاذ زفايس ، وهو نائب سابق وقد تم عزله عن الحزب الاشتراكي . حاول الدفاع عنه من الناحية السياسية ، بينما استلم الأستاذ هنري جيرو الملف العقلي .

أما لجهة المدعي بالحق المدني ، فيوجد ممثلان : الأستاذ بول بونكور ودوكو دولاهاي . لن يحكموا عليه بالموت ، اذ يعتبر مثل هذا الحكم اهانة لذكرى جوريس الذي قضى حياته وهو يحارب فكرة حكم الاعدام لكنهم سيطالبون بعقاب شديد . وهل هناك حل آخر،قبل هذا الحادث بالذات ، ما يناهز الشهر ، أطلق الفوضوي آميل كوتان ، الرصاص ، بمسدسه ، على كليمنصو ، لكنه لم يصبه . فأحيل الى المحاكمة الفورية وكان عقابه حكم الاعدام . واستطاع الحصول على العفو الصادر من رئيس الجمهورية ، لكن راوول فيلان ، لا يعتبر بنظر المحكمة قاتلاً . باختصار : لم يقتل جوريس ولم يجرحه .

لقد تم تعيين هيئة المحلفين . لم يعترض الدفاع . غير أن هذه الهيئة لا تمثل الشعب الفرنسي حق تمثيل . لم يكن التمثيل النسبي متعادلاً . بين الاثني عشر رجلاً ، لا يوجد سوى موظف واحد . أما الباقون فهم حرفيون وأرباب عمل صغار ، أو أصحاب دخل .

بدأت المرافعات . حاول راوول فيلان الاجابة عن أسئلة رئيس المحكمة السيد بوكار ، بتهذيب ملحوظ . لم يكن الرئيس عدائياً بالنسبة له . قال له :

- لماذا تصرفت بهذا الشكل ؟ ما هو السبب ؟ وضح لنا ذلك .

- اني رجل مؤمن للغاية ، يا سيدي الرئيس . رغم ذلك ، لم يمنعني أبداً ضميري عن اطلاق الرصاص ، في هذه اللحظة بالذات . كنت أفكر في الوطن . في الواقع ، لقد فعلت ذلك نتيجة لغضب وطني .

عندها ، تعلق المتهم بهذه الحجة التي قدمها له الرئيس بشكل غير مباشر . طبعاً ، فهو غير قادر على ايجاد مثل هذا الاعتذار ، وحده .

- أجل ، هذا هو السبب ، يا سيدي الرئيس . تماماً . . كما ذكرت .

بعد ذلك ، جاء دور الدكتوران : بريان ودوبريه ، وهما اخصائيان في التحليل النفسي فأعلنا القرار التالي : « ان مسئولية التهم مخففة الى حد بعيد . » وهل يمكن ادعاء عكس ذلك ؟ ان الأم مجنونة والأب مدمن للخمر وجدته صوفية متزهدة . . كل

ذلك يعرف في ميدان الطب بالتربة . . وقد تأثر تأثيراً ملحوظاً توازنه العقلي ، نتيجة لهذه الوراثة .

أما التحول الحاسم في الدعوى فهو ناتج عن هذا العرض لهذا العدد الوفير من شهود المدعي بالحق المدني . لقد ارتكب أصدقاء جوريس خطأ فادحاً في هذا الميدان . من الافضل لو بقيت المرافعات محصورة في الحقل الجنائي ، لكنهم ارادوا ان يجعلوا من حادث الاغتيال قضية سياسية . لم يستطع النواب والوزراء الاشتراكيون القدامى كبت عواطفهم ، ساعة حضورهم امام رئيس المحكمة فأثنوا على المغدور وعبروا عن مشاعرهم واعجابهم بعبقريته بصراحة مطلقة ، وقد تناسوا أمر هذا الشاب المهووس الذي اغتاله بالرصاص واستحق العقاب الشديد ، شأن اميل كوتان الذي حاول اغتيال كليمنصو . لم يكن تصرفهم حكيماً نظراً لانحياز المحافظين في هذه الهيئة من المحلفين . وكانت فرنسا عصر ذاك خاضعة لقيود هذه الزمرة من المحافظين المتطرفين . وهذا حدث نادر ومؤسف في تاريخ فرنسا .

٢٧ آذار ١٩١٩م ، اليوم الرابع من المحاكمة :

ألقى الاستاذ « بول‌بونكور» خطاباً معتدلاً ، ممثلاً المدعي بالحق المدني ، فكان أول المتكلمين في صدد إصدار الأحكام :

ـ إذا قطعنا رأسا وإذا أهرقنا دم الشخص المذنب الذي سيضاف إلى هذه الغزارة الهائلة من الدماء البطولية التي سالت على تربة فرنسا . هل سيؤدي بنا الأمر إلى الإنتقام الأمثل ؟ لا أعتقد .

بينما أصر الأستاذ دوكودولاهاي على ابداء رأيه على طريقته الخاصة ، مرتكزاً كلياً على المفهوم السياسي للقضية ، فهذا هو عين الخطأ :

ـ إن هذه القضية هي قضية جوريس قضية الحرب قضية عقيدتنا . .

ـ وتابع كلامه ، مادحاً صفات الصحفي الإشتراكي . . بالطبع ، لم تتجاوب هيئة المحلفين مع هذا المديح العفوي الصريح . ان الكلام الآن للنيابة العامة . فهو العجب بذاته بينما اتهم ممثل الحكومة الفوضوى « كوتان » بعبارات قاسية جداً ، بحق المجرم الذى أخطأ المرمى في محاولة اغتيال كليمنصو ، أعلن المدعي العام عن رأيه باعتدال مطلق بالنسبة لجريمة قاتل جان جوريس :

ـ يجب ادانة هذا الرجل ، ولكن بالتساهل والرأفة ، نظراً لعناصر توازنه[1] . اني موافق على حكم المحلفين في الجناية ، شرط ان يكون حكماً مخففاً . ما يهمني في الأمر أيها السادة هو اصداركم حكم العدالة . . .

على أثر أعلان قرار القاضي ممثل النيابة العامة[2] ، أحرج موقف محامي الدفاع ، فاضطر حكماً الى اعلان البراءة بكل بساطة وسذاجة . . بينما دوى التصفيق الحار في قاعة المحكمة تأييداً للمجرم راوول فيلان . . عش رحباً تر عجباً .

٢٩ آذار ، عام ١٩١٩ م :

انه اليوم الأخير من محاكمة راوول فيلان . اجتمعت هيئة المحلفين على انفراد للتشاور عليها الإجابة عن سؤالين :

أولاً : هل يعتبر فيلان مذنباً لأنه ارتكب جريمة قتل إرادي ضد شخص جان جوريس .

ثانياً : هل ارتكب الجريمة مع سبق التصميم ؟

عادت هيئة المحلفين إلى قاعة المحكمة بعد نصف ساعة من التداول ، فهذه فترة وجيزة جداً ، بالنسبة لهذه القضية الهامة والحساسة . أجاب رئيس الهيئة بالنفي بشأن السؤالين وأعلن « كلا » بنبرة قوية وحاسمة .

بدأ الحاضرون يتبادلون نظرات الدهشة حتى ولو كانوا مؤيدين للقاتل رأوول ، لكنهم لم يتوقعوا مثل هذا الجواب .

قررت العدالة بأن فيلان الذي ألح على الادعاء باستمرار بأنه مذنب ويعترف بجريمته ، غير مسؤول عن قتل الصحفي الاشتراكي . بمعنى آخر ، قررت العدالة بأن راوول لم يقتل جان جوريس . فكانت نتيجة المحاكمة على الشكل التالي :

مات جوريس بسبب رصاصة اخترقت الدماغ ، وقد أطلقها شخص مجهول . .

عندها ، أعلن الرئيس « بوكار » الحكم القضائي الذي فرض على المحكمة بصورة منطقية : راوول فيلان غير مذنب[1] .

وتمشيا مع القانون ، حكم على السيدة جوريس وهي المدعية بالحق المدني ، بدفع تكاليف الدعوى . في هذه المحكمة ، شعرت زوجة جوريس المسكينة ، كأنها وقعت

---

(١) يعتبر مثل هذا الكلام تبريراً مفتعلاً لابعاد المتهم المذنب قطعاً عن حبل المشنقة . . لأن التقرير النفسي المذكور في قضية جوريس غير كاف لتبرير عمله الجنائي الناتج عن فعل متعمد ومدروس بدقة قبل ارتكابه . طبعاً ، ان هيئة المحلفين لعبت دوراً حاسماً في هذا الصدد .

(٢) القاضي الذي يمثل النيابة العامة في المحكمة .

فريسة ، بين خيوط عنكبوت عملاق .

أما راوول فيلان ، بعد تبرئته ، فقد اختار الرحيل عن فرنسا . بدأ بالتنقل في سائر ارجاء اوروبا . هذا أمر بدهي ويوجد تبرير واضح لمثل هذا التصرف . حتماً سيتعرض في فرنسا الى اعتداء مباغت من قبل شخص مؤيد لشخصية جوريس ، طبعاً ، لن يوافق جوريس على مثل هذا التصرف اطلاقاً . غير أن الأغلبية الساحقة من الشعب الفرنسي ، تود التعويض عن هذه الفضيحة القضائية باغتيال مضاد .

وبعد ترحاله من بلد الى آخر ، وجد أخيراً الملجأ المناسب في عام ١٩٣٣ م أقام في « باليار » في جزيرة ابيزا . هناك شيد منزله المنعزل ، على طريقته الخاصة ، ويتميز بالمظهر الرومانسي المزخرف وبمسحة روحية متطرفة حتى درجة الهلوسة ويعلو هذا الهيكل المنمق صليب . هنا ، كان القدر بانتظاره .

في اليوم التالي ، عثر على جثة راوول فيلان ، وقد خر صريعاً بعد أن أصيب برصاصتين احداهما في زلعومه والثانية في صدره .

بعد اثنتي عشرة سنة ، منذ ارتكاب جريمة اغتيال الزعيم الاشتراكي ، لاقى فيلان أبشع ميتة على أيدي خصومه السياسيين .

حدث اغتياله في الجزيرة النائية ، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية . بأيام معدودة .

قلب راوول فيلان وجهه في سماء جزيرة ابيزا ، ليرى كم بقي بينها وبين الصباح ، وكان الظلام لم يزل حالكاً والمطر لم يزل منهلاً . . وكان يجهل حقاً بأنه على موعد مع الموت . . بصورة مفاجئة . . على طريقة الاغتيال . . تماماً كما فعل في مقهى لوكرواسون في باريس . . عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى .

استطاع راوول فيلان أن ينجو من قبضة العدالة ، لكنه لم يستطع الفرار من حكم القدر لقد وقع أخيراً في حبائل شيطانية لثوار حاقدين على قاتل فاشي مهووس .

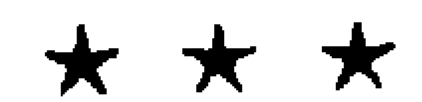
رغم اغتيال جوريس ورغم تساقط الملايين من الجثث في جميع أرجاء العالم ، منذ عام ١٩١٤ م ، ظل أنصار الزعيم الاشتراكي ينظرون الى المستقبل نظرة مستبشرة بمنظار أبيض . . بعيداً عن منظار الحروب الدموية ، المكسو بدخان الموت والدمار .

« رأيت هذا الميت العظيم ، ذات يوم صيف . . . هذا الراقد المهيب ، حيث غار

(١) طبعاً ، لم يكن مثل هذا الحكم منطقياً ، ولكن تقنية المرافعات التي استعان بها رئيس المحكمة ، جعلت من هذا القرار غير المنطقي . . منطقياً .

في أعماقه السلام » .

هل يحق لنا النظر الى المستقبل بمنظار التفاؤل ، بعد هذه المجازر التي عمت الكون بأسره ؟ . هل بعث السلام من جديد بعد استشهاد رسوله الثائر : جان جوريس ؟ هل اتعظ دعاة الحرب بما حدثت من فظائع ، تفوق تصورات العقل ؟ .



الفاجعة.

مأساة ليونورا الإيطالية.

أصبح طاووس البلاط ، « كونشينو كونشيني » كذلك زوجته ليونورا ، طعاماً للكلاب هذه نهاية الطموح النهاش ، المتعطش بجنون إلى ذهب التاج والماسه . . . إلى الجاه الملكي الوهاج ، تماماً كالسراب اللألاء ، في صحراء الحياة .

٣٠ كانون الأول ، عام ١٥٩٩ . . أي في اليوم الأخير من القرن السادس عشر . في حجرة من قصر بيتي الخاص بعائلة مديتشي ، تقف امرأة في الثالثة والعشرين من العمر قرب النافذة وهي تتأمل حالمة مدينة فلورنسا الراقدة تحت الثلج . ليست جميلة . إنها بالأحرى قبيحة : قصيرة سمينة ، ولون البشرة ، أسمر قاتم . أما مظهرها فلا ينم عن أي نوع من الأناقة . بالتأكيد ، فهي امرأة عامية المنشأ[1] انما سرعان ما يتلاشى القبح ، ازاء هذه النظرات المفعمة حيوية ونباهة . يقال بأن الذكاء يبدل الكائنات ويطبق مثل هذا المبدأ تماماً . . على هذه المرأة الايطالية .

في هذه اللحظة بالذات ، تجهم الوجه وتجلت في عينيها نظرة كدرة . في هذا اليوم الشتوي الهادىء ، تتأمل المرأة الصبية . . شاردة ، ساهية . انها تفكر في القدر الذي خصها بحظ وافر . . لا يصدق . انها ليونورا ، ابنة النجار « دورى » ، التي وقع عليها الاختيار مع سائر المحظوظين لمرافقة ماري ، ابنة دوق توسكانا .

تكبرها ماري دي مديتشي بثلاث سنوات . بقدر ما هي ممسوخة القد وقبيحة الشكل ، بقدر ما هي الأخرى ، بهية الطلعة ، ممشوقة القوام . انما ، من الناحية الفكرية ، فالعكس هو الصحيح . لا تتميز ماري بالاحساس المرهف ولا بالحيوية . وتعتبر ، منذ طفولتها بلهاء وغليظة[2] .

ابتسمت المرأة الصبية . بالفعل انها صديقتها المفضلة . . لا غنى عنها . فهي وصيفتها البارعة ، التي تجيد فن تسريح الشعر ، ومؤتمنة على أسرارها أيضاً ، بعد فترة وجيزة سيعقد قران ماري دي مديتشي . وسوف تتبعها إلى البلاط ، في هذه الأثناء ،

---

(١) أي تنتمي الى الطبقة العامة في روما القديمة . والكاتب ينعتها بهذا الوصف الوراثي نظراً للتقاليد الايطالية .

(٢) أو ثقيلة .

تقيم ماري في قصر والدها الدوق . من يعلم ، ربما يبوح الآن باسم العريس لابنته .
واذا بصرخة تنطلق من حلق امرأة ، وراء ظهرها ، التفتت مستغربة :
ـ ليونورا ، ليونورا . ارتمت ماري بين ذراعي ليونورا ،بشعرها المشعث وقد اغرورقت عيناها بالدموع :
ـ ليونورا ، سوف أصبح ملكة فرنسا .
لم تستطع اخفاء دهشتها : ماري . . ملكة فرنسا . هذا يعني بأنها ستتبعها هي بنفسها إلى أعظم وأغنى بلاط ملكي في أوروبا . للمرة الثانية ، وهبها القدر نعمة نادرة تفوق تصور العقل .
١٧ كانون الأول عام ١٦٠٠ . في هذا اليوم ، تعتبر مدينة ليون ، مركز فرنسا . بالنسبة للمملكة ، ان بداية القرن السابع عشر مبشرة بالخير . . اذ قرر الملك هنري الرابع ، الزواج من ماري دي مديتشي ، بعد خوض حروب دينية طويلة ، دامت عدة سنوات . بهذا أصبح مثل هذا الزواج رمزاً للسلام . . ولا عجب أن انتاب العروس شعور من البهجة العارمة . . في هذه المناسبة السعيدة . أقام القداس الاحتفالي ، الكاردينال ألدوبرانديني ، وبعد خمسة أيام ، رحلت الملكة الجديدة من مدينة ليون ، برفقة موكب ، مؤلف من ألفي فارس . أما الملك هنري الرابع ، فقد قرر اللحاق بمحظيته ، هنرييت دوفرنوي . وكانت سمعته غير مشوهة ، بعد .
ومن بين الايطاليين الذين رافقوا الملكة في رحلتها ، ليونورا دورا ، وجنتلمان فلورنسي ، في الثلاثين من عمره ، ويدعى كونشينو كونشيني . يعتبر الايطاليون جميعاً ، مثل هذه المرافقة الملكية ، فرصة ذهبية لا تقدر بثمن ، نظراً للجاه العظيم الذي يتمتع به الملك هنري الرابع .
ينتمي كونشينو كونشيني ، إلى طبقة النبلاء الصغيرة ، لكنها مفلسة . تلقى علومه في جامعة « بيزا » وقضى مرحلة الشباب ، في جو عاصف مضطرب ، إنه جميل المظهر أنيق ذو شارب رفيع ، وذو عينين سوداوين . . بهي الطلعة ، ويعرف ذلك .
في ٨ شباط ١٦٠١ ، وصلت ملكة فرنسا الصبية إلى مدينة باريس . . وتميز سفرها من ليون إلى قصر اللوفر ، بالعظمة والأبهة . هنا ، تبدأ مغامرة ليونورا وكونشينو . حصل التفاهم بين المرأة القصيرة السمراء والجنتلمان العربيد ، بصورة عفوية ، حول أمور هامة . فهذا أمر بديهي ، اذ تجمعهما عدة صفات مشتركة :

الطموح ، الامكانيات ، لقد خلقا كي يعيشا معاً ، فاتفقا على الزواج .

في الواقع ، تخص لهما الملكة عناية خاصة وشعوراً من الاستلطاف الزائد ، ذلك واضح وأكيد ، لكنهما لم يتوصلا بعد ، إلى غزو قلب الملك هنري الرابع . فهذا أمر آخر ويبدو صعباً للغاية . لقد رفض الملك قبلاً ، تعيين ليونورا كمزينة الملكة . إنه لا يثق أصلاً بالايطاليين ، الذين وفدوا إلى فرنسا ، برفقة الملكة وبالأخص ، بهذين الشخصين . ربما ، دفعته غريزته إلى تجنب ليونورا وكونشيني والى ابعادهما عن البلاط بشتى الوسائل .

طلب الزوجان من الملكة التدخل ، لاقناع الملك . انما ، حصل العكس تماماً : كلما ألحت الملكة على مناصرتهما ، تصلب الملك في موقفه وتعنته . انما ، في هذه الظروف الدقيقة ، برهن العاشقان الايطاليان عن حنكة وفطنة في ميدان رسم الخطة وتنفيذها . أدركا فوراً بأن الملكة غير قادرة على تلبية الطلب ، عليهما بالأحرى التوجه إلى محظيته . قصدا اذن ، خليلته هنرييت دوفرنوي . قالت لها ليونورا :

ـ تجمعنا ، نحن واياك مصلحة مشتركة . اذا حصلت على موفقة الملك بخصوص زواجنا فسوف نهتم بدورنا بقضيتك مع ماري دي مديتشي ، ونجعلها متغاضية[1] بالنسبة لتصرفات الملك .

لقد نجحت الخطة ، لم تستطع الملكة اقناع هنري الرابع غير أن محظيته حققت أمنية ليونورا وعشيقها بسرعة مذهلة . وفي٥نيسان عام ١٦٠١ ، عينت ليونورا دورى ، مزينة الملكة ، وفي ١٢ تموز ، تزوجت كونشينو كونشيني ، الذي عين بدوره جنتلمان البلاط .

إن نظرتها الواقعية للأمور المختلفة ، جعلتهما يحققان النجاح المرجو ، بسرعة ، في بلاط الملكة ماري دي مديتشي . لم يفاجأ أحد بمثل هذا التعيين السريع ، ولا عجب ان تم بينهما توقيع « عقد فصل الأموال » . إنه تصرف احتياطي بديهي ، ما دام يقوم مبدأ الزواج بين المتآمرين ، على أساس من المشاركة التجارية ، لا علاقة لها بالروبط القلبية . إنما مثل هذه العلاقة التجارية البحتة . سوف تؤدي لاحقاً ، إلى عواقب وخيمة ، غير متوقعة .

هكذا ، استقر الاثنان في قصر اللوفر . أقامت ليونورا في الشقة المخصصة لوظيفة

(١) أي تحامله وتغض النطر عن علاقته الغرامية اللاشرعية مع هنرييت دوفرنوي .

مزينة الملكة ، فهي مؤلفة من ثلاث غرف متأنقة وقد أمهرتها الملكة مبلغاً محترماً . أما الملك هنري الرابع ،فلم يزل يردد رأيه علانية : يجب طرد هذين الشخصين ، من البلاط . لكن محظيته ، ظلت تحميها . . وبهذه الطريقة ، استمر الزوجان الغريبان ، في ارتقاء سلم المجد ، بثقة واطمئنان .

لم يمض وقت طويل ، حتى تم تعيين كونشينو ، فارس الملكة الأول يحق له الدخول إلى باحة قصر اللوفر في عربة فاخرة[1] ، فهذا امتياز خاص بسلالة الأمراء . قال أحد المعاصرين : « توجد في فندقه الخاص ، الأواني الفضية الوفيرة والجميلة ، التي يرغب في امتلاكها أي أمير » .

كذلك السيدة كونشيني ، فهي غير مغبونة ، بالنسبة لشقتها المؤلفة من ثلاث غرف انها تملك سريراً ذا أعمدة مزينة بزخارف ذهبية ، بالاضافة إلى سجادات شرقية متعددة الألوان وثياب وزخارف مختلفة ، مرصعة باللآلىء والألماس ، وموشاة بالذهب والفضة . وحصلت أيضاً على اسم نبيل « دوغاليغاي » طبعاً ، بصورة لا شرعية ثم اشترت فندقاً خاصاً ، في شارع تورنون ، وقصر دوليزيني أون بري .

في عام ١٦٠٨ ، بلغ الاثنان ، ذروة النجاح ، عندما وافق الملك على أن يكون عراب ابنتها . فعل ذلك ، رغم كراهيته لهما ، اذ يعلم تمام العلم بأنهما الشخصان الوحيدان القادران على تأمين جو من الاستقرار بينه وبين زوجته الملكة .

بات النبيل الفلورنسي المفلس وابنة النجار « دورى » يحتلان مركزا مرموقاً في بلاط فرنسا . وتكدست الأموال في خزينة الزوجين الطموحين ، يوماً بعد يوم ، بفضل الرشوات والاتجار بالنفوذ . انها طريقة مألوفة ، بالنسبة لهذا العصر . فهذا جل ما يريده الاثنان : المال والجاه وألقاب الشرف . . فليس لديهما أي طموح سياسي . انما حصل ما لم يكن بالحسبان .

في ١٤ أيار ١٦١٠ ، مات الملك هنري الرابع اغتيالاً . أما ابنه لويس الثالث عشر ، فلم يتجاوز التاسعة من عمره . لذلك ، تم تعيين أمه ماري دي مديتشي ، وصية على العرش . أصبحت هي صاحبة السلطة في البلاد . بالنسبة للوصيفة المحظوظة ، يعتبر هذا الحدث التاريخي هدية القدر الثالثة . باتت الآن ماري ، رفيقة الطفولة في فلورنسا ، على رأس أعظم مملكة في العالم .

فجأة ، أصبح ارتقاء الزوجين الايطاليين ، مذوخاً . استلم كونشينو زمام الأمور ،

---

(١) يجرها أربعة جياد

في وزارة المالية . إنه مسؤول عن استيفاء ضريبة الملح إنها مهمة غير فخرية بكل معنى الكلمة ، لكنها مغلة جداً ، ما دام يقتطع نسبة مئوية من الضريبة التي يجبيها .

وتوالت مناصب الشرف . لقد سلمته الملكة دولة البيرون ، مونديديه ومركيزية[1] أنكر « نظراً للخدمات الجلى التي يسديها ، وهي خدمات متواصلة وجديرة بالاحترام » .

(لا تحاول البحث عن مدينة « أنكر » ، على خريطة فرنسا . انها تدعى اليوم « أبرت دولين » وهو اسم العدو اللدود للنبيل الايطالي كونشيني . انما ، لم يحن الوقت بعد ، لمعالجة مثل هذا الموضوع .)

مضى ثلاثة أشهر ، على اغتيال هنري الرابع . . وفي هذه المرحلة القصيرة ، تبوأ الزوجان الايطاليان ، المركز الأول في المملكة .

أما الأمراء فكانوا يضمرون لهما الشر ، غير أن مساعدة الملكة ، جعلتهما غير عابثين بنفور وكراهية الآخرين . وكي تهدىء من غضبة المهالقين والجلساء ، أجزلت لهم العطاء . . . بلا حساب . . . وقد غرفت بملء يديها في المال الاحتياطي الذي جمعه الوزير « سوللي » بفضل سياسته المالية الحكيمة . كانت تدفع ماري دي مديتشي أكثر من أربعة ملايين ليرة في السنة ، بينما كان يخصص الملك هنري الرابع ، كنفقة سنوية ستمائة ألف ليرة . انما ، لم يستطع أحد ، وضع حد لطموح كونشيني الكلبي ، النهاش . عينته الملكة ، حاكم حصن أميان . لقد أثار هذا الحدث ، استغراباً شديداً ، في جميع أرجاء المملكة . في الواقع إن حصن « أميان » ، يقود شمالي فرنسا . ويعتبر تسليم هذا الموقع الهام لرجل أجنبي أمراً خطيراً للغاية . . لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد .

بالاضافة إلى أهل البلاط ، فالشعب بأسره يكره الزوجين « كونشيني » مشيراً الى علاقته الغرامية بالملكة الوصية . يبدو بأن هذه التهمة غير معقولة . وانتشرت على جدران باريس ، النقوش الأثرية المخلة بالحياء وعلى باب المملكة حتى . نقرأ الأبيات التالية :

عندما تحمل الملكة
الجنين[2] في بطنها

(١) مركيزية أي أرض يملكها مركيز .

(٢) أو طفل صغير .

سوف يكون حالك السواد لأنه يخص مدينة أنكر . .

غير أن « كونشيني » غير مبال ، بهذا الكلام الهجر[1] . . كذلك زوجته فلا يخافان من دسائس البلاط . ويعلمان حق العلم ، بأن ماري دي مديتشي ، قوية جداً ولا يستطيع الجلساء ، محاربتها بصورة ايجابية . . ولا يباليان بمشاعر الشعب ، الذي يكن لهما النفور والاشمئزاز فهما شخصان أجنبيان ، ولم يحاولا كسب الشعبية أو رضى الجمهور الفرنسي ، بأي شكل من الأشكال .

مع مر السنين ، أصبحت « ليونورا كونشيني » أغنى امرأة في فرنسا وأصبح « كونشيني » سيد المملكة . اختلسا خيرات الدولة ، ومارسا سياسة ملائمة لمصالحهما الخاصة وماذا حل بفرنسا . . بعد ذاك ؟ مثل هذه المشكلة ، لا تثير اهتمامهما . . من بعيد أو من قريب . . ولا يختلف موقف الملكة الوصية عن هذين الزوجين . . فهي كذلك ، غير فرنسية . انها ايطالية الأصل .

يتمتع هذان المتآمران بالنباهة والحنكة . . رغم ذلك ، لقد ارتكبا خطأ احترابياً لا يغتفر . لقد أهملا ولداً يتيماً ، يناهز التاسعة من عمره ، غامضاً ، منعزلاً ، بليداً ، ولا تتجلى معالم الذكاء واضحة ، على محياه ، ويدعى لويس . جاز القول بأن لويس الثالث عشر الصغير ،لا يوحي الثقة بظاهره[2] . فأمه لا تحبه . . ولا تهتم به كثيراً . إنها تولي ابنها الثاني عناية خاصة ويدعى غاستون . أما هو ، فقد عزلته عن شؤون الحكم بصورة غير معقولة . فلم تطلعه على أي أمر ولم تسمح له بالتالي ، حضور جلسات الوزراء . كتب « الدوق دوروهان » في هذا الصدد : « ان كراهية الملكة الأم ، لابنها ، أمر لا يصدق » .

إنه يعيش في عزلة دائمة . ليس لديه أي صديق ، ليشاركه في اللعب . إنه محاط على الدوام بالمؤدبين . باختصار : إن لويس الثالث عشر يعاني من الضجر أشده . يحاول أن يشغل نفسه بأية وسيلة ممكنة . يقضي وقته في التنزه في حدائق « التويلوري » ويقوم بأعمال البستنة مستعيناً بالمنقلة[3] لحمل التراب من مكان إلى آخر .

كان في البداية ، منطوياً على ذاته ، ثم أصبح فيما بعد ، سكوتاً . باختصار ، انه فتى شاحب ، حالم .

---

(١) الكلام البذيء .

(٢) انه عكس ما يوحب مظهره الخارجي وعلائم محياه الغامضة التي تميل نحو الخمول والانطواء على الذات .

(٣) المنقلة وهي نقالة بعجلة تستعمل عادة في أعمال البناء .

طبعاً ، لقد تأثر الزوجان « كونشيني » بموقف الأم العدائي لابنها الشاب . فالكراهية واضحة ، في تصرفاتها وأقوالها . قال كونشينو ذات مرة : (إنه أبله) . وقالت ليونورا : « انه أحمق » . والمعلوم أن كونشينو متحدث بارع ، لطيف المعشر وجذاب بالفطرة ، كان بمقدوره كسب ود الفتى لويس ، بكل سهولة . لم يزعج نفسه اطلاقاً . لذلك ، ظهر على خشبة المسرح ، شخص آخر ، ليلعب هذا الدور الهام والحساس . . وليحل أخيراً محل كونشيني .

ان البرت دوق دولين هو أحد جلساء الملك الرابع القدماء ، وكان في الثلاثين من عمره ، عندما التحق ببلاط الملكة . لقد كلف برعاية ولي العهد[1] ولاحظ على الفور العزيمة الحقة ، الكامنة وراء هذا المظهر البليد ، الخامل . . وصفات الملك وراء هذا الطباع العاق . وتبين له بأن هذا الفتى المنعزل شغوف بالطيور . عندها ، قرر التصرف بسرعة بدأ بتشييد مطيرة[2] ، داخل شقة ولي العهد . ثم أخذ يتزود بمراجع متعلقة بالطيريات[3] فاستفاد لويس الثالث عشر ، من هذا العلم الحديث أيما استفادة . لا غرور ان بهرته هذه المعرفة الحديثة وأدخلت في قلبه السرور العظيم . للمرة الأولى ، يصادف أنساناً ، يهتم به كل الاهتمام . إنه مستعد أن يصدق كل ما يتفوه به « الدوق دولين »ولا يحب الدوق السيد دوتشيني ولا زوجته ولا عجب أن تحدث عنهمابالسوء.

في هذه الأثناء ، أصيبت ليونورا بوعكة صحية . . وكانت حالتها تتفاقم يوماً بعد يوم أخذت تنتابها آلام متواصلة عند البطن وكان يغمى عليها من حين الى آخر ، بسرعة ولأتفه الأسباب . فهي مصابة حتماً ، بعلة صرعية ، ولكن ، في ذلك الحين ، كان يعتبر هذا المرض النفساني ، ملغزاً تماماً . فاستعانت بالسحرة المهارسين الذين يستعملون الأساليب الطبية الدينية والشعوذة . لقد عالجها في البداية ، طبيب برتغالي ، وأسفرت المعالجة عن نتيجة ايجابية ويدعى مونتالدو . لكنه فارق الحياة ، بعد زمن قصير . عندها ، استدعت الى القصر . رهباناً ايطاليين . أما طريقتهم العلاجية فلا تخلو من وسائل الرقية[4] التقليدية . . تمشياً مع عصر تسوده المعتقدات الخرافية سوف تؤدي مثل هذه الاستعانة الى أفدح العواقب ، في وقت لاحق .

في عام ١٦١٦ ، عينت الملكة ، كونشينو كونشيني ، مارشال فرنسا . ومنذ ذلك

(١) الدوفان (ولي عهد فرنسا) .

(٢) بناء كبير مخصص لتربية الطيور .

(٣) اي مبحث علم الطيور

(٤) أي التعزيم أو طرد الأرواح الشريرة .

اليوم لقب هو وزوجته باسم « مارشال أنكر » . في هذه الفترة بالذات ، ازدادت كراهية الشعب حدة . . وبلغت ذروتها .

صرح برلمان باريس مايلي (موجهاً كلامه الى الملك) : لم ينضم بعض الأشخاص الى البلاط ، بفضل كفاءات أو خدمات مشكورة ، بل بواسطة الذين يودون الحصول على مخلوقات .

تمرد النبلاء لكن كونشيني غير مكترث بهذا الأمر ، لقد بلغ الآن ذروة مجده . يريد أن يصبح قائداً عاماً ، وهي أعلى رتبة في فرنسا . . ونادراً ما تهب المملكة مثل هذا المنصب الرفيع . إنه حدث نادر حقاً . أما عدد ملاكه ، فيتجاوز الأربعين سيداً ، بحيث يدفع له كل سنة ، مبلغ ألف ليرة . . بالإضافة الى عدة آلاف من المحاربين الذين يشكلون تهديداً صريحاً .للجيش الملكي بالذات .

بات « كونشينو كونشيني » سيد فرنسا الحقيقي . إنه يحكم بالنيابة عن جميع الوزراء هو بنفسه ، يستقبل السفراء الأجانب . . ومتى شاء ذلك . . . وقد فرض احترامه على أكبر شخصيات عصره . يرمي في السجن أياً كان ، دون استشارة أحد ، وأرهق كاهل المدن بالضرائب الخاصة ، وذلك لتأمين نفقات فرقه العسكرية ، التي تخصه شخصياً .

أما بالنسبة لزوجته ليونورا ، فالمال هو شغلها الشاغل . . لا السلطة . لكنها جاوزت الحد . . في هذا المجال . . تماماً ، شأن زوجها كونشينو . استطاعت أن تجمع ثروة طائلة تساوي الخمسة عشر مليون ليرة . . بشكل قطع من الألماس . فيما يتعلق بالممتلكات الخاصة يعتبر مثل هذا المبلغ ، رقماً خيالياً . . إنه يعادل ميزانية الدولة . في الواقع ، إنه يمثل ميزانية المملكة السنوية . إن ثروة الزوجة ليونورا كونشيني الملقبة بالسيدة غاليغايي ، لا تقل أهمية عن محتويات خزينة الدولة الفرنسية .

عام ١٦١٧ . في مطيرة ، قائمة داخل شقة الملك ، تم تقرير مصير فرنسا . لقد انضم الدوق الى أسرة البلاط الملكي ، كبيزار[١] . . ها قد أصبح الآن كاتم أسرار ومستشار ولي العهد . . ولم يصعب عليه بعد ذلك ، تحريضه ضد كونشيني وزوجته . بالطبع ، يتصرف « الدوق دولين » وفقاً لمصالحه الشخصية ، لكن مصالحه تتفق مع مصالح الدولة . وفي هذا الوقت بالذات ، بدأ لويس الثالث عشر ، يدرك أهمية مصلحة الدولة العليا .

(١) مدجن البأز .

أخذ يحدث الملك ، عن مواقف الشعب العدائية من كونشيني وزوجته . قرأ له المقالات الانتقادية العديدة ، المتداولة بين أيدي الناس ، في مدينة باريس . وأغلب هذه المقالات ، موجهة إلى لويس الثالث عشر ، طالبة منه التصرف كملك وانقاذ المملكة من سيطرة الغرباء . . . وأضاف الدوق قائلاً :

ـ عليك القيام بالخطوة الأولى ، عندها ، سينضم إليك جميع الأمراء ، وسيهتف الشعب باسمك .

أخيراً ، اقتنع ولي العهد بفكرة البيزار . ولتحقيق مثل هذه الغاية ، وجب التخلص أولاً من كونشيني وزوجته . . بأسرع وقت ممكن . إنما لا يبدو الأمر سهلاً . ظل لويس الثالث عشر متردداً ، حائراً . . بينما واظب الدوق على عمله التحريضي ضد كونشيني ، كل مساء ، أمام المطيرة .

يبدو بأن الأحاديث التي جرت بينهما ، قد فعلت فعلها . إنما شخصية الملك الضعيفة في هذا الصدد ، لا تثير مخاوف أحد . غير أن كونشيني ، يدرك تمام الادراك ، بأن « ألبرت لين » هو عدوه اللدود . وزوجته أيضاً ، ينتابها الشعور نفسه .

ذات يوم صرخت ليونورا في وجه مروض الباز :

ـ لين ، لين ، سوف نقص جناحيك . . .

من ناحية ثانية ، إن انشغال ولي العهد بالطيور وعدم اهتمامه بقضايا الدولة لا يثير اطلاقاً غضب الناس ، ويعتبر البيزار ، الدوق لين ، مهرجه الخاص .

قال مرة كونشيني : هناك فرق شاسع بيني وبين السيد لين . فلا داعي للخوف .

إنما تجري الرياح بما لا تشتهي سفينة كونشيني . . اذ بدأت الأمور تتطور بسرعة ، قرب المطيرة . بدأت المؤامرة تتخذ شكلاً منظماً ـ اذ شرع لويس الثالث عشر يخطط لانقلاب شرعي حقيقي . وحاول الدوق اقناع الملك بالقاء القبض على كونشيني ولكن . . كيف ؟ إنه حذر ولا يثق بالآخرين ، ثم لا يتنقل بدون حرسه الخاص المدجج بالسلاح . قام لويس الثالث عشر ، بالمحاولة الأخيرة ، بأسلوب لطيف وناعم .

في ١٧ نيسان عام ١٦١٧ ، بعث الملك الشاب ، برسوله إلى والدته ، قائلاً لها بأنه يرغب بالحاح استلام مقاليد الحكم ، طالباً منها ، طرد الزوجين كونشيني . فكان رد فعل الملكة عنيفاً جداً . كان الجواب قاطعاً : كلا . . وعلى الفور ، أنذرت

كونشيني ، الموجود في مدينة النورماندي . فرجع مسرعاً إلى باريس . عندها أخذ يتوعد بالانتقام ويطلق التهديدات المجلجلة ، المفرقعة ، صارخاً بأعلى صوته :

ـ سوف أعدم « لين » وثمانين مشبوهاً . . معه .

وخلال هذه الساعات العصيبة ، انتاب أهل القصر شعور من الخوف على حياة لويس الثالث عشر . . اذ اقترح أخصامه تنحيته عن العرش واستبداله بأخيه غاستون دورليان الإبن المفضل لدى أمه الملكة .

هذه المرة ، وجب التصرف بسرعة . سيفوز بالنصر ، الفريق الذي يسبق توجيه الضربة الأولى . ومثل هذه العملية المغامرة ، تستوجب رجلاً متمرساً . لقد عثر عليه « لين » ، وقدمه للملك حالاً . . عند المساء . إنه كابتن الحرس الملكي ويدعى نيقولا دولوبيتال مركيز دوفتري . إنه رجل حيوي ، شجاع جداً . . حتى درجة التهور . إنه يمقت كونشيني . . ويتميز باخلاصه الكلي لولي العهد لويس الثالث عشر . وهذا أمر أكيد ولا شك فيه على الاطلاق .

جرى الحوار الحاسم ، أمام المطيرة :

ـ أيها السيد ، إني آمرك بالقاء القبض على كونشيني .

تردد كابتن الحرس . أخيراً ، طرح سؤاله مجازفاً :

ـ فماذا أفعل يا صاحب الجلالة . . اذا حاول الدفاع عن نفسه ؟

توقع فتري جواباً من لويس الثالث عشر . . ولكن ، بلا فائدة . فكان ولي العهد يتسمع لزقزقة العصافير في المطيرة . فكان الدوق لين ، هو المجيب عن هذا السؤال :

ـ يقترح الملك قتله .

نظر « فتري » إلى الملك الذي يناهز السادسة عشرة من عمره ، ويراقب العصافير . . دون أن يتفوه بكلمة . . انحنى أمامه باجلال وقال :

ـ يا صاحب الجلالة ، سأنفذ أوامرك .

ولكن . . لم تنفذ الخطة في موعدها المحدد . عادة ، يقصد كونشيني قصر اللوفر كل صباح ، مجتازاً شارع النمسا ، المقابل لشارع سان جرمان لوكسوروا . اذن ، يجب اغلاق باب اللوفر الخارجي ، بعد اجتيازه العتبة ، لفصله عن موكبه المرافق له . بعد ذلك يتسنى « لفتري » القبض عليه . وكان ٢٣ نيسان ، اليوم المتفق عليه لتنفيذ الفكرة .

صباح ٢٣ نيسان : كان لويس الثالث عشر في الكنيسة ، يحضر قداساً . . كان هادئاً جداً . برأي الجميع ، إنه المراهق التافه . . البليد الذهن . عندما خرج من الكنيسة علم بأن القضية قد أرجئت إلى موعد آخر . لم يأت كونشيني وهذا أمر استثنائي ، ولا يعقل ترك فيتري ورفاقه في الحراسة ، لمدة أطول . لم يدع خيبة الأمل تسيطر عليه ، بالعكس ، تصرف بهدوء تام ، كأن شيئاً لم يكن . هذا الشاب الذي يعرف بالشخصية الضعيفة ، سوف يبرهن في المرحلة العصيبة عن سيطرة للنفس ، بشكل مذهل حقاً . . لقد أرجأ دوق لين موعد تنفيذ العملية ، إلى الصباح التالي (٢٤ نيسان) .

عند الساعة العاشرة صباحاً ، كان ولي العهد يمارس لعبة البليارد ، بهدوء تام . في هذه الأثناء ، نصب فيتري كميناً مع رجاله وعددهم ثمانية عشر . . اذ توقع وصول كونشيني إلى هذا المكان بعد قليل ، وبرفقته سبعون شخصاً . هاكه وصل . بيد يحمل باقة ورد ، وبيد أخرى ، يقرأ رسالة وهو يمتطي فرسه بكل فخر واعتزاز وكان يرتدي بأناقة ملحوظة ، الرداء المخملي الأسود الموشى بالزركش القيطاني[1] ، وهو من صنع مدينة ميلانو .

وما إن دخل إلى قصر اللوفر ، حتى أقفل رجال فيتري الباب وراءه ، غير مبالين باحتجاج الحارس . في هذه اللحظة بالذات ، كان كونشيني يقرأ الرسالة . لم يلحظ شيئاً . دنا منه فيتري وقال :

ـ باسم الملك . . إني أقبض عليك .

أجاب كونشيني بالايطالية :

ـ آمه ؟ . . (علي . . أنا ؟)

تراجع إلى الوراء ومد يده إلى غمد السيف . صاح فيتري :

ـ أجل . . إني أقبض عليك .

لم يستطع التفوه بكلمة ، أو توجيه أي أمر لرجاله . وما إن رفع يده محاولاً أن يستل سيفه حتى انطلقت النيران من كل حدب . رصاصتان أخطأتا الهدف . إنما الرصاصات الثلاث الأخرى ، أصابت المرمى في الصميم : الأولى استقرت تحت عينه اليسرى ، والثانية ، بين عينيه ، والثالثة في زلعومه .

---

(١) متحبك من خيوط حريرية ومعدنية ، تزركش به أطراف الثوب .

تدحرج كونشيني أرضاً . . جثة هامدة . غير أن فيتري ورجاله ، اعتقدوا بأنه جريح فقط ، فانهالوا عليه ضرباً بسيوفهم الحادة وهم يزمجرون :

ـ اقتل ، اقتل . . . عاش الملك .

وما إن دوت الطلقات النارية ، حتى دب الخوف والرعب في أرجاء قصر اللوفر ، بسرعة خاطفة . في هذه اللحظات بالذات ، كان ولي العهد ، موجوداً في القصر ، برفقة لين . امتشق الحسام للقتال واتجه راكضاً نحو مصدر الصوت . أوقفه أورنانو (كولونيل الحرس) : ـ يا صاحب الجلالة . . انتهى كل شيء .

أطلق ولي العهد صيحة فرح ثم اتجه نحو النافذة . وفتحها على مصراعيها . . بينما احتشد أهل البلاط في الحدائق المجاورة للقصر وقد بدت علائم القلق والحيرة واضحة على وجوههم . صاح لويس الثالث عشر :

ـ شكراً . . شكراً جزيلاً لكم ، في اللحظة . . إني ملك .

أخيراً ، أدرك أهل البلاط ، حقيقة الموقف ، ومن خلال الجلبة والصخب ، دوى صياح جماعي .

ـ عاش الملك .

عندها ، وجه كلامه الحماسي إلى حراسه بنبرة آمرة :

ـ إلى السلاح ، إلى السلاح ، أيها الرفاق . ربما ، أراد كونشيني القيام برد فعل ما ، ولكن ، من الآن فصاعداً . . بات الأمر مستحيلاً . بفضل سرعة الخاطر[1] المذهلة التي تميز بها لويس الثالث عشر ، ضمن لنفسه النجاح الحاسم للانقلاب السياسي هذا ، وبات بهذه الطريقة ، انقلاباً شرعياً .

على الفور ، بعث الملك برسوله إلى الوالدة ، كي يسحب منها حق الوصاية على العرش ، وكي يستلم بيديه زمام أمور الدولة . فوجئت ماري دي مديتشي بهذا الخبر . رفضت الاقرار بالواقع . وبسرعة أرسلت إليه فارسها الأول طالبة مقابلة فورية . وبعد فترة وجيزة ، عاد الرسول حاملاً الجواب الآتي :

ـ الملك منهمك جداً . . وقد أرجأ المقابلة إلى يوم آخر .

وفي نفس الوقت ، وصل اثنا عشر قواساً ، ينتمون إلى فرقة الملك ، ليحلوا محل حرس الملكة الشخصي . ثم كلف جنديان للقبض على ليونورا كونشيني . عندما رأتها

---

(١) سرعة الخاطر ورباطة الجأش معاً . .

قادمين قالت لهما :

ـ سمعت طلقات نارية . . هل كانت موجهة ضد زوجي ؟ أجاب أحد الجنديين :

ـ بالفعل ، سيدتي . وهناك نبأ محزن : لقد مات زوجك .

ـ هل أمر الملك بقتله ؟

ـ أجل ، سيدتي .

لم تطلق ليونورا صرخة ولم تذرف دمعة . ثم سألتهما :

ـ هل يمكنني رؤية الملكة ؟ كلا .

لم تدرك بعد ، بأنها أصبحت الآن أسيرة ، في شقتها . . شأنها شأن ماري دي مديتشي تماماً . ابتعد الجنديان فترة وجيزة عن شقتها . في هذه الأثناء ، هرعت إلى مجوهراتها ودفنتها تحت اللحاف . إنه تصرف ولداني . بعد لحظات معدودة . دخل إلى الشقة ، حراس آخرون ، وبدأوا بالتفتيش الدقيق ، فعثروا على الأحجار الكريمة . . وكانت بوفرة مذهلة . وقد ورد في البيان بالموجودات الذي حرر في حجرتها بالذات ، العبارة التالية :

« كانت تحمل ليونورا في أصابعها خواتم تخص تاج العرش » .

بماذا تفكر السيدة « غاليغايي » في هذه الليلة بالذات ، أي في ٢٤ نيسان عام ١٦١٧ . . . وهي تتأمل حدائق اللوفر من خلال نافذة شقتها التي تحولت إلى سجن ؟

مرت في مخيلتها ثلاث مراحل :

ـ المرحلة الأولى . عندما استدعاها دوق توسكانا لخدمة ماري .

ـ المرحلة الثانية : عندما أصبحت ماري دي مديتشي ملكة فرنسا .

ـ المرحلة الثالثة : عندما جعل خنجر « رافاياك » من ماري ، الوصية على العرش .

لقد حالفها الحظ وكان سخياً . ولكن ، هل تكون هذه الأحداث السعيدة ، نذيراً لشقاء قادم ؟

مسكينة ليونورا ، هل ظلمها القدر وتجاوز الحد معها ، عندما رماها لقمة سائغة بين أنياب الغضب الشعبي الثائر ؟

تود لو تكذب نفسها . برأيها سوف يصدر قرار بمصادرة أملاكها وسوف تطرد إلى بلادها . ستحمل معها ذكريات جميلة وعذاباً اليماً ، أنها فقدت إنساناً أحبته ، لأنه شبيه بها .

لو تدري ماذا يحل بزوجها الآن ؟ لقد تم دفن الجثة بسرعة في مقبرة « سان جرمان » لكن الشعب نبشها وأخرجها من القبر وأخذ يجرها في شوارع باريس . . ثم قطعها ورماها إلى الكلاب .

وتجري الأمور بسرعة .

في ٤ أيار ، وضعت ليونورا في سجن الباستيل . وفي ٢٢ ، جرى تحقيق سريع ، ثم اقتيدت إلى قاعة البرلمان .

أين هي الآن ، المرأة الظافرة التي لقبت نفسها « غاليغايي » . . يوم كانت تتنزه وهي موشاة بجواهر تاج فرنسا ؟ إن المرأة الحالية التي تمثل أمام القضاة ، تختلف تمام الاختلاف عن ماشطة الملكة ماري دي مديتشي . تبدو الآن مريضة وقد أذابها الهم والغم . . نظرات غائرة ووجه شاحب هزيل . . وترتدي ثوباً وحيداً بالياً . . لا تملك سواه في هذا السجن المظلم .

رغم ذلك ، ظلت ليونورا كونشيني ، ثرية . . وهنا تكمن المشكلة .طوال سنوات عهد الوصاية ، كدست أموالاً طائلة . . تفوق الخيال . في هذه الحالة بالذات ، يتدخل عقد « فصل الأموال » بين الزوجين . لم يلحق اغتيال كونشيني بالضرر ثروة ليونورا . فهي ملكها الخاص .

وتمشياً مع قانون ذلك العصر ، لا يوجد سوى احتمال واحد لاستعادة ثروة المحكوم عليه : يتم ذلك ، عندما يصدر في حقه الحكم بالموت .

الحكم بالموت على ليونورا كونشيني ، ولكن . . كيف ؟ وما هو وجه التهمة[1] ؟ حتى ولو كانت تهمة اختلاس أموال الدولة واضحة وبينة ،إنما لا تستحق الحكم بالموت . لذلك ، استوجب ايجاد تبرير آخر . . بهذا ، سوف تكون محاكمة ليونورا مرتبطة بقضية « داعي المصلحة العليا » ، أكثر من ارتباطها بالعدالة .

حاول أولاً قضاة برلمان باريس ، برهنة النقطة التالية : كانت ليونورا مع كونشيني متآمرة مع رافاياك ، في اغتيال الملك هنري الرابع . مثل هذه التهمة ، تؤدي حتماً إلى الموت ، لكنها تهمة باطلة[2] . في الواقع ، لقد استفاد الزوجان الايطاليان من اغتيال الملك ، إنما مثل هذه الحالة من الاستفادة ، لا تشكل برهاناً حسياً فيما يتعلق بالتواطؤ الجنائي . لقد أصيبت ليونورا بالهلع والدهشة لدى سماع مثل هذا الاتهام . لكنها

(١) أو عنصر الاتهام .

(٢) أو بلا مبرر .

استطاعت أن تبطل مفعول هذه المكيدة .

هكذا ، بالنسبة لقضاة البرلمان الباريسي ،باءت المحاولة الأولى بالفشل ، وفيهم القدر الكافي من النباهة ، كي لا يلحقوا على متابعة هذا الأسلوب في المحاكمة . فلم يجدوا أمامهم سوى عنصر اتهام واحد ، الذي يستحق الحكم بالموت : الشعوذة[1] .

إن التبرير محكم . والمعلوم أن ليونورا ، قد أصيبت سابقاً ، بنوبات عصبية حادة ، فاضطرت إلى استدعاء جميع الأطباء على اختلاف أنواعهم ، وكان أطباء ذلك العصر ، رجال دين ومعزمين . ونتيجة لهذا التصرف صدر القرار التالي : إن ليونورا ساحرة ، وفي بداية القرن السابع عشر ،يحكم على الساحرة بالموت . . . حرقاً .

أخذ القضاة يبحثون عن الصدع . يا له من تنكيد فظيع . . لقد دام أكثر من خمسة عشر يوماً .ولكن مع مر الأيام ، تخلى القضاة عن فكرة الشعوذة وعن المؤامرة المتوهمة المتعلقة باغتيال هنري الرابع . وكانت أجوبة المتهمة واضحة للغاية :

ـ عالجت نفسي تماماً كما تفعل أية سيدة ثرية في وقتنا الحاضر ، أي مزجت الصلوات بالأدوية المادية .

هل ستنجو ليونورا من الموت ، بفضل هذا الجواب الصريح المقنع ؟ ولكن ، هل نسينا بأن الحاجة أم القانون ؟[2]

في ٨ تموز ١٦١٧ ، حكم برلمان باريس بالموت على ليونورا كونشيني ، بتهمة الالحاد والتعدي على مصلحة الدولة العليا .

واعتبرت تهمة الشعوذة مستبعدة الحدوث ، فلم يحتفظ بها ، وبالتالي ، لا تؤدي إلى الحكم بالموت . اذن ، فهو قرار اتهامي غير شرعي . . ويعرف باسم « داعي المصلحة العليا » .

تم تنفيذ الحكم بالاعدام في نفس اليوم ، عند الساعة الخامسة مساء . اجتازت ليونورا كونشيني ، شوارع مدينة باريس ، في عربة المحكومين ، وسط صراخات الكراهية المدوية من حناجر الجماهير المحتشدة . . هذه الكراهية التي ازدادت حدتها ،

---

(١) أي اللجوء الى الأرواح الشيطانية لتحقيق غرض ما وكانت تعتبر ممارسة هذه الاعمال الشيطانية في بداية القرن السابع عشر جريمة قانونية مريعة لا تغتفر .

(٢) بمعنى أن القضاة يحتاجون الى ذريعة مختلفة لقتلها كي يتسنى لهم استعادة أموال الخزينة . فاستعمل هنا الكاتب بمهارة فائقة العبارة المأثورة (الحاجة أم الاختراع) واستبدلها بتعبير ملائم للنص المعالج (الحاجة أم القانون) أي الحاجة الى قتلها .

منذ الانقضاض على زوجها في قبره ، لقد قدم الشعب جثة كونشينو طعاماً للكلاب . . وسوف يحذف اسم المارشال عن مدينة « أنكر » ويستبدل به اسم « ألبرت » ، نسبة إلى اسم الدوق دولين . . لمحو وصمة العار . إنما ، لم يكتف الشعب بهذا العمل . يجب أن لا يبقى أي أثر من ليونورا : لقد رموا جسدها بين لهب النار بعد أن حولوه إلى أشلاء مبعثرة .

في الحقيقة ، كان القدر كريماً جداً مع ليونورا ابنة النجار الفلورنسي . . اذ أصبحت سيدة فرنسا الثانية . لقد جاوز الأمر حده . .

حبذا لو لم تذهب هذه الفتاة السوداء[1] والمقلدة إلى قصر مديتشي . عادة ، من يعاشر أشخاصاً لا ينتمون إلى عالمه ، ينتهي به الأمر ، إلى دوخة تصيب رأسه وأحياناً ، إلى تعريض هذا الرأس لسيف الجلاد . . فلا غر وإن تدحرج بين يديه . . ذات يوم .

* * *

(١) هذا يعني بأن جو الأمراء (في أوروبا) مشحون بالتعصب العنصري .

مقتل البراءة

الطفل الضحية غاسبار هوسر

ماعلاقة نابوليون بهذه القضية الملغزة ؟

انه الفجر . لقد دقت ساعة كاتدرائية نورمبرغ : الخامسة صباحاً . السماء صافية والطقس جميل .

ماتزال تعتبر « نورمبرغ » في بداية منتصف القرن التاسع عشر ، مدينة الآثار الرائعة ، بفضل بيوتها المدهشة التي تخص العصر الوسيط . . رغم روعة وبهاء هذا الطقس ، ما زالت المدينة ، نائمة حالمة . . إذ يعتبر يوم ٢٦ أيار عام ١٨٢٨ ، صبيحة عيد الفصح المجيد . بالأمس ، احتفل الجميع به : البورجوازيون والحرفيون والعمال . . في المنزل وفي الحانات .لقد طالت السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل . . لا عجب ، إن لم يستيقظ باكراً ، أهالي نورمبرغ ، في هذا الصباح المشرق .

مع ذلك ، ما يزال هناك بعض الأشخاص ، شاردين في شوارع نورمبرغ ، يحتفلون بالعيد على طريقتهم الخاصة .

في حي « فوس أوزورس » يسير اسكافيان يمنة ويسرة ، يتمايلان ويترنحان وقد أخذت فيهما الخمرة أي مأخذ . . يتجهان نحو بيتهما وهما ينشدان أغنية شعبية بصورة مزعجة ومضحكة حقاً . لقد قضيا ليلة سعيدة في إحدى حانات المدينة . يسيران في وسط الطريق ويتصرفان كأنهما الوحيدان في هذه المدينة الهادئة ، الغارقة في سباتها العميق .

يؤدي هذا الطريق إلى باحة . فجأة ، وضع « ويكمان » يده على ذراع صديقه الاسكافي وقال له بدهشة وارتباك :

ـ يافرانتز . . هل رأيت ؟ ماهذا ؟ شيء غريب .

بالفعل ، انه أمر غريب . في وسط الباحة ، يقف فتى ، لم يناهز بعد السادسة عشرة من العمر ، يرتدي قميصاً رمادي اللون ، بنطاله قصير ، مشدود بحمالات على

الطريقة الالمانية ، أما سترته فهي من القماش الأسود . ويقبض بيده اليمنى على قبعة ، أما يده اليسرى ، فهي ممدودة أمامه ، أشبه بمتسول يطلب التبرع من المارة . . إنما تحمل بين الأصابع المرتعشة ، رسالة . اصيب الاسكافيان بالذهول التام ، إذ وقع بصرهما على شخص جامد مثل التمثال الحجري أو أشبه بتمثال[1]مصنوع من الشمع .

عيناه جاحظتان . . تحدقان بالفراغ أما وجهه الشاحب ، فلا يتضمن أي نوع من التعبير اقترب منه الرجلان : هيه : أيها الصديق .

ظل الصديق صامتاً . . لم يتحرك . . لم ينظر اليهما عندها ، تناول « ويكمان » الرسالة وقد زال عنه السكر وفضها . انها موجهة إلى السيد الكابتن آمر سرية فرسان الملك الرابعة . انها مكتوبة بالالمانية وبخط سيء جداً ، وتحتوي على العبارات التالية :

« بكل احترام . . إلى السيد الكابتن . اني ارسل لك هذا الصبي الذي يود خدمة ملكه باخلاص . استلمت هذا الصبي بالأمانة ، في ٧ أكتوبر عام ١٨١٢ ، اني مياوم فقير ، لدي عشرة أولاد . لقد سلمتني اياه أمه لتربيته ، لكنها لم توضح لي الأمر اطلاقاً ، ولم أعلم المحكمة حول هذا الموضوع .

لاأحد يعرف المكان الذي نشأ فيه ، وهو بذاته ، يجهل اسم منزلي . حاول أن تسأله فلا يعرف شيئاً . . علمته القراءة والكتابة .

أيها الكابتن لاتشغل بالك . لا يستطيع أن يذكر لك عنواني الحالي . لقد جئت به إلى هذه الباحة ، عند منتصف الليل . انه يجهل طريق المنزل . لا يملك مليماً واحداً . إن وجدته غير نافع . . بامكانك شنقه فوق المدفأة » .

بالطبع ، لايوجد أي امضاء ، عند نهاية الرسالة . لكنه عثر على ورقة أخرى ، تابعة للرسالة الأولى . . وهي مكتوبة بخط مختلف :

« إن اسمه في المعمودية هو غاسبار » بامكانك اختيار اسم عائلته . . على هواك . . أرجوك الاعتناء به . ولد في ٣٠ نيسان عام ١٨١٢ اني فتاة تعيسة ولا استطيع الاحتفاظ به والده ميت » .

هل يشفق عليه الكابتن المعني بالأمر ، ويشرف على تربيته فيخلصه من هذا التشرد المهين ؟

تأمل الكابتن « فون وسنينغ » الرسالتين بحيرة واكتئاب . تجهم وجهه وقال محدثاً نفسه : « ما معنى هذه النكتة اللعينة ؟ ما هدفها ؟ أستلم رسالة مغفلة من رجلين

(١) مثال أو تمثال لعرض الملابس (مانيكان) .

سكيرين وبرفقتهما ولد مشرد . ياللمهزلة ، لقد طفح الكيل ، ومتى ؟ يوم الاثنين . في عيد الفصح » .

التفت إلى الجندي وقال له بنبرة غاضبة : خذه إلى البرج .

والبرج هو حصن يخص العصر الوسيط ويقع في وسط المدينة ويستعمل كسجن بلدي . وقد نجا بأعجوبة حلال غارات الدو العنيفة التي شنتها على المدينة ودمرت البنايات التاريخية العديدة . . أيام الحرب العالمية الأخيرة . يعتبر هذا الحصن ، الأثر الباقي الوحيد الناطق عن تاريخ مدينة نورمبرغ العريق .

بقي غاسبار عدة أيام في البرج . ركن إلى زاوية من الحجرة ، وأخذ يداعب نفسه . بدأ يتنزه على يديه ورجليه مرسلاً صرخات متقطعة . لقد وجد الهدوء والسكينة داخل السجن . يبدو أنه استعاد هناك عاداته القديمة . لم يعامله السجان بقساوة . .بل بلطف ومودة . سأله : ما هو اسمك ؟ ما هو عنوان بيتك ؟

ظل غاسبار صامتاً ارتسمت على شفتيه ابتسامة بريئة وطفلية . ولكن ، عندما قدم له السجان ورقة وقلماً ، أشرق وجهه فرحاً . بدا للحارس وكأنه تمثال آلي وقد تحرك فجأة بحكم تحرك الفصال[1] . تناول القلم واستطاع بعد جهد جهيد ، كتابة كلمتين فقط : غاسبار هوسر .

مثل هذا الاكتشاف الغريب ، قد حير وأثار فضول السلطات المسؤولة . . وانتشر الخبر بسرعة مذهلة . ولا عجب ان حضر عمدة نورمبرغ بذاته ، لا ستجواب هذا الفتى المشرد .

واستغرق استجوابه مدة طويلة . . وقد أدى العمدة واجبه بروية وبصبر تام . يا لتعاسة غاسبار هوسر ، لقد صعب عليه الاجابة عن الاسئلة المختلفة ، اذ لا تتعدى معلوماته اللغوية اكثر من مئة كلمة . مثل هذه الثروة الكلامية المحدودة ، جعلته غير قادر على توضيح مشكلته الملغزة .

رغم ذلك ، استطاع العمدة الحصول على معلومات قيمة . . في مدة لا تتجاوز الأسبوع تقريباً . . وأعلن للناس ، نتيجة هذا الاستجواب : لقد سجن غاسبار في حجرة ضيقة صغيرة منخفضة بدون أرضية ، كان ينام على كومة من القش وعلى تراب مدروس . لا يرى الضوء إلا قليلاً من خلال نافذتين . كان يقضي معظم أوقاته ، جالساً القرفصاء ، وهو يتسلى بحصانين من الخشب الأبيض وبكلب من الخشب

(١) الفصال أي الأداة التي تفصل بين قسمي الآلة .

أيضاً . وقد وضع في حفرة مجاورة له ، اناء خاص ، لقضاء الحاجة . وعند الطرف الآخر من الحجرة ، وضع كيس من القش كي يستعمله كسرير له .

لقد أوشك أن يفقد القدرة على المشي ، بسبب هذا القعود المتواصل . استيقظ ذات صباح ووجد قرب السرير ، خبزاً أسود ، ماء والاناء فارغاً . جاءه رجل ، يرتدي الثوب الأسود وأخذ يعمله القراءة والكتابة . ذات مساء قال له : سوف تذهب معي إلى المدينة الكبرى .

في منتصف الليل ، حمله على كتفيه وانطلق به ، عبر الغابات الكثيفة . بعد ثلاث ليال وثلاثة أيام من السير المتواصل ، تركه الرجل في هذه الباحة من المدينة ، حيث التقاه الاسكافيان السكيران . . وقد سلمه رسالة ثم توارى عن الأنظار .

ـ القصة الرومانسية ـ

[illegible] نورمبرغ أي في مدينة المانيا القديمة ، وفي أوج المرحلة الرومانسية ، بدت قصة هذا الطفل الليلي ، [illegible] الكائن المجهول القادم من عالم الألغاز . مثيرة للغاية . . فألهبت مخيلة الناس وأصبحت [illegible] الشاغل ، من هو غاسبار هوسر ؟

أمر العمدة بتوزيع الاعلانات على الجدران ، [illegible] تتضمن أوصاف هذا الشاب المجهول طالباً من أهالي المدينة ، تزويده بالمعلومات . انما [illegible] يشاهده أحد ، ولا يعرف أحد شخصاً يدعى غاسبار .

في هذه الأثناء ، كلفت السلطة استاذاً مقيماً في نورمبرغ ، تعليم وتربية غاسبار ، ويدعى جورغ دومر . فأحرز التلميذ ، تقدماً سريعاً . إنه موهوب ومواظب على دروسه . تعلم الأبجدية وعد الأرقام . ثم تعلم أشياء مدهشة حقاً : الجغرافيا والتاريخ . كان يستمع إلى شرح أستاذه بدهشة بالغة مع شيء من الاضطراب والقلق .

عند المساء ، يبدأ بتلاوة دروسه : عدد سكان نورمبرغ ٣٠ الف نسمة . . المانيا ، أوروبا . . الأرض مستديرة الشكل . . نحن الآن في عام ١٨٢٨ . . ثم يتردد قليلاً ويتوقف فجأة عن الكلام . هناك عائق ما ، يمنعه عن متابعة تلاوة ما حفظه غيباً . يجب تفهم واقعه هذا أمر بديهي . ليس من السهل اجتياز كل هذه المرحلة الملغزة من ماضيه التعيس بفترة وجيزة . لقد قضى ستة عشر عاماً في مكان محدود ، بحيث لا تتجاوز معلوماته حصانين من خشب وكلباً ورجلاً يرتدي الثوب الأسود .

لحسن حظه ، كان الأستاذ دومر أخصائياً في ميدان علوم السحر والتنجيم وما شابه ذلك لذا ، لا عجب ان أولى اهتماماً خاصاً بأحلام غاسبار . ذات يوم ، وصف له غاسبار الحلم الذي شاهده أثناء نومه :

- حلمت بقصر كبير حيث أدهشتني أقسامه الرائعة والأشخاص الذين يرتدون الثياب الفخمة .

بالنسبة للأستاذ دومر ، إن هذا الحلم هو برهان واضح : لقد ولد فعلاً غاسبار في قصر قبل أن يوضع سراً في سجنه المنعزل عن العالم . باختصار ، إن غاسبار هو ابن أمير أو ملك . وقد اختطف من القصر واقتيد إلى حجرة نائية ، وعاش هناك عمراً طويلاً ، وحيداً غريباً . . أشبه بالحيوان الصغير المتوحش .

لقد تم حجزه ووضعه تحت الحراسة ، لمنعه عن استلام زمام الحكم بعد موت والده . هل صدق الأستاذ دومر في تخمينه . . استناداً إلى حلم هذا الفتى الضائع ؟

هل هو حقاً ابن عائلة ملكية . . وقد تم خطفه وابعاده منذ طفولته [illegible] وطنه الأم ، لمنعه عن استلام زمام الحكم ؟

هل هذا معقول أم ضرب م[illegible] [illegible]رم الرومانسية السائدة عصر ذاك بالأخص في مدينة نورمبرغ الا[illegible] . . عام ١٨٢٨ ؟

[illegible] الأستاذ دومر الشخص الوحيد الذي خطر في باله ، مثل هذا التفكير . بسرعة البرق ، انتشر لغز غاسبار هوسر ، في جميع أرجاء أوروبا . وأخذت أوروبا تبحث بدورها وبحماس فائق ، عن والد هذا الولد المجهول . . هل هو ابن ملك أم ابن أمير؟ لهذا السبب ، وجب العثور على العائلة الأميرية التي فقدت طفلاً منذ زمن طويل أي بين عام ١٨١١ وعام ١٨١٣ واتضح لهم الأمر التالي : لا توجد في هذا الحقبة من الزمن سوى عائلة واحدة وهي آل باد .

- نابوليون والأمير ستيفاني دوباد -

إن حياة ستيفاني دوباد ، أشبه بالقصة الرومانسية . اسمها الأصلي ستيفاني دوبوهارنه وهي ابنة عم جوزفين ، زوجة نابوليون بونابرت . أصبحت عند نهاية الثورة الفرنسية يتيمة وفقيرة . ولكن ، عندما استلم نابوليون زمام السلطة في فرنسا ، تحولت تعاستها إلى حياة اسطورية ، مليئة بالغبطة والرفاهية . تبناها نابوليون في قصره ، واعتبرها ابنته المفضلة ، ثم اختار لها عريساً مناسباً : الأمير دوباد .

كانت إمارة « دوباد » محاطة بالمكائد على اختلاف أنواعها . والمعلوم أن الأمير باد هو الابن البكر ، للعائلة الأميرية تلك . لهذا السبب ، حاول أفراد العائلة حرمان زوجة الأمير باد » من الوريث الشرعي . إن انجبت طفلاً ذكراً ، هذا يعني بأنه سيرث حتماً حكم الامارة بعد موت والده . هاك ما حدث :

أنجبت الأميرة ستيفاني في باد ، ثلاث فتيات وصبيين مات الاثنان في عمر الطفولة .
توفي أحدهما في ١٥ اكتوبر عام ١٨١٢ هنا ، وجب طرح السؤال التالي :
هل مات حقاً الطفل الثاني ؟

ربما اختطف منذ ولادته ، ثم كلف الخاطف فلاحاً للاعتناء به ؟ أجاز أن يكون الطفل المخطوف غاسبار هوسر بالذات .

إن جميع الدلائل تشير إلى أن هذا الاحتمال معقول وممكن حدوثه . على الفور ، اعتنق الجمهور هذه الفرضية ، وبدأ يبحث عن أصل هذا الفتى المشرد ، وبدأ المؤرخون والصحافيون الاهتمام جدياً بهذه المشكلة ، محاولين العثور على دلائل حسّية. ولكن ، لم يخطر في بالهم بأن مثل هذا الاهتمام المتزايد بشخصية الفتى ، انما يعرضه لأخطار عديدة إذ ، مثل هذا الاكتشاف عن هوية الطفل الليلي ، يضر حتماً بمصلحة الوريث غير الشرعي ؟ يبدو أن هذا الطامع بالوراثة ، قد دبر هذه المكيدة وأبعده عن وطنه الأم . . ولن يتردد الآن عن قتله ، بالأخص ، بعد افتضاح أمره . لا عجب ، إن حاول هذا الوريث غير الشرعي ملاحقة غاسبار حتى في مدينة نورمبرغ ، لتنفيذ المرحلة الأخيرة من خطته الدموية ، كي لا يبقى أي أثر ، لجريمته تلك . ولكن ، من المحتمل أن ينجو غاسبار ، هذه المرة ، من مخالب هذا المجرم الخفي . يبدو أنّ السلطة الساهرة على حياته ، في نورمبرغ ، قادرة على حمايته واعادته الى [illegible] بوي ، عاجلاً أم آجلاً .

ساد الاعتقاد الآن بأن غاسبار هوسر هو في الحقيقة الوريث الشرعي للدوقية الكبرى في منطقة باد . . هذا يعني ، بأنه أصبح في الوقت الحاضر ، معرضاً في كل لحظة ، للاغتيال ـ لن تخرج حياً . . من هذا القبو ـ .

يوم السبت ، ١٧ تشرين الأول عام ١٨٢٩ مضى على غاسبار هوسر ، سنة وستة أشهر ، مذ خروجه من هذا الظلام الموحش . أخذ يتكيف رويداً رويداً مع عادات الناس . طبعاً ، من حقه لعن الانسانية جمعاء ، لكنه تصرف مع الآخرين ، بنعومة

وتواضع . إنه مستعد دائماً أن يخدم أي شخص ويخلص له ، والابتسامة لا تفارق شفتيه . ومن يتحدث معه الآن ، لن يخطر في باله اطلاقاً ، بأنه ذاك الولد المشرد الغامض ، الذي تحول بين عشية وضحاها ، إلى لغز عصره رب أشخاص اختلط عليهم الأمر ، فاعتبروه شخصاً عادياً وطبيعياً بكل معنى الكلمة . لقد انسجم مع مجتمعه الجديد ، بصورة مدهشة . إنما حصل ما لم يكن بالحسبان ، في يوم السبت ١٧ تشرين الأول عام ١٨٢٩ ، بدأ قدره يتقمص قناعاً مختلفاً : إنه قناع المأساة .

- قناع المأساة -

ذات صباح ، قصد السوق كي يتبضع للسيد والسيدة دومر . إنها الساعة ١٢ ظهراً ، ولم يرجع بعد . بدأ البحث عنه ، في البيت ، في الحديقة : لا أحد .

أخيراً ، عثر عليه في القبو . كان مصاباً بجرح بليغ في رأسه ، وقد أغمي عليه من شدة الضرب . استدعي الطبيب : ليست حالته خطيرة ، فالجرح سطحي . استطاع غاسبر أن يتكلم :

- قال لي رجل في القبو : لن تخرج من هنا حياً . ثم ضربني وبعد ذلك . . لم أعد أعرف شيئاً .

لم يسفر تحقيق الشرطة عن نتيجة ملموسة . لا يوجد أي دليل يتعلق بهوية هذا المعتدي المجهول . بعد فترة وجيزة ، تماثل غاسبار للشفاء .

عندها ، قررت سلطات مدينة نورمبرغ ، تفويض عضو في المجلس البلدي ويدعى بيبرباخ ، للاعتناء به وحمايته بعد ستة أشهر ، دوت طلقة نارية ، في غرفة هذا الشاب . هرع إلى الغرفة ، أفراد عائلة بيبرباخ . وقع بصرهم على غاسبار ، واقفاً ، فاغر الفاه ، بيده ترشح دماء ، وقد أصيب بجرح في صدغه . قال لهم :

- صعدت على كرسي ثم وقعت أرضاً . . وأثناء السقوط صدمت المسدس ، فانطلق عيار ناري وأصابني هنا . .في صدغي .

والمعلوم أن عائلة نورمبرغ . زودته بمسدسين ، للدفاع عن نفسه . إنما تبدو هذه القصة خيالية . لم يكن جرح غاسبار ، ناتجاً عن طلقة نارية ، إذ لا يوجد أي أثر للاحتراق . إذن ، ما الذي جعله يكذب ؟ هل هاجمه شخص ما ؟ هل التزم الصمت خوفاً من المعتدي الذي هدده قبل الابتعاد عنه ؟ إنه لغز جديد قد اضيف إلى سائر الألغاز المتعلقة بحياة هذا الشاب الضائع بين الحقيقة والأوهام .

منذ ذلك الحين ، داهم التشرد حياة غاسبار . أخذ يتنقل من منزل إلى آخر ، أقام أولاً في منزل البارون فون توكر[1] ، لمدة سنة كاملة . ثم انتقل إلى دار أخرى ، تخص رجلاً ثرياً ، غريب الأطوار ، ويدعى اللورد ستانهوب . لقد سافر من انكلترا إلى نورمبرغ ، لمشاهدة هذا الشاب الملغز ، الذي أصبح حديث المجتمع الأوروبي قاطبة . قرر اللورد معالجة مشكلته بجرأة وشجاعة . نقده في بداية الأمر ، مبلغ خمسمائة فلورين[2] ، وقدم منحة خمسمائة فلورين ، للشخص الذي يكتشف أصل عائلة هذا الشاب .

في هذه الأثناء ، أخذ غاسبار يعاشر صالونات المجتمع الحديثة . . طبعاً باشراف نصيره اللورد ستانهوب . لقد أثار اهتمام الجميع وأصبح محط الأنظار وشغل شاغل الناس . فكانت تتوق السيدة الجميلة إلى لمسه ومداعبته . أصبح محور الجاذبية ، في حله وترحاله .

لم تطل اقامته في منزل اللورد ، إذ ضجر منه ، فطلب من أحد أصدقائه الاعتناء به وقع الاختيار على الأستاذ ماير .

يقيم الأستاذ ماير مع زوجته ، في بلدة تعرف باسم أنسباخ ، وقد منحهما اللورد مبلغاً محترماً ، مقابل هذه العمل الانساني .

هكذا ، تخلى غاسبار عن الحياة العصرية الصاخبة وثرثرات الناس وحشريتهم المزعجة والتجأ أخيراً إلى بيت دافىء وهادىء .

ـ هل وجد أخيراً الطمأنينة في هذه البلدة الريفية الآمنة : أنسباخ ؟

هنا ، في هذه البلدة الريفية الهادئة ، وجد غاسبار راحة البال والطمأنينة . . قرب زوجين سعيدين . أما طبعه المسالم ، فلم يتغير اطلاقاً . انه فتى بسيط للغاية . . يداعب الأطفال الذين يبادلونه الحب والمودة فهذا أمر بدهي ، إذ يحصل التجاوب الشعوري بحكم تشابه النفسيات . إن نفسية غاسبار متشابهة أصلاً لنفسية الأطفال . . إذ ظلت نقية . . صافية مثلهم تماماً . اعتبر السيدة ماير أمه وكان يناديها بعض الأحيان « ماما » . حاول السيد ماير مساعدته ، للعثور على وظيفة . بالفعل ، لقد وجد له عملاً متواضعاً كسكرتير في محكمة البلدة . بعد الانتهاء من عمله ، كان

---

(١) بارون وهو لقب نبالة .

(٢) فلورين وهو نقد فضي في هولندا .

يتردد على قس البلدة ، الذي يهتم بتربيته . فكان طلباً نبيهاً ورضياً .
كانت حياته بين ١٨٣٢ و ١٨٣٣ رضية تماماً . إن الموجة الصاخبة التي أحاطت به من كل جانب ، هدأت الآن . ولكن ، ما زال المجتمع يتذكره . بالطبع ، لقد اصبح أسطورة في نظر المؤلفين والشعراء . منذ ذلك الحين ، لم يحاول أحد تعكير صفو هنائه .
عام ١٨٣٣ اصبحت البلدة على عتبة عيد الميلاد . الآن بمقدور غاسبار اجتياز شوارع أنسباخ بحرية وبشكل عادي ، إذ لم يعد الناس فضوليين كسابق عهدهم . . فلا يلتفتون إليه ولا يشيرون إليه بالأصبع . لقد انصهر أخيراً في بوتقة هذا المجتمع المتطور .

قضى غاسبار الصباح بكامله في دار القس الواقع في ١٤ ديسمبر ١٨٣٣ كان يساعد أولاد القس في تقطيع والصاق الصور على قطعة من الكرتون ، ويشاركهم في صنع مغارة عيد الميلاد . . يتمتع غاسبار بمهارة يدوية فائقة . . في هدا المجال .
انصرف القس . بقي غاسبار فترة وجيزة مع أولاده ، يداعبهم ويمازحهم . ثم قال لهم :
- إني ذاهب إلى الحديقة العامة . إلى اللقاء أيها الأولاد .
انها الساعة الثالثة بعد الظهر . عند الساعة الثالثة والنصف ، وصل غاسبار إلى منزل آل ماير . لقد اعترى الشحوب وجهه المرهق . مال نحو السيد ماير وتمسك بذراعيه : - الحديقة . . رجل . . سكين . . أعطى كيس نقود . . جريح . . ركضت . . بقي . كيس النقود هناك . . تمدد على الأرض . نزعوا عنه الثياب . يوجد جرح عند الجهة اليسرى تحت القلب . وصل معاً ، الطبيب والشرطة . أخذ غاسبار يتصبب عرقاً . كان يتكلم بصعوبة فائقة : - رجل . . هذا الصباح . . حدد لي موعداً عند الساعة الثالثة كي يحدثني عن ولادتي . عندما وصلت . . أعطاني كيس نقود . . أخذت كيس النقود . . وغدرني بطعنة سكين .
عندها ، قصد شرطي ، الحديقة العامة . عثر هناك على كيس نقود بنفسجي اللون . وجد في داخله ، نصاً مكتوباً بالمقلوب ، ويمكن قراءته ، عند وضعه أمام المرآة :

« يستطيع هوسر » وصفي بدقة ، وصف مظهري الخارجي والتحدث عن أصلي . كي أوفر على « هوسر » عناء الاجابة عن كل ذلك ، قررت أن أذكر لكم بنفسي المكان

الذي جئت منه . إني قادم من حدود « البافيير »[1] ، المطلة على النهر . إن اسمي هو : (م . ل . و) .

- هل حان أجل غاسبار ؟ هل خاب سعي الطبيب وهل خاب أمل أنصاره . . للاستيلاء على امارة باد ؟

رغم عناية الطبيب المتواصلة ، تفاقمت حالة الجريح . . وازدادت خطورة يوماً بعد يوم في ١٧ ديسمبر ، بدأ الهذيان . نادى أمه أي السيدة ماير . استدعي القس :

- كيف حالك ياغاسبار ؟

- جيد . . ياسيدي القس . . لكني تعب جداً .

- . . رب تتحسن ياغاسبار . يجب متابعة العمل في المغارة . . لم ينته العمل بعد . أرجو ذلك ياسيدي القس ، ولكن يبدو لي الأمر غير ممكن .

- غاسبار ، هل يؤنبك ضميرك بخصوص شيء ما . . وتود التحرر من عبئه ؟

- أبداً . اني مطمئن البال ؟ طلبت العفو عن جميع الناس . لم يفهم القس مغزى هذا الكلام :

- تقصد بأنك تود العفو عن الأشخاص الذين أساؤا إليك . . أليس كذلك . حاول غاسبار أن يبتلع ريقه بصعوبة : ولم العفو؟ لم يسيء إلى أحد . .

- ١٧ ديسمبر ١٨٣٣ : الوداع -

١٧ كانون الأول ١٨٣٣ ، دقت ساعة الكاتدرائية العاشرة ليلاً . كان القس منحنياً فوق السرير . رفع رأسه ، انتصب واقفاً ، ورسم على صدره اشارة الصليب : مات . . غاسبار هوسر .

جرى تحقيق فريد من نوعه ، عصر ذاك . لقد أمر ملك البافيير ، بمكافأة مالية تقدر بعشرة آلاف فلورين ، للشخص الذي يقبض على المجرم . كان يتضمن ملف التحقيق ، ٣ آلاف وثلاثمائة صفحة .

بدأ البحث عن الجاني ، في المانيا وفي جزء من أوروبا . اتخذت القضية الصفة السياسية ، وجرى التحقيق بين قضاة المحكمة المتعلقة بدوقية باد الكبرى . فلم يعثر على أي أثر للقتل .

---

(١) بالالمانية بارين انها منطقة المانية ، وكانت عضواً في الريح - ظل الحكم ملكياً حتى عام ١٩١٩ ثم أصبحت جمهورية وهي مكونة من البافيير ، بالاتنيا ، فرانكوني وسواب مساحتها ٦٧ ألف كم٢ . العاصمة هي ميونيخ . زراعتها متطورة وفيها المياه المعدنية الحارة .

بعد سنتين من التحريات المضنية المتواصلة ، صدر قرار باغلاق الملف . . نهائياً .
لم تتجاوز القضية هذه النقطة بالذات .

- من هو القاتل الحقيقي ؟

ماذا نعرف اليوم ، عن هذه القضية الملغزة ؟ جاز القول بأن الأسطورة الرومنسية التي جعلت من غاسبار ابن الأمير « باد » ، غير مستندة إلى وقائع حسية .

في عام ١٨٧٥ تمت مراسيم الدفن الوهمي للطفل الرضيع الذي مات عام ١٨١٢ ، لا مجال للشك : كان هذا الطفل بالذات ، الوريث الشرعي لدوقية باد الكبرى .
ولكن يظل هذا السؤال المحير يراود المحققين باستمرار : من قتل غاسبار هوسر ؟ للاجابة عن هذا السؤال ، لزم الرجوع إلى الوقائع . أولاً : حدوث الاعتداءات الثلاثة ، ورغم التحريات التي أجريت بشأنها ، لم يتوصل التحقيق إلى اكتشاف أي دليل ثبوتي للمجرم . فالمعلومات الوحيدة التي حصل عليها المحققون ، انما صادرة عن غاسبار بالذات . ثانياً : هناك العبارة التي كتبت على الورقة التي عثر عليها في الحديقة العامة ،حيث لاقى غاسبار حتفه : « أود أن أقول لكم بنفسي ، من أين أتيت » .

من الملاحظ بأن هذه الصيغة بالذات ، قد رددها « غاسبار هوسر » في مفكرته اليومية . كان يحتفظ سراً بهذه المفكرة . وهناك الكلمات الأخيرة التي ذكرها قبل موته : « لم يسيء إلى أحد » .

بلا شك ، يجب الأخذ بعين الاعتبار ، هذه الكلمات الأخيرة والتي توضح لنا وجه الحقيقة . بالفعل ، لم يقتله أحد . هو بذاته ، قام بثلاث محاولات ، لقتل نفسه . انما يظل السؤال التالي معلقاً ، بلا جواب : لماذا حاول قتل نفسه ؟

كي ندرك الحقيقة ، علينا أن نسبر أغوار هذه النفس المعذبة ، التي لاقت الأمرين منذ الطفولة ونشأت في ظروف استثنائية مريعة حقاً . ان دراسة سيكولوجية هذا الفتى المشرد ،تساعدنا لنفهم الدوافع التي جعلته يتصرف بهذا الشكل الملغز المحير . لقد انتقل فجأة من الوحدة القاتلة إلى الحياة الاجتماعية الصاخبة . . لا بل إلى قمة النجاح : إلى المجد . جعل الناس منه ، اسطورة . أصبح موضع حشرية الجميع وأداة التندر والشغف .

من البدهي أن يصاب بجنون العظمة ، بات اللغز الحي الذي تلاحقه نخبة القوم لطرح الأسئلة المختلفة . . وبالأخص السيدات الجميلات وأعيان المجتمع الراقي . .

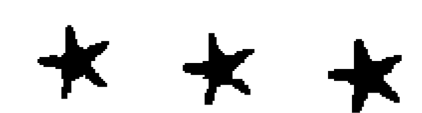
يتهافتون عليه ، ويتنافسون فيما بينهم للحصول على مقابلة أو مكالمة عابرة . ثم ، ينساه الجميع . عندها ، أراد جذب الانتباه ، فتقمص شخصية الشاب الملغز ، اختلق هذا القاتل الوهمي الذي يلاحقه باستمرار ، فأراد بذلك أن يظل غاسبار هوسر ، الذي لم يطرأ عليه أي تغيير .

لقد انجذب غاسبار هوسر إلى الدور الذي فرضه عليه المجتمع ، واستمر يؤدي دوره ، حتى النهاية .

انما يظل اللغز قائماً ، إذ لا يمكن انكار الحقيقة التاريخية التالية : لقد اختطف غاسبار منذ طفولته وعاش في سجن مظلم أشبه بالقبر حتى السادسة عشرة من عمره .

جاز الاعتقاد بأنه لم يكن الوريث الشرعي لدوقية باد الكبرى ، لكننا ما زلنا غير قادرين على تحديد هويته الحقيقية . جل ما نستطيع قوله : انه من أشهر الأساطير الرومنسية التي عرفها تاريخ أوروبا لقد أصبح أنشودة ترددها شفاه جيل بكامله . . غاسبار هوسر ، ابن هذا المقدر المأساوي . . القادم من هذا الليل البهيم . . من أين أتى وإلى أين عاد ؟ لا أحد يعلم . لم نجد سوى بعض الأبيات الشعرية الجميلة التي نظمها الشاعر الفرنسي بول فرلين ، كختام لهذه القصة الحزينة الغريبة :

- هل ولدت باكراً جداً . . أم متأخراً جداً ؟
- ماذا أفعل في هذه الدنيا ؟
- آه ، أنتم جميعاً . . ان عذابي لعميق . .
- صلوا لأجل غاسبار التعيس .



وتم إعدام الكاهن

تعذيب وإعدام الكاهن الغاوي، أوريان غراندين.

وثيقة عقد مع الشيطان « أوربان غرانديه » أو راسبوتين فرنسا . . زير النساء . . قصة واقعية أغرب من الخيال . .

ـ اعترف بأنك ساحر . . اعترف بجريمتك ، صاح الكاهن وهو يحترق :

ـ اخنقوني ، اخنقوني .

بداية المأساة :

١١ أكتوبر عام ١٦٣٢ م . نحن الآن في مقاطعة « لودان » . . المقاطعة الريفية الحالمة في فرنسا . يجري حالياً ، في دير راهبات « الأورسولين » ، مشهد غريب للغاية . الممثلان هما : رجل وامرأة . والرجل هو كاهن ويدعى الأب « مينيون » أما المرأة ، وهي الراهبة الأخت « جان ده زانج » . . وهي رئيسة الجمعية . انها قصيرة القامة ، ذات وجه كئيب ، كافر بالنعمة ، يتصبب جبينها عرقاً . . وبغزارة . . انها تتنفس بصعوبة وبجلبة مزعجة حقاً . . أشبه بالشخير . اقترب منها الأب مينيون وقال بنبرة آمرة وبأسلوب مسرحي :

ـ اذكر لي اسمك .

انتفضت الأخت جان وألقت نفسها إلى الوراء . . انطرحت أرضاً وأخذت تئن وتتلوى كالأفعى . انحنى الكاهن فوقها وبدأ يهزها بعنف :

ـ اذكر لي اسمك ، اني آمرك . . باسم المسيح .

عندها ، حدث شيء غريب حقاً . ردت الأخت جان على سؤاله . بالأحرى ، كان المجيب رجلاً ، يتكلم في داخلها ، بصوت مخيف أجش :

ـ اني عدو الله . . أمسك الأب مينيون بكتفي الراهبة :

ـ اذكر اسمك ، اذكر اسمك ايها المخلوق النجس .

انتابت الراهبة حالة من التشنج المخيف[1] جحظت عيناها وأخذت تتلفت يمنة

---

(١) الناتجة عن شعير هستيري ، شأن الاختلاج الصرعي .

ويسرة بشكل هستيري واضح . . حوزقت ثم أطلقت صرخة كأنها منبعثة من وراء القبور :

- بلزبوت .

ابتهج الكاهن مينيون . لقد اكتشف الحقيقة : « بلزبوت » هو الشيطان ، برأيه ، لقد دخل الشيطان الى منطقة « لودان » في ١١ اكتوبر عام ١٦٣٢ . ويبدو أنه غير مستعد للخروج منها . . في القريب العاجل .

كانت « لودان » في عام ١٦٣٢ ، مدينة هامة ، غير أنها تعتبر في أيامنا الحاضرة مركز قضاء متواضع ، لمدينة « فيين » لقد أصيبت في العصر الفائت ، بنكسات متتالية نتيجة للحروب الدينية ، وظلت حصناً منيعاً للديانة البروتستاتينية . في هذا العام بالذات أي ١٦٣٢ م ، أصابتها نكبة أخرى وتعتبر كارثة جماعية مريعة : الطاعون . رحل هذا الوباء عن مدينة « لودان » مخلفاً وراءه الضحايا بالآلاف : مات أكثر من ٤ آلاف نسمة دفعة واحدة . والمعلوم أن عدد سكان المدينة ، يناهز ١٤ ألف نسمة .

لاعجب أن وقع مثل هذا الحادث الهستيري المعروف بالاستحواز[1] ، في هذه المدينة المنكوبة ، المصابة بصدمة نفسية عنيفة . لا غرو إذا كان دير راهبات « أورسولين » مسرح أحداث هذه القصة الدرامية المشحونة بانفعالات الهلوسة الدينية .

عادة لاتنضم الفتاة الى دير « الأورسولين » بسبب الايمان ، إذ لا يرتكز على نظام متصوف[2] ، انما على نظام عملي . ان اهتمامه الأول هو تنشئة الفتيات . وتقوم عدة عائلات بمعاش هؤلاء الفتيات . غالباً ما تقصد الدير الفتاة التي لم ترزق بعريس . هكذا ، تدخل الصبية إلى الدير بدون إيمان ، خاضعة بصورة عمياء لنظامه الصارم ، حتى درجة العبودية . باختصار ، ان راهبة دير « الأورسولين » ضحية هذه الأوضاع الشاذة . عليها أن تقضي حياة مضجرة ورتيبة للغاية ، لهذا لا عجب أن استسلمت إلى حالات من الاستيهام[3] والكبت الناتجة عن الزهد والتقشف .

أما رئيسة الدير ، الأخت « جان ده زانج » ، فهي مصابة بالهوس الصوفي المتطرف . يعود سبب تفوقها الى ميولها المتصلبة المتعلقة بالاماتة .

استمر الحوار في حجرة الأخت جان . بفضل هذا الحوار المسرحي ، استطاع الأب

(١) الاستحواذ أي نوع من الهذيان يحس فيه المريض أو ، شيطاناً يتملكه (أو مس من الشيطان) .

(٢) أي مستغرق في التأمل الديني .

(٣) الاستيهام أي تصور تخيلي خادع من حلم أو هلوسة .

« مينيون » استنطاق الشيطان . لقد عرف اسمه . هذا جل ما يريده . انما ، يود الآن معرفة السر الخطير : هوية الساحر الذي أدخل « بلزبوت » الى جسم الراهبة . رفع صليبه وقال بنبرة غاضبة : كيف جئت ؟

عندها ، تخلى الشيطان عن صوته الملغز الأجش وأخذ يكلمه بوصت صافر :

- بواسطة حقنة في الوردة .

- ومن سحر هذه الورود؟ فجأة ، أصيبت الراهبة بتهيج شديد وظلت تضطرب بعنف :

- لن اقوله لك . دعني وشأني . من هو؟ كاهن . ما هي رتبته ؟ راعي كنيسة .

في هذه الأثناء كانت الراهبة جان تفتح فمها ثم تقفله . . كأنها تترجح بين قوتين متنازعتين . أخيراً صرخت :

- أوربان .

لم يهمل الكاهن فريسته ، بل ظل متمسكاً بها . على الفور ، طرح السؤال التالي :

- يعني ؟ راعي كنيسة « سان بيار دومارشه » .

- قل لي اسمه الكامل ؟ أوربان غرانديه .

هكذا بهذه الطريقة الغريبة صدر الحكم بالادانة بخصوص افظع وأخطر جريمة عرفها القضاء الكنيسي في القرن السابع عشر : الشعوذة[1] انما ، هل أصيب أحد بالدهشة والاستغراب لدى سماع هذا الاسم الذي ذكره الشيطان بواسطة الراهبة التهرعية[2] ؟ لأحد . . إذ توجد في مدينة لودان ، عدة أسباب لتوجيه التهمة إلى الكاهن « أوربان غرانديه » .

يناهز « أوربان غرانديه » الثانية والأربعين من عمره . يعتبر مظهره الخارجي غير مألوف ، بالنسبة لصورة الكاهن التقليدية . فهو طويل القامة ، عينان واسعتان ، أنف شهواني ، شفتان غليظتان ، وقد شذب لحيته على شكل قرن . . شارباه معقوفان . . انه النموذج الحي للغاوي الكامل ، في ذلك العصر . لا يتميز بمظهره الجسماني وحسب . . بل هناك عدة صفات بارزة اضافية ، يتمتع بها . باختصار أن « أوربان غرانديه » شخصية مرموقة وجذابة .

---

(١) بمعنى السحر أو العرافة المرتكزة على قوة سيطانية (رقية) .

(٢) أو المستيرية أو بالمصابة بالتهرع .

يعتبر من الناحية الفكرية ، رجلاً موهوباً بشكل آخاذ . التحق بالرهبنة وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وعين راعي خورنية « سان بيار دومارشه » وكاهناً قانونياً للكاتدرائية « سان كروا » في لودان وهو لم يزل في السابعة والعشرين من عمره . في الواقع ، انها ترقية مذهلة ، ويعتبر مثل هذا المركز الرفيع دقيقاً وحساساً جداً ، بالنسبة لمدينة بروتستاتينية . شأن مدينة لودان .

لدى وصوله إلى « لودان » جذب أنظار الجميع نظراً لمظهره الجسمي المؤثر وثقافته الواسعة . لا عجب أن أصبح قبلة أنظار وأهم العائلات . مثل هذه الشهرة السريعة ، قد أثارت حفيظة رجال الدين .

أما « أوربان غرانديه » فلم يتردد في توجيه الانتقادات اللاذعة ضد هؤلاء الكهنة الحاقدين عليه . كان يسخر علانية من رهبان الكرمل ، الذين يدعون بأنهم يملكون تمثالاً أعجوبياً في ديرهم . كذلك تهجم بعنف على الكبوشيين . وكلما اعتلى المنبر ، أثناء قيام الصلاة ، دعا أبناء رعيته إلى الامتناع عن الاعتراف في الأديرة . . بل يجب الاعتراف له وحده وليس لأحد سواه .

بالفعل ان راعي كنيسة « سان بيار دومارشه » مؤمن صادق ، لكن عقيدته الدينية أرقى وأدق من ايمان الأغلبية من رجال الأكليروس . حارب بجرأة وشجاعة جميع مظاهر المعتقدات الخرافية . جل همه ، هو التبشير بالدين الصحيح . نظراً لهذا الموقف الانتقادي المتواصل ، كثر عدد أخصامه وأخذوا يترصدون له ، للايقاع به . باتوا ينتظرون المناسبة المؤاتية، للانقضاض عليه ، كالذئاب الكاسرة .

لقد ارتكب « أوربان » أخطاء أخرى . في الواقع ، انه يتمتع بصفات عديدة ، بحيث تؤهله كي يتبوأ أرفع المراتب في النظام الكنسي . لكنه عرض نفسه للخطر وللشبهة نتيجة لعناده وغروره . صحيح أن غلطته الأولى تافهة وغير مؤذية . . لكنها تحمل بين طياتها ، أفدح العواقب وأخطرها .

في بداية عام ١٦١٨ ، ترأس زياحاً[1] في منطقة لودان . وبصفته الكاهن القانوني لكنيسة « سانت كروا » يحق له التقدم على رئيس دير « كوساي » وكان يومها ، حاضراً . لكن رئيس الدير هو أصلاً أسقف « لوسون » وتقتضي اللياقة بأن يتنازل « أوربان غرانديه » عن مركز الصدارة ، أمام الأسقف المذكور . لكنه أراد التقيد

(١) طواف بأشياء مقدسة داخل الكنيسة أو في الشوارع

بالمراسيم التقليدية ، وتصدر الزياح . . فعل ذلك غير مبال بأي رد فعل سلبي . . في الحاضر أو في المستقبل .

ظل الأسقف هادىء الأعصاب . . لم يبد اي اعتراض لهذا التصرف الأرعن . أما الكاهن « أوربان غرانديه » فلم يهتم اطلاقاً لهذا الأمر . هل يزعج نفسه لأجل هذا الرجل المغمور؟ بالنسبة له ، ما هو إلا الكاهن المثبت لأتعس أبرشية في فرنسا فهو لا في العير ولا في النفير[1] . . لكن هذا الأسقف المستهان به ، طموح جداً ويتمتع بصفات عديدة . بفضل هذا الطموح النهاش ، سوف يتبوأ مركز الصدارة في فرنسا ولن ينسى أبداً تلك الاهانة التي وجهت إليه خلال اقامة الزياح . هذا الرجل الصغير القدر ، المغمور قد أصبح فيما بعد ، من أشهر رجال فرنسا السياسيين ، ويدعى : ريشليو .

تتعلق الغلطة الثانية بالنساء . لا يتميز « غرانديه » بمظهر الغاوي وحسب ، بل يتميز بموهبته الفائقة في الاستفادة من هذه النعمة النادرة . انه يتطاوس[2] في الشوارع ، موزعاً نظراته الوقحة ، المتهتكة ، على النساء الفاتنات .رب فتاة نادمة أو أرملة تائبة عن خطاياها ، قد استسلمت لاغوائه ، دون اية مقاومة تذكر . ولكن عصر ذاك ، كانت مثل هذه المغازلة[3] عادية ، ولا تثير اهتمام الأغلبية من الناس .

لكن الراهب الغاوي ، فحش فحشاً لايطاق . .[4] إذ أوقع في حبائله ابنة وكيل الملك ويدعى « ترانكان » فكان يتناول الفطور على مائدته ، كل يوم تقريباً . توطدت العلاقة الغرامية بينهما ، ولما صارت حبلى ، تخلى عنها . . بهذا المعنى ، لا يصح اعتباره هاوياً في ميدان التضليل والاغواء . فهو في الحقيقة ، « دون جوان » عصره ، بلا منازع . عندما تقع الفريسة المشتهاة بين مخالبه ، ينفر منها بلا أي سبب وبلا أي تفسير . لم تعد تثير اهتمامه اطلاقاً . وبكل وقاحة ، ينتقل من الفريسة الأولى ، باحثاً عن الفريسة الثانية ، لتلاقي المصير نفسه .

شاع الخبر في جميع أرجاء مدينة لودان ، مفاده أن ابنة وكيل الملك ، قد انجبت طفلاً ، أما والد الطفل فهو دون جوان « لودان » أي الراهب الغاوي « أوربان

(١) فلان لاي العير ولا في النفير (يضرب للرجل الصغير القدر المستهان به)

(٢) يتبختر ، يمشي كالطاووس .

(٣) غازل المرأة أي حادثها وتودد اليها

(٤) جاوز حده فهو فاحش

غرانديه » . . أي راعي كنيسة سان بيار ، مسكين قاضي الملك ، لقد وصمته هذه الحادثة الأليمة ، بالعار هكذا ، جلب « أوربان » لنفسه عدواً لدوداً ، من المستوى الرفيع .

سوف يلقنه درساً لن ينساه مدى العمر . إن الوالد الملطخ بوصمة عار ، أشد خطراً من الزوج المخدوع .

في هذه المرحلة من حياته ، أوقع في حبائله فتاة يتيمة ، تنتمي إلى طبقة النبلاء ، وقد أوكل إليه أمر تربيتها الروحية ، وتدعى « مادلين برو » انما حدث ما لم يكن بالحسبان : للمرة الأولى في حياته ، يقع في الحب انه مغرم بها حتى الجنون . وهي أيضاً ، فقدت عقلها ، من جراء هذه العلاقة الغرامية الجارفة . عرض عليها فكرة الزواج سراً لم تتردد لحظة . قبلت العرض فوراً . برأي سكان « لودان » لقد وقعت هذه الفتاة الخود[1] ، لقمة سائغة بين أنياب هذا الخائل[2] المحتال .

حصل الزواج خلال احتفال غريب حقاً . . إذ لعب « غرانديه » دور الزوج والكاهن والشاهد . . بالاضافة إلى ذلك ، لقد ألف خصيصاً لها كتاباً بعنوان « بحث ضد عزوبية الكهنة » حيث يقول بكل صراحة : « إن منع الرجل عن الزواج ، لا يقل قساوة عن منعه عن الطعام والشراب » . .

لقد طفح الكيل . الآن ، وقد تدعثت صدور أعدائه[3] اتفقوا جميعاً للقضاء عليه . وأغلب أخصامه هم من الحاسدين . فلا عجب أن تمالأ القوم عليه[4] ، نظراً لهذه المواهب الفكرية التي يتمتع بها ولهذا العيش الرطيب[5] الذي ينعم به ، من زوجته الشابة ، « مادلين دوبرو » .

رغم هذا الهجوم المفاجىء ، استطاع « أوربان غرانديه » أن ينجو من مكيدتهم . . لقد تم القبض عليه وأحيل إلى القضاء بعد أن علقت جميع صلاحياته الكهنوتية ، بتهمة ارتكاب الفجور العلني[6] . . لكنه طلب الاستئناف وربح الدعوى .

الآن وقد عانى وكابد من ضراوة وهياج أعدائه الكثير ، عليه التصرف بحذر شديد وباعتدال . ولكن ، هل بمقدوره التخلي عن الاعجاب بنفسه وعن فكرة الانتقام ؟ بالنسبة له ، هذا أمر مستحيل .

---

(١) خود أي الشابة الناعمة الحسنة الخلق .
(٢) الخائل أي الشاب المختال . . المغرور بنفسه .
(٣) أضمرت العداوة
(٤) اجتمعوا وتعاونوا عليه .
(٥) العيش الرطيب أي العيش الرخي الناعم .

هكذا ، دخل الى مدينة « لودان » ممتطياً فرسه ، حاملاً بيده غصناً من الغار ، رمز الانتصار والظفر ، ثم اتجه إلى داره ليقابل زوجته « مادلين دوبرو » . . إنما يعتقد الناس بأنها محظيته .

في هذه المرحلة من تاريخ فرنسا ، انتشر الوباء ، وهو مصيبة المصائب ، الذي اعتبره سكان « لودان » لعنة الهية . أما الأب غرانديه ، فقد أسرع في مساعدة ومعالجة المصابين فكان يعمل بكل نشاط وتضحية . ولكن الأهالي ، تجاهلوا هذه التضحية النبيلة من قبل غرانديه ، راعي كنيسة سان بيار ، برأيهم ان الله أنزل عقوبة صارمة على سكان « لودان » ولا بد من سبب لهذا الغضب الالهي . ولم يجدوا صعوبة ، لاكتشاف العلة الحقيقية .

عندما شاع الخبر بأن الكاهن « غرانديه » يمارس خفية مهنة الشعوذة وبأنه سحر راهبات « الأورسولين » وأغوى بهن . . لم ينكر أحد مثل هذه الاشاعة ، وبالتالي ، لم يستغرب أحد مثل هذا النبأ الخطير .

هناك سبب آخر ، نود ذكره الآن ، بحيث جعل من الأخت جان ، حاقدة عليه ومصممة على ادانته بشتى الطرائق والحيل .

يمكن القول بأنها غلطته الثالثة . . لكنها غلطة مغتفرة ، بكل معنى الكلمة .

في أواخر عام ١٦٣١ م ، توفي معرف الدير . على الفور ، طلبت الأخت جان ، مجيء الأب « غرانديه » ليحل محل الكاهن المتوفى . قدمت هذا الطلب بدون أدنى تردد ، وبحماس ملحوظ الى السلطة الكنسية العليا . انها مستعدة أن تطيعه في كل الأمور ، شأن جميع راهبات الدير ، وكانت بالتالي واثقة من الجواب . ولا يحق الدخول الى حجرات الراهبات المتعبدات سوى المعرف . وهل يعقل أن يرفض زير النساء ، مثل هذه النعمة وهذا الحظ ؟

مع ذلك ، رفض تلبية الطلب . لو كان الأمر يتعلق به شخصياً ، لما حصل ذلك . لكن زوجته الصبية ، ساهرة على حبها ، فهي امرأة فطنة ، ولا يصعب عليها ادراك السر الكامن وراء الستار . والمعلوم أن « غرانديه » مغرم بزوجته . لذلك ، لم يتردد طويلاً كي يعطي جواباً بالنفي . على أثر هذا الرفض المخزي ، انتابت الأخت جان ، حالات من العضب والاذلال والنقمة . عنها ، قررت تعيين معرفاً للدير ، الأب مينيون ، صديق وكيل الملك . والمعلوم أن « ترانكان » وهو وكيل الملك ، يضمر

الشر للكاهن غرانديه ، الذي اغتصب ابنته الصبية كذلك الأب مينيون ، فهو عدو لدود ، وسوف يكون مغتبطاً جداً لتلقي جميع الشكاوي القادمة من كل حدب وصوب ، ضد خصمه المتعجرف ، أوربان غرانديه .

لقد رفض « أوربان غرانديه » الدخول إلى دير الأورسولين ،لأنه يحتقر هذه المجموعة المتعبدة من الراهبات . . لكنه دخل رغم أنفه ، بصورة شيطان .

شهر حزيران عام ١٦٣٣ ، انقضت ثلاثة اشهر ونسي الناس قضية الأخت جان واتهامها الموجه ضد الكاهن غرانديه . لم تدم المشكلة طويلاً ، إذ قدم أطباء من قبل رئيس اساقفة بوردو وفحصوا الراهبة المريضة ، فكانت نتيجة التشخيص حاسمة : ليست الأخت جان ، فريسة تعويذة شيطانية ، بل هي مصابة بحالة هستيرية . على الفور ، اختفت جميع الأعراض المرضية ، أما الأب مينيون ، فقد حرم متابعة وظيفته المقدسة في هذا الدير .

مرة أخرى ، انتصر غرانديه . اصيب اعداؤه بالذهول التام . بينما ظل راعي كنيسة سان بيار ، يتطاوس في كل مكان ، برفقة زوجته الصبية . .كأن شيئاً لم يكن . في هذه المرحلة بالذات ، ارتكب غلطة فادحة جداً ، لاتغتفر لأنها غلطة سياسية .

هل صار الأب « غرانديه » في قبضة الكاردينال ريشليو ؟ هل تخلى صاحب السلطة والجاه عن فكرة الانتقام تمشياً مع مبدأ المسيحية الحقة ؟ أم أن لسعة الاهانة ما تزال باقية في قلبه ، وينتظر الفرصة المؤاتية ، للانقضاض على هذا الطاووس المتعجرف ؟

وصل منذ بضعة أيام إلى لودان رجل هام وصاحب نفوذ ، ويدعى « جان لودبار دومان » وهو المبعوث الخاص للكاردينال[1] ريشليو . تبدو الصرامة واضحة على معالم وجهه . انه طويل القامة ، نحيل الجسم وله نظرات ماكرة . ولم يقصد هذه المدينة المنكوبة ، ليغوي النساء الجميلات . على كل حال ، انه رجل معروف بقساوته ورصانته . واكتسب شهرة واسعة في منطقة « بيارن » لما قبض على عشرين ساحرة وأمر بتعذيبهن ثم بحرقهن . . دون رحمة أو شفقة . ويردد عادة ، قوله المأثور ، الذي يلخص أسلوبه في المعاملات : « أعطوني سطراً واحداً من خط رجل ، وأنا كفيل بايجاد حجة لشنقه » .

والمعلوم أن الكاردينال ريشليو ، كلف مبعوثه للقيام بمهمة محددة ، في مدينة لودان

(١) كاردينال : أحد أحبار الكنيسة الكاثوليكية .

هدم حصن واسوار المدينة . ان ريشليو رجل فطن وحذر . يجب هدم اسوار هذه المدينة البروتستانتية ، وإلا ، سوف تشكل خطراً أكيداً على نظام صاحب الجلالة الكاثوليكي . وربما فعل ذلك ، كي ينتقم من كاهن وقح ، قد أساء إليه يوم كان مقيماً هناك وهو يمارس وظيفة الأسقف بتواضع وبساطة .

لم يكن غرانديه جاهلاً هذه الأمور ، رغم ذلك ، لم يأبه لأوامر الكاردينال . لقد صمم على الدفاع عن مدينة « لودان » مع أنه مواطن غريب عن هذه المنطقة ، وصمم على الذود عن امتيازات البروتستانت ، مع أنه كاهن كاثوليكي .

وفي الكنيسة ، أعتلى المنبر ، انتصب واقفاً ، وصاح منددأ وبأعلى صوته :

ـ اننا نسمي بالمخربين هؤلاء الأشخاص الذين يودون هدم أسوارنا . لا يحق للسيد « لومباردومون » التهجم على امتيازاتنا . لأن امتيازاتنا هي حرياتنا . إن أدعوكم كي ندافع معاً عن الحرية .

لقد ابتهج رعايا كنيسة سان بيار ، لهذه الموعظة الحماسية الطنانة . إنه كاهن جريء ذو رباطة جأش مدهشة . . لكنهم شعروا بالارتباك لأن راعي الكنيسة قد جاوز حده ويعتبر تحريضه هذا ، ضرباً من الجنون والحماقة . . إذ كان رد الفعل عنيفاً وسريعاً : تهدمت جميع أسوار المدينة ، ولامست شظايا « غرانديه » أذى الكاردينال بالذات . هذا الكاهن الريفي الصغير ، الذي احتل مكانة عند اقامة الرياح فيما مضى ، يحاول الآن ، التهجم على سلطته بكل وقاحة . لابأس : سوف يدفع غالياً فاتورة الحساب ، خطرت في باله فكرة : بكل بساطة ، يجب اثارة من جديد اتهامات الأخت جان الموجهة ضد الكاهن « غرانديه » .

والمعلوم أن الأخت « جان ده زانج » قد تمالكت أعصابها وهدأت تماماً والتزمت الصمت المطبق ، بعدها أعلن الأطباء عن حالتها الهستيرية . ولكن ، هاكها الآن ، وقد تحولت فجأة الى امرأة معذبة خائفة ، شاكية . . تتلوى وتتلوى كالحية الرقطاء داخل حجرتها[1] أخذت تولول وهل تستعين بصوت الشيطان الأجش :

ـ غرانديه ، غرانديه ، أنا ملك يديك . . . زارها مبعوث الكاردينال في حجرتها ، ثم كتب تقريرا للملك ، وفي ٣٠ نوفمبر عام ١٦٣٣ ، قرر الملك لويس الثالث عشر ، القبض على راعي كنيسة سان بيار .

---

(١) تعيش هذه الراهبات في دير محبسة ، أي في دير لا تغادرها اطلاقاً جميع الراهبات .

وفي الحال ، بدأ التحقيق القضائي ، وهو تحقيق خاص جداً ، اذ يرتكز على مبدأ التعزيم[٢] .

أما حفلات طرد الأرواح الشريرة فقد كانت تقام بطريقة غير معقولة أطلاقاً إنها مزيج من الاحتفال الديني والعرض الخلاعي . بالنسبة ليغموند فرويد « تعتبر هذه الأعمال ، استناداً إلى التحليل النفسي أشبه بمقالع منفتحة من جميع جوانبها» وغالباً ما تقام هذه الاحتفالات الاستعراضية في الكنائس حيث تثبت أمام المذبح ، منصبة مغطاة بلحاف ، وذلك كيلا تصاب بأذى ، وتكون موثوقة بالحبال . بينما يوضع رأسها على وسادة . كي لا تصاب الممسوسة بأي أذى ، وتكون موثوقة بالحبال ، بينما يوضع رأسها على وسادة .

يقوم بعملية التعزيم ، اثنان من الآباء الكبوشيين ، وهما الأخوان لاكتانس وترانكيل وقد سخر منهما « غرانديه » فيما مضى ، علانية ، على منبر الكنيسة .

أخيراً ، بدأ العرض التقليدي ، أمام جمهور موزع بين الورع الديني والحشرية الشبقية . وبإيعاز من الأخوين لاكتانس وترانكيل ، بدأ الأبالسة يتكلمون ، استطاع هذان الأخوان ، اكتشاف أمر هؤلاء الشياطين جميعاً . يبلغ عدد الشياطين الذين يسكنون جسد الأخت جان ، سبعة : ليفياتان ، في وسط الجبين ، آمان وايسكارون ، تحت الضلع الأخير من الجهة اليمنى ، وبالام تحت الضلع الثاني ، عند الجهة اليسرى . .بينما يقيم غيرزيل أسمودة وبلزبوت ، في المعدة .

في هذه الأثناء ، تبدأ الراهبة الممسوسة ، تزمجر غضباً[١] وقد اتخذت وضعاً غريباً متنافراً أو منحلاً بالحياء . . يدنو منها الأخوان ، ويبدأ الاستجواب بقساوة . غالباً ما تستعمل طريقة التنكيل التقليدية . . إذ يلطم أحد الأخوين ، برجله بطن وصدر المرأة المصابة : تكلم ، تكلم .

إذا رفضت التكلم ، قرب منها شمعة الكبريت وأشعلها ، وأخذ يشدها من شعرها ، ثم يضع رأسها فوق الدخان الخانق :

ـ اذكر اسمك . . أيها المخلوق الدنس .

ـ اني بلزبوت . ـ من هو سيدك ؟ ـ أوربان غرانديه .

---

(٢) أي طرد الأرواح الشريرة .

(١) أشبه بهياج البحر الهادر . ان هدف الكاتب هو ابراز الصفة الشبقية أي الشهوانية لدى الراهبة الممسوسة أو المصابة بالحالة الهستيرية الناتجة عن الكبت الجنسي أو الزهد المتجطرف .

ثم جاء درو الراهبات اللواتي أصابهن المس الشيطاني ، تماماً مثل الأخت جان ، وقد وجهن نفس الاتهام : « ان الساحر هو أروبان غرانديه » .

إنما ، لم يكتف مبعوث الكاردينال بهذه الأقاويل ، يود الحصول على دلائل حسّية . استناداً الى الابليسيات أي علم الشياطين ، حيث كرس له عصر ذاك ، علماء مشهورون عدة مجلدات يضع ابليس علامات فارقة على خدامه ، وتكون على شكل آثار جرح : فهي عبارة عن نقاط صغيرة ، منتشرة على الجسم ، ولا تشعر بالألم . إذن ، لزم الآن البحث عن هذه العلامات الفارقة على جسد « أورباان غرانديه » .

وقد كلف الطبيب الجراح « مونوري » للتنقيب عن هذه العلامات الشيطانية المريعة . والطبيب المذكور ، عدو لدود للكاهن المحكوم عليه ؟ طبعاً ، يعود سبب العداوة ، الى خلاف نسائي . وبدأ الطبيب بتنفيذ العملية الرهيبة في زنزانة السجين وبحضور الأخوين المذكورين ، وذلك في ٢٦ نسان عام ١٦٣٤ .

ربط الأخوان الكبوشيان يدي ورجلي الكاهن المسكين ، ثم جرد من ثيابه . . فاصبح عارياً كالدودة . دنا منه أحد الأخوين ، غمى عينيه[1] وحلق شعر رأسه ، جفونه ، أهدابه وجميع شعيرات جسده ، برأيهم يختبىء الشياطين ضمن الجهاز الوبري .

الآن ، بامكان الطبيب الجراح الانتقام من غريمه ، بوحشية تامة . لقد أصبح لقمة سائغة بين مخالبه ، لقد شوه جسمه التنكيل وبات منهوك القوى ، ذليلاً . في هذه الحالة المخزية ، دنا منه عدوه الجراح ، وبيده ابرة طويلة وغرزها بعنف وبفظاظة في حسمه المرهف المرتجف . هكذا ، تحولت المعاينة إلى عملية تعذيب ، بكل معنى الكلمة . أطلق « أورباان غرانديه » صراخات مريعة ومدوية . . بحيث سمعها كل عابر سبيل ، في الشارع المجاور .

عند نهاية العملية ، صرح الأخوان الكبوشيان بأن جسد الكاهن الأسير ، يحتوي على خمس نقاط عديمة الحساسية ، وهي منتشرة على الأعضاء الداخلية .

بهذه الطريقة ، انتهت المرحلة الأولى من الفحص الطبي . . المتعلق بآثار الجرح الشيطانية . ثم انتقل مبعوث الكاردينال إلى المرحلة الثانية : البحث عن وثيقة العقد مع الشيطان .

لتحقيق هذه الغاية ، أمر بالتفتيش الدقيق في دار غرانديه . بالطبع ، لم يجد سوى

(١) أي أصبح معصوب العينين .

« البحث ضد عزوبية الكهنة » ، فهو نص ملحد ، زنديق ، مرجس ، لكنه غير شيطاني . رغم ، ذلك ، سوف يجد مبعوث الكاردينال ، حلاً سريعاً لهذه المشكلة : سوف تظهر وثيقة العقد . . بفضل الشيطان عينه . .

في ١٧ أيار عام ١٦٣٤ . . بدأ الأخ لاكتانس ، باستجواب الأخت جان ، مرة أخرى . . في كنيسة « سانت كروا » . في البداية ، أخذ يتكلم « ليفيتان » ، وهو أحد الشياطين السبعة أي المقيم في وسط الجبين .

- اين هي وثيقة العقد ؟ أجاب ليفيتان . - تحت جبة سيدنا .

انتاب الجميع ، شعور من الدهشة والذهول ، كان الأسقف وقتذاك حاضراً هناك ، يشهد حفلة طرد الأرواح الشريرة . انتصب واقفاً . أجل . . يا للعجب .

كتلة من الورق ، موجودة هنا ، تحت جبته ، على الأرض . فضها الأخ لاكتانس . انها وثيقة العقد الشيطانية المطلوبة . . أو بالأحرى ، انها نسخة عن العقد الأصلي . . والمعلوم أن النسخة الأصلية ، موجودة في جهنم . هذا أمر بدهي ومعروف .

في الكنيسه وبـهجة احتفالية ، ارتسامية ، بدأ الأخ لاكتانس بتلاوة الدليل الثبوتي المتعلق بشعوذة الكافر « أورباں غرانديه » ، وهاك النص الشيطاني الدنس :

« ياسيدي ويامعلمي ، اني أقر بأنك ربي ، وأعدك بأني سوف أخدمك ما حييت . من الآن فصاعداً . أتخلى عن ايماني ، بيسوع المسيح وبمريم وبجميع قديسي السماء ، وبالكنيسة الكاثوليكية ، الرسولية والروحانية . أعدك بأني سوف أسبح لك ، بالأقل ثلاث مرات يومياً ، وأن أسيء إلى الآخرين بقدر المستطاع ، وأن أجذب إلى الشر ، أكبر عدد ممكن من البشر . أهبك جسدي ، روحي وحياتي للأبد . بعيداً عن الندامة .

الامضاء

أورباں غرانديه ، مع دمي .

سوف يضاف هذا النص الأخير ، الى الملف ، وسوف تبدأ المحاكمة الخاصة بالسحر الشيطاني بعد قليل . انما ، لم تنته بعد ، حفلة التعزيم التي جرت في ١٧ أيار عام ١٦٣٤ . فأخذ الأخ لاكتانس ، يستجوب الأخت جان ، مرة أخرى ، كذلك الشيطان ليفيتان . كانت نبرته هذه المرة تنم عم الرجل الواثق من نفسه الفخور بنتائجه الباهرة ، بعد أداء اليمين ومدح فضائل الكاردينال ريشليو ، التفت بكل اعتزاز إلى

الأخت جان ، وقال موجهاً كلامه إلى الشيطان :

ـ مارأيك بالكاردينال العظيم ، حامي فرنسا ؟ أجاب الشيطان ـ طبعاً بلسان الأخت جان :

ـ انه كارثة بالنسبة لأصدقائي الهراطقة الطيبين .

ـ وماهي صفته البطولية ؟

انتفضت الأخت جان واضطربت بعنف . هذا يعني بأن الشيطان يرفض التكلم . بات يفضل الصمت على الكلام . لكن الرقاء[1] هو الأقوى . تابع الصوت كلامه :

ـ ان صفته البطولية ، مجسدة في عمله الدؤوب لمعالجة الشعب ، وفي الموهبة التي تلقاها من الله ، لخدمة الدولة ، وفي الحب الذي يقدمه لأجل السلام ولأجل ملكه .

على اثر هذه الجلسة المشهورة ، المؤرخة في ١٧ أيار ، منح الملك لويس الثالث عشر الأخوين المعزمين ، مبلغ أربعة آلاف ليرة ، وذلك من صندوق ماله الخاص .

يجهل أوربان غرانديه » كل هذه الأمور التي تجري وراء الكواليس بسرية تامة لقد عزلوه عن الآخرين ، عزلة تامة . وقد اصبح هلاكه محتماً ، قرر مبعوث الكاردينال اخراجه من عزلته الخانقة ، لتنفيذ المشهد الأخير من هذه المسرحية المريعة : مجابهة الكاهن الغاوي بالراهبات الصبايا ، اللواتي وقعن فريسة بين مخالبه . . بسبب سحره الشيطاني .

في ٢٣ حزيران عام ١٧٣٤ ، اقتيد الكاهن الساحر إلى كنيسة الصليب الأقدس « سانت كروا » أين هو الآن الراهب الظافر ، الذي دخل إلى مدينة « لودان » ذات يوم ، ممتطياً الفرس حاملاً بيده غصن الغار ، رمز المجد والانتصار ؟ أين هو « دون جوان عصره » ذو اللحية الجميلة الآخاذة ، وذو الشاربين المعقوفين ، وصاحب النظرة الساحرة ، التي تغوي أجمل النساء ، منذ الوهلة الأولى ؟ لقد حلق شعره بكامله . . حتى الشعيرة الأخيرة . اختفى الشاربان ، كذلك اللحية ، شعر الرأس ، الحواجب والجفون حتى . مر أمام الجمهور ، مقيداً بالسلاسل ، محاطاً بالحراس . . انتاب بعضهم شعور من اللذة الشبقية ، بينما أحس البعض الآخر بالنفور والامتعاض . . ولكن أحس الجميع بالخوف الشديد لدى مشاهدته في هذه الحالة المخزية المريعة .

وصل « غرانديه » إلى الكنيسة . برز الأخ لاكتانس ، وثيقة العقد .

(١) الرقاء أي المعزم الشخص الذي يطرد الارواح الشريرة .

ـ هل تخصك هذه الوثيقة ؟ ـ كلا . . .

عندها ، أخذ الأخ « لاكتانس » يقرأ الوثيقة . عندما انتهى من التلاوة ، أرسل « أوربان » صرخة مدوية ، تجسد اليأس الشديد والرعب القاتل : لقد أدرك في هذه اللحظة الحاسمة ، بأنه حكم عليه نهائياً ، بالتنكيل الشنيع . . وببطء . . حتى الرمق الأخير . في هذه الدقائق الدرامية تظاهر الأخ لاكتانس أمام الجمهور المحتشد ، بأنه حريص على سلامة الراهب المعذب وبالتالي ، فهو أخ مؤمن متورع ، فلن يتردد عن استعمال اسلوب الرحمة والغفران في هذه اللحظات الحاسمة الأخيرة :

ـ هيا ، حرر ضحاياك من رقية ابليس ، انه حظك الأخير .

ثم التفت الأخ الى الحراس ، هز رأسه ، تواروا عن الانظار ثم عادوا وبرفقتهم ، باقة من راهبات دير « أورسولين » . . في الكنيسة المكتظة بالناس ، بدأ المشهد شاذاً جداً . . حتى درجة الهذيان . فجأة ، هرعت نحوه هذه المجموعة من الصبايا الجميلات ، وقد تبعثر شعرهن الطويل على أكتافهن العارية ، وأخذن ينتفضن كالأفاعي ويزمجرن بفرح شبقي مخيف . . ويولولن : ياسيدي ، ياسيدي ، أنا لك . . ضمني إلى صدرك .

استولى على « غرانديه » الرعب القاتل . . تراجع إلى الوراء وقد اعترى الاصفرار محياه المرهف . . تراجع بضع خطوات إلى الوراء ، أمام هذا الهيجان النسائي الهستيري[1] . . . عندها ، انطرحت الصبايا الفاتنات أرضاً ، وبدأت كل واحدة تتوجع وتتلوى ،تئن وترسل زفرات الحسرات والتألم الشديد . . ثم تدور حول نفسها . . كالأفعى تماماً .

وقف الأخ لاكتانس وسط هذه الحيات المتأوهة ، المتوسلة ، ثم أشار بأصبعه إلى الأخت « جان ده زانج » وقال له ، بنبرة آمرة :

ـ هيا . .حررها من رقية الشيطان .

المؤامرة مستمرة . . رغم ذلك ، يحاول الراهب الأسير ، الانفلات من أنياب هذه المصيدة الجهنمية اللعينة . . بأي شكل من الأشكال .

ولكن هل بمقدور الفريسة النجاة من هلاك محتوم ، بعد أن صارت لقمة سائغة ، بين أنياب الذئب المتعطش إلى اللحم الطرىء والدم النقي ؟ لقد شعر « غرانديه » بأنه

(١) حالات الهيجان الناتجة عن عنف الانفعالات الصرعية .

أصبح ملكاً للكاردينال ريشليو ، وأسيراً في يده ، وأن أمر نفسه قد خرج من يده ، فلا حول له فيها ولا حيلة . لقد خسر الرهان . . ان الموت حرقا . . بانتظاره .

جرب غرانديه حظه للمرة الأخيرة ، رغم أنها محاولة يائسة ، خاطب الراهبة باليونانية إذ من المفروض أن يتقن الأبالسة جميع اللغات ، حتى ولو كان الشخص الممسوس غير عليم بها . ان عجزت عن الجواب ، هذا يعني بأنها مخادعة لكنها أحبطت الخطة وأبطلت مفعول الفخ . ابتسمت :

ـ آه ، كم أنت دقيق وحذر ، إن من أهم شروط وثيقة العقد ، هو عدم التخاطب باليونانية وأنت خير من يعلم ذلك .

هذه المرة شعر غرانديه بأنه فقد كل أمل . قال للأخوين الكبوشيين وهو يتنهد :

ـ اني آثم كبير ، لكني لم أوقع أية وثيقة عقد . اني اؤمن بالله وبيسوع المسيح .

ان الكلمة الفاصلة الآن . . هي للقضاء . في ٢٦ تموز عام ١٦٣٤ ، اجتمع القضاة المكلفون من قبل السيد « لوردومان » للمرة الأولى . في ١٦ آب ، بدأت محاكمة « أوربان غرانديه » المتهم بممارسة السحر الشيطاني . . دامت ثلاثة أيام . في ١٨ آب عام ١٦٣٤ ، دارت المناقشات حول قضية المتهم ، أثناء غيابه . عندها ، أعلن السيد لوباردمان ، قرار الاتهام :

ـ اننا نعلن بأن « أوربان غرانديه » ممسوس شرعاً ويعترف بأنه ارتكب جريمة الشعوذة ، الرقية المؤذية والاستحواذ[1] ، للنيل من راهبات أورسولين ، في مدينة « لودان » للتكفير عن هذه الآثام الكبيرة ، نأمر « أوربان غرانديه » بالاعتراف بذنوبه جهاراً ، أمام الباب الرئيسي للكنيسة سان بياردو مارشه ثم ينقل إلى باحة سانت كروا ، كي يعلق على عسرد ، فوق المحرقة[2] ، ليحرق جسده وهو حي . قبل تنفيذ الحكم الحالي نأمر المدعو « غرانديه » الخضوع للمسألة العادية وغير العادية .

نقل « غرانديه » من زنزانته لا مجال لتضييع الوقت ، لأن الحكم القضائي نافذ[3] في هذا اليوم بالذات . حلق شعره من جديد ، وألبسوه سترة رمادية اللون . تلقى الجلاد أمراً كي ينزع عنه الأظافر ، برأيهم ، جاز أن ينسل الشياطين تحت الأظافر . . لكنه لم يجرؤ على تنفيذ هذه الأمر الفظيع .

اقتيد « غرانديه » إلى المحكمة ، مجتازاً شوارع المدينة ، المكتظة بالناس . . كي

(١) الاستحواد وهو نوع من الهذيان يحس فيه المريض أن شيطاناً يتملكه .

(٢) كومة من الحطب يربط فوقها المحكوم بالاعدام حرقاً وتشعل به .

يستمع إلى القرار التنفيذي . أجبر على الركوع أمام القضاة . بدأ الأخوان لاكتانس وترانكيل بتنفيد عملية التعزيم بواسطة الماء المقدس . بدأ كاتب المحكمة بتلاوة الحكم بالموت .

تلقى الكاهن هذا الحكم المريع ، بهدوء وقال بنبرة يائسة :

- ياإلهي ، ساعدني وهبني القوة الكافية لتحمل هذا العذاب . ثم وجه كلامه إلى القضاة :

- أرجوكم اخنقوني قبل أن أحرق ، كي لاألفظ الشتائم التي تمنعني عن دخول الجنة .

أجاب « لوباردومان » :

- ان الأمر متعلق بك . . شرط أن توقع على اعترافاتك . بالنسبة لمندوب الملك ، مثل هذا التوقيع ضروري جداً ، ولا يمكن الاستغناء عنه . . اطلاقاً . حتى لو كان الملك ذات السلطه العليا في البلاد ، وحتى لو كانت عدالة الكاردينال منجزة ، يظل أمر اعدام « أوربان غرانديه » خطيراً للغاية ، ربما دفع فئة من الشعب إلى التمرد . إذا اعترف ، يتبدل الأمر أساساً . لهذا السبب ، يتكل لوباردومان على المسألة غير العادية .

لايجوز تطبيق المسألة غير العادية قبل تنفيذ الحكم بالموت لأنه حكم تنفيذي بصورة عاجلة . يتعلق الأمر بالتنكيل بواسطة السحاقة[1] ، مع تغريز الأوتاد الثمانية من جراء هذا التعذيب ، تسحق الساقين سحقاً . . تطحن العظام . . تمزق العضلات ، ويتناثر اللحم أشلاء .

الآن ، بدأ الأخوان الكبوشيان ، بتنفيذ عملهما ، بحيوية ملحوظة شرعا في تعزيم الكرسي والألواح الخشبية التي تشد وتحصر الساقين ، ثم الحبال والأوتاد والبيزر[2] . وهدف هذا التعزيم هو طرد الشيطان ، لأن حضوره في أي عنصر من هذه العناصر ، يجعل من المحكوم عليه ، بلا حساسية ، وبالتالي ، يصبح التنكيل غير ناجع .

عندما وقع بصر « أوربان » على هذه الاستعدادات ، صاح مذعوراً :

- ياالهي ، لا تتخلَّ عني ، يا يسوع ، ارحمني .

---

(١) أي أداة تعذيب قديمة تستعمل لسحق السوق .

(٢) البيزر أي مطرقة خشبية ذات راسين .

ولكن ، سرعان ماتمالك أعصابه فثبتوه على آلة التعذيب ولم ينطق بكلمة واحدة .
غرز الجلاد وتداً واحداً ثم اثنين ثم ثلاثة . عندها ، تحطمت عظام الساقين . في هذه اللحظات بالذات ، وجه إليه الأخوان الكبوشيان الكلام بنبرة آمرة :
ـ اعترف ، اعترف ، تكلم . أطلق « أوربان غرانديه » صرخة مدوية :
ـ نقضت الوصية السادسة . ارتكبت خطيئة الفسق ، وكتبت ضد عزوبية الكهنة ، لكني لم أفعل شيئاً آخر .
غرز الجلاد الوتد الأخير في جسمه . أخذ الأخ « لاكتانس » يردد بصوت أجش :
ـ سوف تتكلم ، سوف تتكلم .
كان الجمهور المحتشد حول السجن ، يتسمع لكلام الأخ الغاضب ، من خلال النافذة المفتوحة لكن « أوربان » ظل صامتاً . لقد غرزت الأوتاد الثمانية جميعاً . في ساقي الكاهن المسكين فأصبح جسده كتلة دموية . . رغم ذلك ،لم يقر بذنبه . . وكان يصلي من حين إلى آخر . . ولم تجعل العدالة عدد الأوتاد الثمانية بدون تبرير . ولم تفعل ذلك ، بناء لشعور انساني ان السبب واضح : إذا جاوز العدد الثمانية ، أصبح المتهم المعذب ، معرضاً للموت . لهذا السبب ، توقف فجأة الجلاد واعتراه الشحوب ، عندما سمع غرانديه وهو يصيح :
ـ تابع ؟ ولكن أيها السيد . . لم يعد لدي أي وتد . .
ـ اذهب واجلب المزيد .
بعد دقائق معدودة ، عاد الجلاد وبيده وتدان . دنا الأخوان من كرسي المعذب . استشاط « لاكتانس » غيظاً ، التفت إلى الجلاد واخذ يولول :
ـ اضرب ، اضرب ، هيا ، اضرب . ثم وجه كلامه إلى غرانديه : تكلم ، تكلم .
بعد جهد جهيد ، استطاع « غرانديه » أن يتمتم بعض الكلمات :
ـ آه ياأبتي ، أين هي رأفة القديس فرانسوا ؟
انتهى الأمر . لم يعترف « أوربان غرانديه » . فوراً ، انتقل لوباردومان إلى المرحلة الأخيرة من التنكيل . يجب الاسراع وإلا مات المحكوم عليه ، قبل وصوله إلى المحرقة .
كان الطقس حاراً . اقتيد « أوربان » بالطنبر . اجتاز شوارع المدينة بين حشد غفير

من الناس . . ربما تجاوز العدد العشرين ألف شخص . . جاؤوا جميعاً من جميع أرجاء فرنسا ، ومن الخارج حتى ، .يشاهدوا. هذا العرض الدرامي المريع .

اتجه غرانديه نحو كنيسة سان بيار للاقرار علانية بذنوبه ، حيث كان راعيها . طلبوا منه الركوع ، حاملاً بيده شمعة مضيئة . لكنه لم يستطع تنفيذ هذا الأمر ، لأنه فقد ساقيه تماماً . . فتهالك على درجات السلم ، كالخرقة البالية . دنا منه الأخ لاكتانس . أدار غرانديه رأسه ، وعلامة القرف واضحة على محياه .

أقل من جديد الطنبر ، واقتيد إلى باحة « سانت كروا » . . حيث نصبت المحرقة . لم تكن المحرقة ، بشكل منصة ، مؤلفة من العيدان . في الواقع ، ثبت العمود في الوسط ، بين تكويم من الخشب والقش ، اشبه بكوخ بدون سقف ، كي يشاهد الجمهور المحكوم عليه ، وضع الجلاد الكرسي ، قرب العمود .

ربط الجلاد الكاهن المنكل به . قام الأخوان الكبوشيان بمحاولة أخيرة :

ـ اعترف بأنك ساحر ، اعترف . . بجريمتك .

صمت غرانديه ، انتابت الأخوان نوبة هستيرية ، أخذا يضربان المنكل به ، بالصليب المثبت على قضيب طويل : اعترف ، اعترف .

ظل غرانديه صامتاً . عندها ، وقع بصر الجمهور على مشهد غريب حقاً : هجم الأخوان على الجلاد ، وانتزعا منه المشعل واضرما النار في المحرقة . صرخ أوربان :

ـ اخنقوني ، أرجوكم ، اخنقوني .

انتابت الجمهور نوبة من الغضب الشديد ، فصاح موجهاً كلامه إلى الجلاد :

ـ اخنقه ، اخنقه .

عندها ، انطلق الجلاد نحو لهب النار . . لكن بعد فوات الأوان ، لقد شكلت النار حاجزاً منيعاً . . وفي هذه الأثناء المأتمية ، أخذ « غرانديه » يتلو صلاة باللاتينية . . ثم أطلق صرخة . . وانتهى كل شيء .

إن الكاهن « أوربان غرانديه » مسبب الزلة والكلبي[1] ، والانسان الساخر من مبادىء عصرة الأخلاقية ، يعتبر بحق الضحية البطولية التي حاربت المعتقدات الخرافية بجرأة نادرة ، وقاومت التعصب الديني المقيت والسلطة الدكتاتورية المطلقة .

هذا الكاهن الثائر . . إنما يخص الآن التاريخ . . بينما أصبحت محرقة مدينة « لودان » قصة منسية . . تماماً .

---

(١) كلبية وهو مذهب فلسفي يقول باحتقار العرف والتقاليد والرأي العام والاخلاق الشائعة .

منذ موته ، توالت القصص والحكايات . لقد خصصت له عدة مؤلفات ، في جميع أنحاء العالم . هناك أيضاً ، عمل موسيقي بشكل « أوبرا » قد ألف خصيصاً له .

لاعجب أن لاقى كل هذه الشهرة وهذا الاهتمام . إن محاكمة وموت « أوربان » نموذج ناطق عن وحشية وفظاعة الانسان . . في القرن السابع عشر .

ـ الحاقة ـ[1]

الكاهن الضحية : « أوربان غرانديه »

استمد[2] رعايا كنيسته القديس بطرس ، في مدينة « لودان » . . لكنهم ترددوا ثم تمالأوا عليه[3] . مسكين هذا الكاهن المخدوع ، لقد استخال السحاب[4] ، شأنه شأن الكثيرين من المصلحين الاجتماعيين الذين رفضوا الدكتاتورية شعاراً والتعصب الديني سلاحاً . ان أمحل الله الأرض في عصره وبعد موته ، فهذا أمر آخر وتعليله بعيد كل البعد عن المعتقدات الخرافية الساذجة والدموية ، في آن واحد .

هل يمكن تجاهل الوضع الاجتماعي المتحجر في هذا العصر بالذات ، الذي ساهم مساهمة فعالة في ترسيخ الجراثيم المعدية وانتشارها بين الناس بشكل طاعون قاتل ؟ هل يعود السبب إلى علاقات الكاهن الغرامية ، أم إلى عوامل طبيعية بحتة ؟ من رفع الأسباب رفع العقل .

إن جهل الانسان لمكنونات الطبيعة وجوهرها العميق الأغوار ، يجعله حيواناً ناطقاً أكثر وحشية من وحوش الغاب وألد عداوة من جراثيم الطاعون المذكور في قصة « أوربان غرانديه » التي جرت حوادثها حوالي عام ١٦٣٢

صاح متوسلاً وهو يحترق : اخنقوني . بذلك ، يجنب نفسه لهب النار وهي تلتهم جسده وهو حي . لكن مندوب الملك ، رفض ذلك . . لأنه يتلذذ في رؤية أخيه الانسان وهو يتعذب بصورة وحشية مخيفة . ياله من وحش سادي .

ان هذا المندوب الملكي المتصلب ، السيد « لوباردومون » ، انما هو أشبه بالصدى يرجع أقوال وأفعال العرافين البدائيين ، الذين ينزعون القلب من رئتي الرجل ، بعد

---

(١) تعليقة ملحقة .

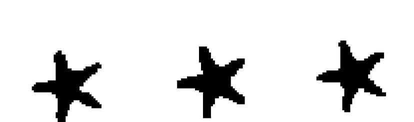
(٢) استمد لانا أي طلب منه المدد والمعونة .

(٣) تمالأ القوم عليه أي اجتمعوا وتعاونوا عليه .

(٤) استحال السحاب أي نظر اليه فظنه ماطرا .

أن يشقوا الصدر بخنجر حاد . . ثم يقدمونه طعاماً شهياً للآلهة ، كي لا يغضب إله الشمس وكي لا يموت هذا الكوكب الجبار المتعطش أبداً إلى دم بشري نقي رقراق .

الحمد لله ، لقد أعرض أخيراً العالم المتحضر عن هذه الآراء ، والأفعال الخرافية المشينة ، الشبقية الهرعية ، واستنكر مثل هذه القرارات القضائية الاعتباطية ، وكره فاعليها . لذا ، لا عجب ان هاج الشعب المحروم وثار في فرنسا ، وقتل الملوك وأحرق سجن الباستيل وأسس السلطة الشعبية على أنقاض الحكم الدكتاتوري المطلق .



المأساة الدامية

اغتيال مارا.

أحد أبرز زعماء الثورة الشعبية ١٧٩٣ في فرنسا وأشد الأعداء شراسة بالنسبة للجيرونديين .

ـ ان الجريمة تجلب العار . .لا المشنقة ـ

ناهز عمر الثورة الفرنسية الأربع سنوات . غداً سوف يحتفل الشعب الباريسي بيوم احتلال سجن الباستيل . ولكن ، لن يكون الاحتفال ذا أبهة واجلال ، كما حدث في الاحتفال الأول بمناسبة عيد اتحاد النقابات[1] . سيقتصر الأمر على اقامة حفلة تذكارية ، بعيداً عن الأبهة التقليدية المعروفة .

حصل مثل هذا التعديل الطارىء ، نظراً للأحداث المتتالية التي طرأت على البلاد ، خلال الأربع سنوات أي منذ الاطاحة بالملكية الفرنسية وانتصار الثورة الشعبية ، أصبحت فرنسا في حالة حرب ضد أوروبا بأسرها وضد جزء من ذاتها في منطقة « فونديه » . لقد حكم على الملك لويس السادس عشر بالموت وتم اعدامه في ٢١ حزيران . كلا ، ليست البلاد مستعدة لاستعادة الذكريات حتى ولو كانت مجيدة وغالية على قلوب الفرنسيين . . في مثل هذه الأوقات الحرجة والعصيبة . ان المشاكل الحالية تستأثر كلياً باهتمام المسؤولين . . ومن بينها بشكل خاص ، المعركة الضارية التي يخوضها الجبليون ضد الجيرونديين . . يبدو بأن أصدقاء « روبسبير » قد أحرزوا انتصارا أكيدا على أخصامهم السياسيين ، اذ أصدرت الجمعية التأسيسية مرسوماً يقضي بعزل الجيرونديين عن السلطة واعتبارهم خارجين على القانون وذلك في ٣١ أيار ١٧٩٣ م . لم يرضخ هؤلاء للواقع ، بل التجأوا الى مناطقهم المحيطة بالعاصمة ، ويثيرون الأهالي ضد مدينة باريس وضد ديكتاتورية اليعقوبيين . لكن هذه اللعبة السياسية الخطيرة ، قد تجاوزت حدودها الطبيعية . لا بد من الاقرار بوجود حزبيين متخاصمين وينتميان كلاهما الى الثورة الفرنسية وقد توطد الخلاف حول تحديد مفهوم الدولة . ويبدو بأن هذا الخلاف قابل للانتشار في جميع أرجاء البلاد ، بحيث يصبح معركة « فانديه » بصورة مضخمة . . أي معركة شاملة عملاقة .

---

(١) جمعيات حرفية .

١٣ تموز ١٧٩٣

في هذا اليوم بالذات تتنزه امرأة صبية تحت قناطر القصر الملكي (باليه رويال) أو بالاحرى القصر - المساواة ، كما جرت تسميته في الآونة الأخيرة . انه الصباح . السماء صافية الأديم ، ويبشر النهار بحرارة دافئة . انها أنيقة المظهر . ترتدي ثوباً رمادياًمضلعاً وقبعة مزدانة بأشرطة خضراء . . شقراء ، ممشوقة القد ، لون بشرتها أبيض ناصع وذو شفافية مدهشة ، جمالها هادىء ورومنسي ويميل بالأحرى الى البرودة . لا تتجاوز الخامسة والعشرين ربيعاً . وصلت الى باريس منذ العشية ، انها زيارتها الأولى للعاصمة . . اذ لم تبرح بلدتها « النورماندي » الا مرة واحدة . . وتدعى شارلوت كورداي .

تتجه نحو دكان الخردوات ، الكائن تحت القناطر . . ويوجد عدد وافر من هذه الدكاكين في هذا المكان . تدفع الباب وتدخل كي تشتري سكيناً صغيراً للمائدة ، ذا نِصاب خشبي ثم تقصد شارع « كوردولييه » . . سيراً على القدمين فتقف عند الرقم (٢٠)

لم تسمح لها البوابة التي تدعى بالسيدة « بان » بالدخول .

- ماذا تريدين أيتها المواطنة ؟

- مقابلة مارا .

- المواطن مارا . .لايستقبل أحدا . هيا انصرفي من هنا .

انصرفت الفتاة الصبية ، لكنها لم تذهب بعيداً . أخذت تراقب مدخل البناية ، ولما توارت البوابة عن الانظار ، دخلت خلسة ، متجهة نحو درجات السلم . انما اعترضت طريقها امرأة أخرى . . عند عتبة باب الشقة ، وتدعى هذه المرأة كاترين افرارد وهي صديقة قرينة مارا . قالت لها معترضة وبنبرة حاسمة :

- انه مريض .

عادت شارلوت كورداي الى الفندق . كتبت بسرعة بعض الكلمات ، التي ساعدتها لفتح الباب الموصد بقوة : « أيها المواطن مارا » .

إني قادمة من « كان » ان حبك للوطن يدفعك حتماً الى التعرف على المؤامرات التي تحاك ضدك .

وتتجه من جديد نحو شارع « كوردولييه » لتسلم الرسالة الى صبي ثم تعود الى

نفس المكان ، بعد ساعة من التغيب . هذه المرة ، تجد نفسها وجهاً لوجه مع قرينة « مارا » بالذات وتدعى سيمون افرارد وتطردها على الفور . . تماماً كما فعلت أختها سابقاً . لكنها أصرت على تنفيذ رغبتها . ظلت واقفة مكانها . ارتفع صوت المرأتين واحتدم النقاش ، عندها تعالى صوت من غرفة مجاورة :

- ماذا ؟

- هنا امرأة صبية . . ترفض الانصراف .

- ماذا تريد ؟

تدعي بأنها تملك أسراراً خطيرة . . ساد الصمت فترة وجيزة ، ثم تعالى الصوت قائلاً :

- لتدخل .

ارتكاب الجريمة

هل خطر ببال مارا ، بأن هذه المرأة الشقراء ، الرائعة الجمال التي دفعت الباب وأطلت برأسها المقنع بالسحر الأنثوي . . هي الموت بذاته ؟

وأخيراً تلقت الاشارة الموعودة . « لتدخل » هل هي اشارة القدر ؟ دفعت الباب بهدوء . غرفة الحمام مظلمة . مارا ، موجود في المغطس . لا يمكن رؤية سوى الجزء الأعلى من صدره ومحياه ، إنه ذو وجه عريض وذو بشرة رصاصية اللون ، عيناه رماديتان ، أنفه أفطس وشفتاه رقيقتان ومتغضنتان . . وقد لف جبينه بوشاح قذر . بينما توجد بجواره ، على ظرف أدوات الكتابة ، أوراق المقالة الانتقادية المخصصة للصحيفة اليومية : جورنال الجمهورية الفرنسية . . وضعها جانباً لتصحيحها في وقت لاحق . سألها للمرة الثانية :

- ماذا تريدين ؟

- أود الكشف عن أسماء الجيرونديين الذين التجأوا الى « كان » .

- اذكري لي الأسماء .

بدأت شارلوت كورداي بذكر الأسماء ارتسمت على شفتيه ابتسامة الارتياح وقال بنبرة الواثق من نفسه : - جيد ، بعد أيام معدودة ، سأرسلهم جميعاً الى المقصلة .

فما أتم كلامه حتى سحبت الفتاة الصبية السكينة من تحت صدارها[1] وغرزتها بين

(١) صدار : رداء نسائي يغطي القسم الأعلى من الجسم .

ضلوعه عند جهة القلب . أرسل صرخة ثم تلتها حشرجة . لقد تحول ماء المغطس الى سائل أحمر . . اذ تدفق الدم بغزارة .

هرعت المرأتان الى غرفة الحمام ، وتعالت الصرخات أشبه بالولولة . وصل الجيران . أحد الرجال ، تناول كرسياً ولطم القاتلة بضربة عنيفة . ثم اقتيدت الى الصالون . ربطوا يديها وحاولوا الفتك بها انما وصول رجال الشرطة في الوقت المناسب ، خلص شارلوت كورداي من تصفية جسدية مريعة ، على يد الثوار الناقمين .

انها الساعة الثامنة مساء . «مارا» فارق الحياة .

اصبح حادث اغتيال بطل الثورة الفرنسية الشعبية على يد شارلوت كورداي ، خبراً شائعاً لدى جميع الناس . بات جزءاً من الذاكرة الجماعية للشعب الفرنسي ، تماماً ، شأن اغتيال الملك هنري الرابع أو معركة مارينيان . مع ذلك ، لم يبرز المؤرخون الحد الدرامي المريع الذي بلغته شارلوت كورداي في ممارستها مثل هذا العمل الاجرامي ، الفريد من نوعه اذ ، بالنسبة لهدفه ، يعتبر بحق ، غلطة فادحة بكل معنى الكلمة ، الضلال بعينه والتفاهة بمعناها المطلق .

ومما يثير الدهشة البالغة ، هو الأمر التالي : لم ترتكب شارلوت كورداي جريمتها بحكم عارض جنون . لم تقم بهذا العمل تحت تأثير هستيري . . شأن داميان أو فيلان . . هذان القاتلان نفذا الجريمة وحققا النجاح النسبي بصورة لا واعية .

أما هي ، فقد وجهت ضربة قاضية للقضية التي أرادت الدفاع عنها . . فعلت ذلك بمحض ارادتها ، وبجميع قواها العقلية الواعية والمدركة . . وبالاضافة الى ذلك ، فهي تتمتع بموهبة خاصة في ميدان الفكر .

« ولدت ماري آن شارلوت كورداي دارمون » في ٢٧ تموز عام ١٧٦٨ م ، في شامبو ، وهي بلدية أورن حالياً ، وتقع قرب أرجنتان . وتنتمي عائلتها الى طبقة النبلاء . تمت بصلة قرابة الى الشاعر الكلاسيكي بيار كورناي ، فهي بنت أخته .

أما والدها جاك فرنسوا كورداي ، فهو مالك أراض متواضع ولم تكن حياته ميسورة . أرسلت شارلوت منذ صغرها ، الى بيت عمها ، الكاهن دو كورداي ، الذي علمها القراءة بواسطة مؤلفات كورناي . يبدو بأنها تشربت هذه النزعة البطولية والتضحية في سبيلها ، عند عمها الصوفي المتطرف .

في عام ١٧٨٢ م ، وقد بلغت الثالثة عشرة من العمر ، عادت الى ذويها ، في هذه الاثناء كانت الأم تودع الحياة خلال ولادة ولدها السادس . عندها أرسلها والدها الى دير السيدات « أبابي أودام » لمتابعة دروسها . ولزمت هذا الدير زمناً طويلاً ، يناهز التسع سنوات .

كانت في بداية الأمر ، متحمسة للأمر ، متحمسة للأمور الدينية ، ولم يمض زمن طويل ، حتى خبت جذوة هذا الحماس الديني .

أخذت تكرس وقتها في مطالعة الفلاسفة أمثال فولتير وروسو . أثناء هذه المرحلة بالذات وقد ناهزت العشرين ربيعاً ، بدأت تولي اهتماماً خاصاً بالسياسة . رغم كونها من عائلة منتمية الى النبلاء ورغم تربيتها الدينية ، لم تكن شارلوت كورداي ملكية أو متصوفة بالعكس ، فهي تميل الى تأييد الأفكار الجديدة بحماس ظاهر . ومما قالته خلال المحاكمة : « انتميت الى الجمهوريين . . قبل اندلاع الثورة » .

في عام ١٧٩٠ م ، تركت الدير وأقامت في « كان » عند خالتها العجوز ، السيدة بريتوفيل أولت اهتماماً خاصاً بالأحداث الباريسية ، وكانت تلتهم التهاماً ، الكراسات والمقالات السياسية النقدية ، على اختلاف أنواعها .

كانت شارلوت كورداي ، امرأة رصينة ، شغوفة بالفكر والسياسة ، ولكنها تعتبر امرأة لا مبالية من الناحية العاطفة . فحياتها تخلو من أي مغامرة ومن أي علاقة افلاطونية ، فهي محاطة بعدد وافر من المعجبين ، لكنها تبدو غير مكترثة بأي نوع من الاعجاب أو المديح ، لا يشغل بالها سوى أمر واحد : السياسة . ولكن ، بحكم تطور الأحداث ، تبدل موقفها العقائدي ازاء الثورة الفرنسية . شأن الجيرونديين ، بدأت تعلن موقفها الانتقادي ضد مجازر أيلول واعدام الملك . هذا أمر بدهي . لقد تحول كبت الشعب المحروم وقتذاك الى لهب حارق مريض وعرفت هذه الحقبة الشعبية بمرحلة الرعب فأصيبت شارلوت بنوع من الهلع النفسي . فنتج عن هذا الهلع ، رد فعل معاكس : اللجوء الى معسكر الجيروندين .

في هذه الأثناء ، وصل الجيرونديون الى « كان » ، وذلك في ٢ حزيران ١٧٩٣ م ، بعد أن حرموا من الدخول الى مجلس النواب . فكانت هذه المدينة شأن النورماندي ، معادية لسياسة الجبليين . لا عجب أن استقبلهم الأهالي بالترحاب في فندق الاستقلال . قصدتهم شارلوت وأصغت الى مناقشاتهم . انهم أشخاص مشهورون في

الأوساط السياسية وقد قرأت أسماءهم عدة مرات في الكراسات المختلفة . نذكر من بينهم « بتيون » وهو مختار مدينة باريس السابق ، والكاتب القصصي «لوڤييه» ، والمحامي « غاده » من مدينة بوردو ، وبربارو وهو قادم من مرسيليا ، جميل المظهر أشبه باله اغريقي .

احتدم النقاش لمدة طويلة بين هؤلاء الجيروندديين المنبوذين . كانت اقتراحاتهم حماسية للغاية . وكان بربارو أشدهم حماساً ، فبالغ في كلامه الاستفزازي ، متأثراً بحضور هذا العدد الوافر من المستمعين في فندق الاستقلال . لقد تهجم بعنف على زعماء الثورة الفرنسية ، أمثال روبسبير ، دانتون ، وبالأخص مارا . على حد قوله ، يعتبر مارا الرجل الذي نفذ مجازر أيلول ، ولقبه بالنمر المتعطش الى الدم وبالحيوان الضاري الذي يفترس فرنسا .

مثل هذا الانتقاد الاستفزازي العاطفي ، قد ألهب مشاعر الفتاة الريفية الجميلة : شارلوت كورداي . وبدا لها مارا كما وصفه بربارو ، العدو الأشد شراسة بالنسبة للجيروندديين ، وأبدت حماساً ملحوظاً أثناء هذا الاجتماع المضطرب . رغم ذلك ، لم ينظر اليها النواب الجيرانديون ، نظرة جدية . لقد سخروا من هذه الارستقراطية الحلوة الصغيرة . باسلوب لطيف وغير مباشر . لكنها قالت غاضبة وبنبرة حاسمة :

ـ تحكمون علي اليوم وأنتم تجهلون حقيقة أمري يوماً ما ، ستعرفون مقدرتي الحقيقية .

لماذا : اغتالت شارلوت كورداي « مارا » بالذات ؟ جاز اعتبار الجواب التالي :

لقد خطر لها في البال أن اغتيال أحد أبطال الثورة الفرنسية الأشد شراسة على حد قول بربارو سيرجح كفة الجيروندديين .

ولكن بعد اغتياله في مغطس الحمام بسكين حاد ، يجدر طرح السؤال التالي : هل شالت حقاً كفة الجبليين الحاكمين ، بعد موته ؟

هل أصابت الهدف أم أخطأته . . . فانقلب السحر على الساحر ؟ هل جرت الرياح عكس ما اشتهت ـ سفينة هذه الأرستقراطية الثائرة الحلوة ؟ هل جرفتها نوبة هستيرية الى ارتكاب جريمة لا واعية ؟ هل كان الدافع غير المباشر ، « بربارو » بالذات ؟

انتهى الاجتماع وانصرفت شارلوت الى منزلها ولم تكشف السر لأحد . مضى زمن

محدد . لقد اتخذت قراراً نهائياً بالنسبة لموضوع مارا .

في ٥ تموز ١٧٩٣ م ، قصدت السيدة غوتييه دوفيليرز ، وهي احدى قريباتها ودعتها بحرارة ، مدعية بأنها مسافرة . . قبلتها وانصرفت بسرعة . وكتبت رسالة الى بربارو ، هذا نصها : « وداعاً ، أيها النائب العزيز ، اني راحلة الى باريس . أريد مقابلة الطغاة وجها لوجه . . . »

وفي ٩ تموز ١٧٩٣ م ، تقل الديليجنس[1] . عند وصولها الى باريس ، تتجه الى شارع « سان توما دولوفر » لتقابل هناك النائب « لوز دويبيره » وهو صديق بربارو[2] . وقد عقدت النية على اغتيال مارا في عقر دار الجمعية التأسيسية . ولكن لا يمكن الوصول الى قاعة الجمعية ، دون بطاقة دخول ، لهذا السبب ، قصدت النائب « لوز دويبيره » ، عله يوفر لها مثل هذه البطاقة .

كانت زيارتها لهذا النائب المسكين ، معرضة للشبهة بشكل فاضح . . وغير مجدية اطلاقاً . لقد وضع « لوز دويبيره » تحت المراقبة ، وحرمته السلطة من حق اعطاء بطاقات دعوة .

هكذا عادت شارلوت كورداي الى الفندق وقد أصيبت بخيبة أمل . ولكن لم تستطع هذه الصدمة النفسية أن تعترض أمرها . وأسفاه ، لن يتم اغتيال مارا ، بشكل مثير ومدهش لن تقتله في عقر قاعة الجمعية التأسيسية . لذلك خطرت في بالها فكرة أخرى : « سأقتله في عقر داره » .

كتبت رسالة بعنوان : « كلمة موجهة الى الفرنسيين »

وهي أشبه بوصية سياسية حيث تشرح الدوافع التي جعلتها تقرر قتل « هذا الحيوان المفترس الذي سمنته دماء الفرنسيين » . وفي اليوم التالي ، قصدت دكان الخرداوات لشراء السكين عند العشية ، استطاعت أن تنام مطمئنة البال ، بعد أن قرأت بعض صفحات من كتاب . .

الاغتيال : يوم الأحد ، ١٤ تموز ١٧٩٣ م

لزم أن يكون هذا اليوم ، عيداً للثورة الشعبية وليس يوم حداد . لقد تحول

---

(١) عربة جياد للمسافرين .

(٢) يبدو لي من خلال هذا النص الذي كتبه المؤلف « بيار بلومار » بأن النائب بربارو وهو الرأس المدبر لارتكاب الجريمة والا كيف حصلت على عنوان صديقه في باريس بهذه السهولة؟

الاحتفال الشعبي الى يوم مأتمي بالنسبة للجبليين او اللامتسرولين[1] ، الذين فقدوا الزعيم الثوري الأكثر شعبية في فرنسا . إنما ، لم يتمتع الجيروندين بهذا الانتصار الزائف . اذ تحول يوم ارتكاب جريمة الاغتيال الى مأساة ، بالنسبة لهم أيضاً . فانقلبت الجريمة الى كارثة بكل معنى الكلمة .

على اثر اغتيال مارا ، شنت السلطات الشعبية هجوماً عنيفاً على الجيرونديين وسحقت بالتالي جميع مخططاتهم السرية ، اذ كان « مارا » رمزاً حياً للثورة الفرنسية ضد الملكية الطاغية .

الآن ، أصبح بوسع الجبليين اتهام الجيرونديين ، بالثوار الخونة ، المناوئين للثورة الفرنسية واعتبروهم من الملكيين المتآمرين .

لم يطعن خنجر شارلوت كورداي الضحية وحسب ، بل طعن الأنصار والأعداء على حد سواء .

هاك ما أعلنه فرينو ، أحد قادة الجيرونديين ، بعزم بطولي ، محرر من الوهم :

« لقد قتلتنا . . لكنها علمتنا كيف نموت . . . »

وهناك فئة من الجيرونديين التي تعيش في « كان » بعيدا عن العاصمة . . في مكان منعزل أشبه بالمنفى ، انتقدت تصرف شارلوت كورداي بمرارة :

« لو طلبت رأينا ، لما نصحناها بقتل مارا . . ألم يكن مارا فريسة لمرض فتاك ولم يبق أمامه سوى يومين . . قبل مفارقة الحياة ؟ »

بالفعل ، انه عمل شاذ وضال ، يعتبر روبسبير ، رأس الدماغ المدبر . برأيهم ، لقد أخطأت شارلوت كورداي . يجب قتل اذن ، روبسبير . فهو القائد الحقيقي للثورة الفرنسية عوضاً عن ذلك ، قتلت مارا ، في الواقع ، كان مارا مصاباً بمرض جلدي ، وكان هذا المرض يتعاظم يوماً بعد يوم . يا لسخرية القدر ، فهو انسان يحتضر ، ان الموت الطبيعي بانتظاره . ان قتله اغتيالاً ، غير مجد على الاطلاق .

كان مضطرا الى البقاء في داره ، في الأيام الأخيرة ، اذ تفاقم أمره وأجبر على استعمال الحمام بواسطة الحليب ، على الدوام ، لمعالجة آلامه الحادة .

غالباً ما تسبب الأمور الطفيفة تغييرات هامة في مجرى الاحداث السياسية ، خلال مرحلة تحقيق مبادىء الثورة . بهذا ، اعتبر الشعب « مارا » شهيد الثورة وأجهز بلا

---

(١) لامتسرول (لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣) .

رحمة على الجيرونديين . هكذا ، تفجر بركان الثأر الدموي من جهة اليعقوبيين . وعرفت هذه الفترة « بمرحلة الرعب اليعقوبي » وكرد فعل لهذه الجريمة المريعة اتجهت الثورة نحو مركزية دولية[1] حيث أصبحت بصماتها دائمة وثابتة على جميع معالم ومرافق فرنسا . مسكينة شارلوت ، لم تكن واعية اطلاقاً ولم يخطر في بالها قط بأنها ستصاب بمثل هذه البلبلة بعد ارتكاب جريمتها . لقد تورطت في أمور مناقضة تماماً لأفكارها السابقة .

ومن وراء قضبان السجن ، بعثت برسالة الى والدها : « سامحني يا والدي العزيز ، اذ تصرفت بحياتي كما أشاء ، بدون مشورتك . . . » ثم تذكر بيتاً شعرياً للشاعر المسرحي بيار كورنيل :

ان الجريمة تجلب العار . .لا المشنقة » .

وتجمدت ضمن دائرة عزلتها وبطولتها الوهمية ، وسوف تبقى على هذا المنوال حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

بدأت المحاكمة ، يوم الأربعاء ، ١٧ تموز ، عند الساعة الثامنة صباحاً . . كان الطقس حاراً جداً ، داخل قاعة « المساواة » في قصر العدل ، في باريس . دخلت شارلوت وهي ترتدي الثوب الأنيق . . فكانت القاعة مكتظة بالناس . تعالت فجأة الهمسات . . علامة الاستغراب والحشرية . . اذ توقع الجمهور مشاهدة امرأة مترجلة ، لكنه فوجىء برؤية فتاة صبية بسيطة ، ذات وجه ناعم وجذاب .

اتخذت لها مقعدا خاصا بالمتهمين ، وهو عبارة عن كرسي حديدي مرتفع ، بحيث يمكن رؤيتها من جميع الجوانب . جلس أمامها الرئيس مونتانه وهيئة المحلفين . عند جهة اليسار ، جلس المدعي العام واسمه فوكييه تانفيل ، وعند الجهة اليمنى كان المقعد فارغاً : انه مخصص للدفاع .

أما شارلوت كورداي ، فقد توقعت حضور المحامي دولسيه للدفاع عنها . فأعلنت بنبرة يائسة : اخترت صديقا ، منذ ذلك الحين ، وأنا ما أزال بانتظاره . لقد توارى عن الأنظار . يبدو بأنه لم يجرؤ على الدفاع عن قضيتي .

في الحال ، وكل الرئيس مونتانه ، المحامي شوفو لاغارد ، بدلاً عن المحامي دولسيه . وكان المحامي لاغارد موجوداً بالصدفة في قاعة المحكمة . جاز الاعتقاد بأن

---

(١) متعلق بدولة .

هذا الاختيار الطارىء ، ناتج عن شكلية معينة .

بدأ الاستنطاق . أجابت شارلوت على الأسئلة بنبرة طفلية ، لكن أجوبتها ، لم تحدث أي تأثير في نفوس الحاضرين . ألح رئيس المحكمة على اكتشاف أسماء شركائها في الجريمة لكنها أصرت على أنها نفذت فكرة الاغتيال من تلقاء نفسها . لقد تصرفت وحدها[1] ، في هذا المجال . كانت تصرح علانية بأنها هي الجانية بالذات ، ولا أحد سواها .

- لماذا قتلت مارا ؟

- هل كان لديك أهداف معينة ؟

- أردت وضع حد وضع للاضطرابات ثم الرحيل الى انكلترا . . . في حال عدم القبض علي .

- ولكن . . ماهي معلوماتك عن مارا ؟ هل تعرفين شيئا عنه ؟

- أعرف بأنه أفسد وأضل فرنسا . قتلت شخصاً واحداً لأخلص مئة ألف .

وتابع المحقق استجوابه حول نفس الفكرة وبالحاح :

- وهل تعتقدين بأنك قضيت على جميع انصار مارا ، بحكم هذا الأغتيال ؟

- هل الشخص . . مات . ربما شعر الآخرون بالخوف . . بعد ذلك .

وتشير كلمة « ربما » الى فكرة « الظن » التي راودتها مؤقتاً أثناء المحاكمة . هل خطرت في بالها ، بصورة لا واعية ، الصورة الأخيرة الناتجة عن هذا التصرف الاجرامي ؟ على كل حال ، لم يدم هذا التردد طويلاً . مرة أخرى ، استعادت المتهمة ثقتها بنفسها هدوءها وايمانها الراسخ بصوابية عملها . وبسرعة ملحوظة ، صدر قرار الاتهام ومرافعة الدفاع ، كذلك مشاورة هيئة المحلفين :

الحكم بالاعدام على شارلوت كورداى

كان القرار نافذاً في هذا اليوم بالذات . واقتيدت من جديد الى حجرتها[2] .

تلقت زيارة الكاهن ، لكنها رفضت وعظه . بعد فترة وجيزة ، زارها في السجن ، شخص آخر وهو الرسام الالماني ويدعى « هورر » الذي بدأ في رسمها ، أثناء المحاكمة ، وطلب منها متابعة عمله ، داخل زنزانتها . وافقت هذه الفتاة الشقراء ، بكل امتنان رتبت شعرها المنسدل على كتفيها ، وقالت له بنبرة هادئة :

---

(٢) وهو حبس منفرد .

- حسنا . . اني مستعدة . وكانت تبرح مكانها من حين الى آخر ، لالقاء نظرة خاطفة على اللوحة وتبدي برأيها حول بعض تفاصيل الرسمة .

كان حوارها مع الرسام هوور ، هادئاً . قالت له : حتماً ، بدأت الاجراءات اللازمة لتنفيذ اعدامي . لقد حان الوقت سيتم اعدامي عند الساعة الخامسة بعد الظهر .

حاورته بهدوء تام . كان الرسام يستمع لكلامها الهادىء الرزين ، بإعجاب ودهشة ، حدث نفسه : «واأسفاه ، هذا الجسم الجميل وهذا الوجه الناعم الجذاب ، سينفصلان عن بعضهما . . بعد فترة . . سيتحولان إلى جثة » .

/الساعة الخامسة/ : فجأة ، فتح الباب بعنف . ظهر سانسون ، وهو جلاد مدينة باريس عندها أرسلت صرخة مليئة بالرعب

- ما هذا ؟ أبهذه السرعة ؟

لكنها تمالكت أعصابها على الفور . ثم تناولت ورقة قرار الإتهام وكتبت عليها بعض الكلمات ، وطلبت منه أن .يرسلها إلى المحامي دولسيه . كانت كلمات عتاب .

بدأ الجلاد بقص شعرها . تناولت خصلة وقدمتها إلى الرسام الألماني ، وقالت بصوت خافت :

- ذكرى مني إليك . التفتت إلى الجلاد سانسون وقالت :

- هل سيدفن مارا في البانتيون[1] ؟

مرة أخرى ، أدركت مسبقاً عاقبة فعلها الخاطىء ، اذ تراىء لها « مارا » مكرماً ومعظماً بعد موته ، وسوف يعتبره الشعب شهيد الثورة الشعبية وأحد عظماء الأمة . كان هذا الإنطباع في محله . فأجاب الجلاد : لست أدري .

أراد بهذا الجواب تجاهل الأمر الواقع ، اذ تود في قرارة نفسها عدم مجابهة هذه الحقيقة المرة .

في الواقع لقد دفن جثة « مارا » في أبهة عظيمة تحت قبة البانتيون . لقد قتلت أحد آباء الأمة لذلك يجب. عليها استناداً إلى القرار القضائي ارتداء الثوب الأحمر الخاص بأصحاب جريمة القتل الأبوي وهو عبارة عن كيس منشى . أما لونه الأحمر فيبرز بقوة

(١) مدفن علماء الأمة ، وتقع في مدينة باريس .
(البانتيون) تم تشييد هذا البناء الفخم على قمة « جبل قديم » (سانت جنفياف) ابتدأ التعمير منذ عام ١٧٥٤ حتى عام ١٧٨٠ باشراف المهندس المعماري (سوفلو) ،وهو من الطراز الاغريقي الحديث .

البياض الناصع لجسمها المشوق القد .

في هذه الأثناء وصلت عجلة النقل إلى باحة « الكونسيير جورى » إنها بانتظار شارلوت كورداي ، عادة يتم إعدام أكثر من مجرم واحد على المقصلة . ولكن في هذا اليوم بالذات لم يصدر سوى قرار واحد . هكذا سوف تذهب وحدها إلى آلة الموت .

اتخذت لها مكاناً على عجلة النقل ، برباطة جأش سوف يقول الجلاد فيما بعد :

- لم أصادف أحداً قط . . يضاهيها شجاعة أمام الموت . . ما عدا فارس دولابار .

في الخارج ، كان الجمع غفيراً . لدى مشاهدتها تعالت الهتافات العدائية المشحونة بالكراهية والحقد والتي ازدادت عصبية بحكم هذا الحر الشديد المنتشر على مدينة باريس الهائجة المائجة ، في هذا اليوم بالذات .

« بدت شارلوت واقفة ، جامدة ، كأنها لا تسمع شيئاً من هذه الهتافات الجماهيرية الصاخبة أشبه بهدير الأمواج في بحر عاصفٍ » .

قال لها الجلاد بنبرة مليئة بالإشفاق :

- بإمكانك الجلوس . . اذا شئت .

- كلا . . شكراً ، سأظل واقفة .

ظلت منتصبة واقفة ، وحاولت الإحتفاظ بتوازنها رغم ارتجاجات الطنبر المتلاحقة . فجأة ، هب إعصار قوي وهطلت الأمطار بغزارة ، فتلاشت تنشية الرداء الأحمر والتصق بجسمها ، فبرز جماله بصورة أخاذة . كانت المسافة طويلة جداً . استعادت السماء زرقتها عند وصول عجلة النقل إلى ساحة الثورة - عندها وقف الجلاد أمام شارلوت كورداى ، محاولاً إخفاء مشهد المقصلة عن ناظريها . قالت شارلوت معترضة :

- دعني وشأني ، لم أر قط مقصلة في حياتي . لي الحق أن أكون حشرية .

لما وقع بصرها على هذه الآلة الجهنمية ، انهارت أعصابها . . في الحال ، كانت الصدمة عابرة ، تمالكت أعصابها من جديد ، وصعدت وحدها درجات المقصلة واستسلمت للأمر بصمت وكبرياء .

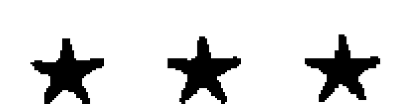
جابهت شارلوت كورداى الموت بشجاعة نادرة ، لكنها لم تحقق أمنيتها السياسية المنشودة فظلت بطلة في الفراغ . لم تحصل على تأييد أحد بعد موتها . فهل يعتبرها الملكيون شهيدة قديسة ، وهي أصلاً جمهورية النزعة ؟ أما الجيرونديون فلن يتساهلوا

معها . . اذ اعتبروا عملها شاذاً ولن يشكل أي فائدة بالنسبة للقضية .

في الواقع لم تحصد الفتاة الريفية سوى الخيبة المريرة ولا عجب ان شكرها أعداؤها اليعقوبيون ، بعد ارتكاب هذه الجريمة .

إن شارلوت كورداى التي تصرفت لوحدها والتي نقلت على عجلة النقل ، ظلت لوحدها ، منعزلة على صفحات التاريخ .

لم يخطر على بالها أن رجالاً مثل الجيرونديين ، يتجاهلون أمرها ويتركونها لقمة سائغة بين مخالب القضاء . باختصار ، كانت شارلوت كورداى بطلة . . في الفراغ .



الجاسوسة الحسناء

ماتا هاري.

لماذا قرر القضاء الفرنسي اعدامها رمياً بالرصاص؟

هل كان عملاً بطولياً أم عملاً لاانسانياً؟

باريس الوزارة الحربية: ١٠ آب ١٩١٦م.

ياله من طقس حار في هذا الشهر من هذه السنة، لا عجب ان كانت نوافذ مكتب الكابتن لادو، مشرعة، فالكابتن لادو يناهز الخامسة والثلاثين، له شاربان صغيران، وتبدو الرصانة واضحة المعالم على محياه. يضع نظارة بلاماسكتين. إنه منهمك الآن في دراسة قضية هامة، يتصفح ملفاً كثيفاً على طاولته، باهتمام بالغ.

جاز طرح السؤال التالي: ما الذي جعل هذا الضابط الشاب جالساً بهدوء وطمأنينة وراء طاولة المكتب في مدينة باريس، بينما زملاؤه الضباط، يجازفون بحياتهم في مردان؟ هل يرجع هذا الامتياز إلى علاقته الخاصة ببعض الشخصيات البارزة في الدولة الفرنسية أم إلى مكيدة؟

كلا، هناك عدد آخر من الضباط، لم يرسل إلى الجبهة، ويعود سبب ذلك إلى الكفاءات التي يتمتع بها الكابتن لادو وسائر زملائه العاملين حالياً في دوائر الوزارة الحربية. انه يحتل مركزاً دقيقاً للغاية: فهو رئيس المكتب الثاني المختص بمقاومة الجاسوسية.

الزيارة المنتظرة

في ١٠ آب، بعد الظهر.. ينتظر الكابتن لادو، زيارة هامة. لقد وصلت الزائرة المعنية، انها الآن في غرفة الانتظار، اتجه نحوها الحاجب وقال:

ـ سيدتي، يطلب منك الكاتبن الانتظار قليلاً.. فهو مشغول لبضع دقائق، يرجو منك قبول اعتذاره.

ـ بالطبع . شكراً .

في هذه الفترة الوجيزة ، استطاع رئيس المكتب الثاني مطالعة الملف ، للمرة الأخيرة . أما الزائرة فهي فنانة ذائعة الصيت ، لا تتجاوز الأربعين من عمرها . . ولدت في شهر آب عام ١٨٧٦ م في مدينة هولندية صغيرة . . وتدعى مارغريتا جرتردوزل . تزوجت عام ١٨٩٥ م من ضابط في الجيش الهولندي ، وهو الكابتن مك ليود . وبعد زمن قصير تم تعيين الزوج مسؤولاً في « جافا » وهي مستعمرة نيوزلندية . وكانت حياتهما الزوجية كارثة بكل معنى الكلمة . لدى رجوعهما إلى اوروبا عام ١٩٠٢ م ، طلبت السيدة ماك ليود الطلاق ، ثم هربت إلى باريس .

توقف الكابتن « لادو » عند هذه النقطة من الملف . الموضوع بين يديه . كان بحاجة إلى مراجعة هذه النواحي الخاصة من حياة الفنانة . . ولم يتابع القراءة . . إذ يعرف البقية ظهراً عن قلب .

في باريس ، حاولت السيدة ماك ليود ممارسة مهنة التمثيل المسرحي . . لم يكن النجاح حليفها ، إذ تفتقر إلى موهبة التمثيل . على الممثلة أن تكون موهوبة الفطرة ، تماماً كالشاعر والموسيقي والرسام . . خلال هذا الجمود الاضطراري ، عاشت خاملة . . إلى أن راودتها فكرة عبقرية : سوف تستفيد من اقامتها في « جافا » . . سوف تخلق لنفسها شخصية مميزة : راقصة شرقية .

نجم جديد يسطع في عالم الفن :

ـ ماتا هاري ـ

في ١٣ ديسمبر عام ١٩٠٥ م ، انهالانتصار ، حصل ذلك في متحف « غيمه » حضر الحفلة رجال السياسة ، الفنانون ، سفير اليابان ، وسفير المانيا . لقد قدم السيد « غيمه » بذاته الفنانة إلى زواره :

« إنها راقصة هندوسية[1] مقدسة . . وتدعى : « مارتا هاري » ومعناه باللغة الماليزية : « عين الفجر » ولدت في جافا من أم خلاسية وأب أوروبي ، وقد كرسها الكهنة للرقص المقدس . بدأ المشهد الراقص في قاعة مكتبة المتحف ، وهو بشكل طارمة[2] ، وقد تحولت إلى هيكل شيفا وكان وهج النور مخففاً بواسطة ستارة مثبتة

(١) أي متعلقة بالحضارة البراهمانية أو معتنقة المذهب الهندوسي .

(٢) طارمة أي بناء مستدير مقبب .

أمامه . عندها ، بدت الاضاءة ضبابية ملغزة ، أخاذة . . بينها تغطي أرضية المسرح ، تويجيات من الورد .

بدأت مارتا هاري بالرقص . انها طويلة القامة ، ممشوقة القد ، رشيقة ولينة . . إذ تتلوى كالأفعى لون بشرتها كامد ، وتبدو وكأنها فتى مراهق ، سيقان رائعتان ـ الصدر غير بارز ، كذلك الوركان . . ذراعان نحيلتان ، عينان سوداوان . . أما الشعر يتميز بلونه الاسود الفاحم ، بينها ترافق رقصاتها الايقاعية ، موسيقى شرقية ساحرة . .

ومما يزيد الاغراء فتنة ، هي طريقة تنفيذ الحركات التعبيرية ، بخطوات شهوانية طاغية انها ترتدي ستائر متراكبة من الحرير الهندي ثم تبدأ برفع الستار الواحد تلوالآخر بنعومة فائقة . . عند نهاية الرقصة . . لم يبق على جسدها سوى ساتر العورة ورافعة النهدين المصنوعة من المعدن المذهب .

وفجأة دوى التصفيق بحماس شديد . كان النجاح عظيماً . عندها ، أيقنت بأن العذر الثقافي قادر على مساعدتها لتحقيق أهدافها الأشد خطورة وجرأة . تلقفتها الصالونات الباريسية ، دون انقطاع . وتهافتت عليها المدائح من كل حدب وصوب : من جهة كبار رجال الفن ، والأدب والسياسَية .

رئيس المكتب الثاني والمراقبة السرية . . المتلاحقة

منذ ذلك الحين ، بدأ الكابتن لادو مراقبة تصرفات الراقصة الهندوسية ، ماتا هاري باهتمام بالغ ، من الناحية الفرنسية قامت بدور العشيقة لعدة نواب ، ثم لأحد وزراء الخارجية ، ولعدد من الدبلوماسيين وكبار الضباط في الجيش

من الناحية الألمانية ، استطاعت أن توقع في حبائلها الشيطانية ، الدوق دو برونشفيك ثم مدير شرطة برلين وكرونبرينز بذاته .

في أواخر شهر تموز عام ١٩١٤ م ، بينما كانت الحرب وشيكة الوقوع ، تركت فندقها الخاص في « نويي » وسافرت الى برلين ، وقد اختارت هذه العاصمة ، بعد أن أحرج موقفها ان اختيار برلين مقراً لها ، إنما هو دليل على انتمائها إلى معسكر العدو .

وفي ١ آب عام ١٩١٤ م ، أي عند بداية التعبئة العسكرية للجيش الالماني ، قررت تناول الطعام مع قائد شرطة برلين . ولم يستطع الكابتن لادو تجاهل هذا الأمر بل بالعكس اعتبر هذا اللقاء مع العدو وفي هذا الوقت العصيب بالذات تأييداً صريحاً له .

انما ، لم يكن المكتب الثاني أول من أهتم بهذه القضية ، بل استلم ملف الراقصة الهندوسية « الانتلجنس سرڤيس » البريطاني .

عند الانتهاء من تناول الطعام مع مدير الشرطة ، عادت مارتا هاري فوراً إلى هولندا ومن هناك أخذت تقوم برحلات منتظمة إلى انكلترا . كانت دوائر الاستخبارات البريطانية تراقبها عن قرب ، عندما عادت إلى فرنسا ، أعربت هذه الدوائر البريطانية لدى السلطات الفرنسية عن قلقها الشديد وعن شكها المتزايد ازاء تصرفات وتنقلات الراقصة الهولندية . هكذا كانت حالة الملف المختص بها ، في تاريخ ١٠ آب ١٩١٤ م . حتى ذلك الحين ، لم يتوصل التحقيق السري إلى أي دليل حسّي بحيث يدين مارغاريتا زل ، المعروفة باسم ماتا هاري . إنما ، يمكن القول بأنها معرضة للشبهة بشكل ملحوظ .

حدث الكابتن لادو نفسه : « يبدو بأني جعلتها تنتظر لمدة طويلة » نادي الحاجب : دعها تدخل .

دخلت ماتا هاري . . وهي ترتدي الثوب الغامق اللون وتعتمر قبعة من القش تزخرفها ريشة رمادية . رغم هذا المظهر المحتشم ظلت الناحية المشرقة الصادرة عن حضور قوى وعن هالة معنوية آخاذة . . هي المسيطرة على شخصية الراقصة الهولندية . ويمكن أيضاً عدم تحديد المصدر الرئيسي لهذه الجاذبية المدهشة . ربما يرجع ذلك إلى طريقة مشيتها أو إلى ليونة حركاتها الغريزية الطابع . عندما وقع بصر الكابتن لادو على مظهرها الفاتن تذكر فوراً عبارة أحد المعجبين بها : « حتى في مشيتها . . تبدو كأنها ترقص » .

اختارت ماتا هاري مقعداً مقابلاً للكابتن لادو . . وقد فاح منها أريج منعش :

« ماهذه التعقيدات أيها الكاتبن ، فما هو الداعي لكل هذه الاجراءات . . فقط لأجل بعض الكيلومترات . . التعيسة » .

لفظت هذه الكلمات بصوت شبه حلقي مع نبرة مستحبة للغاية . . رغم أنفه ، تأملها بدهشة واعجاب . . تقديراً لرباطة جأشها . أجل . . انها تعتبر هذه المسافة . . « بعض الكيلومترات التعيسة » ما أروع هذه الصيغة ، في الواقع ما كادت تصل الى فرنسا ، حتى قدمت طلباً إلى السلطات المختصة ، للسماح لها بمعالجة جرحى الحرب : وقد اختارت منطقة « فيتل » التي لا تبعد عن الجبهة سوى بعض

الكيلومترات . وقد قررت القيادة الفرنسية بالصدفة ، تشييد قرب فيتل في كونتركسيفيل ، مطار سري للغاية ، مختص بطائرات قاذفات القنابل . لقد أزعجها صمت الكابتن لادو ، فقالت له بانفعال :

«ولكن ياكابتن . . أهكذا تعامل المرأة التي تود تكريس حياتها لأجل فرنسا ؟ ان جميع هؤلاء الجنود المساكين ، بحاجة قصوى الى العناية والعطف» .

أخيراً قرر الكابتن لادو أن يتكلم . لقد صمم على تنفيذ خطته ومتابعة اللعبة حتى النهاية . سوف تذهب ماتا هاري إلى منطقة فيتل . انها الطريقة الوحيدة لكشف القناع عن وجهها :

- ياسيدتي ، ما ذنبي إذا كانت بلدة فيتل تقع ضمن منطقة عسكرية وبالتالي ، لا يمكن لأي شخص مدني زيارتها ، دون الحصول مني على اجازة مرور ؟

- وهل ستمنحني اياها ؟

- بالطبع ، ولم لا ؟ هل لديك جواز سفر مع صورة فوتوغرافية ؟

انفجرت أسارير وجه الراقصة الهندوسية وارتسمت ابتسامة مشرقة على شفتيها . بالتأكيد سوف تؤدي دور الجاسوسية بسهولة ، بفضل هذا الجمال الساحر ، ابتسمت وقالت له بنبرة ناعمة - لدي صورتان . بامكانك الاحتفاظ باحداهما إذا شئت .

رفض الكابتن هديتها المتواضعة . . ببرودة أعصاب فائقة ، مطت شفتيها علامة غيظ مكبوت . عادة ، لايستطيع أحد مقاومة هذا الاغراء الشيطاني . . وقد أزعجها جداً مثل هذا التصرف السلبي واللامبالي من قبل رئيس المكتب الثاني .

بعد أن وضعت امضاءها على بعض الوثائق نادى الكابتن الحاجب كي يرافقها حتى باب الخروج ، انصرفت ماتا هاري مضطربة ، وقد بدا الازعاج واضحاً على قسمات وجهها .

في الواقع ، يتضمن قرار رئيس المكتب الثاني ، مجازفة واضحة . انه يدرك ذلك تماماً . باتت المجازفة في مهنته هذه ، عادية ومألوفة . سوف ينفذ خطته التي رسمها خصيصاً لهذه الغاية . وقع اختياره على شاب جميل المحيا وهو في دور النقاهة . . انه ملازم أول في فرقة الخيالة . . سوف يطلب منه الاتصال بالراقصة . . وسوف يحقق غايته بسهولة ، إذا ادعى بأنه طيار ، بهذه الطريقة ، سوف يحصل من الجاسوسة الالمانية على معلومات دقيقة .

في الأيام التالية ، بدأ الكابتن لادو بغربلة الوثائق التي استلمها من الملازم الأول وغيرها من الوثائق التي أرسلت إليه من « فيل دو » لقد أصيب بخيبة أمل . . إذ لم تقم بأي عمل يستوجب العقاب . . بالاضافة إلى ذلك ، حدث شيء غريب حقاً : لقد وقعت فجأة في الغرام . بينما كانت تعالج المرضى ، صادفت في المستشفى شخصاً يدعى ماسلوف ، وهو كابتن روسي أعمى . . واستناداً إلى جميع التقارير الواردة إليه ، فهي مولعة به حتى الجنون .

ماتا هاري عاشقة . إنه الاحتمال الأخير الذي يمكن أن يتصوره الكابتن لادو ، ياللغرابة ياله من حظ شيء ، انه ظرف طارىء مناقض لتصورات الكابتن لادو . عندها اتضحت له الصورة السيكولوجية لهذه العاشقة الهولندية : انها عصبية ، مزاجية وعاطفية حتى الوله . انها مستعدة أن تجازف بحياتها في سبيل حبها الجارف . ان مثل هذا الحب الملتهب ، قادر على ابعادها عن أي تصرف عقلي ، ولا عجب ان نسيت مهمتها الأساسية بعد ذاك . على كل حال ، لم يسجل أي عميل سري ، أية محاولة جديدة للتجسس ، منذ وقوعها في غرام الكاتبن الروسي ماسلوف .

رغم ذلك ، ظل الكابتن لادو ، يلاحق قضيتها سراً . لايريد اهمال ملف ماتا هاري . وشاء القدر أن تزوره مرة أخرى بعد غياب دام أكثر من ثلاثة أشهر . حصل ذلك ، في شهر نوفمبر عام ١٩١٦م ، أما هدف الزيارة فهو غريب حقاً . . لا يتصوره عقل . قالت لرئيس المكتب الثاني بانفعال شديد :

ـ طبأت علي مغامرة غريبة ومدهشة ، في فيتل ، لقد وقعت في غرام ضابط روسي . انه الحب الأول في حياتي .

ـ حسناً . . تزوجيه .

فجأة ، اكفهر وجهها وقالت له بنبرة يائسة :

ـ لاأستطيع ان عائلته غير راضية على الزواج ان والده أميرال ، . . وإلا . . يجب أن أملك ثروة محترمة . .

لقد أثار هذا الموضوع انتباه الكابتن لادو . بدأ الآن يدرك اتجاه سيرها الحالي . أرسلت زفرة عميقة وقالت له بتحسر :

ـ أحتاج الى مليون .

لقد وقعت الآن في الفخ الذي نصبه لها رئيس المكتب الثاني . عند سماع هذه

العبارة ، صفر الكابتن مستغرباً ، ان مبلغ مليون فرنكٍ فرنسيٍ في عام ١٩١٦ م ، ضخم جداً . . يساوي مليوني فرنكٍ في وقتنا الحاضر .

- وإذا دفعنا لك هذا المبلغ . . فماذا تقدمين لنا بالمقابل ؟

أجابت بهدوء :

- متى أرادت ماتا هاري . . بوسعها أن تكون جاسوسة فوق العادة .

- يعني ؟

- كنت عشيقة كرونبرنيتز . بمقدوري العودة إليه . يتعلق الأمر بي وحدي . ألا يستحق هذا المشروع مليون فرنك ؟

عندها ، قرر الكابتن لادو كشف أوراقه :

- لن أعطيك شيئاً ، ولكن أود تكليفك بمهمة . سوف أكون صريحاً معك . ياماتا هاري : أنت خاضعة للمراقبة السرية منذ زمن طويل ، واني متأكد كل التأكيد بأنك جاسوسة المانية . مع ذلك ، إذا أنجزت هذه المهمة ، سنتخلى عن فكرة ادانتك .

- وإلا ؟

- وإلا . . سوف تجابهين مشاكل خطيرة للغاية .

نهض رئيس المكتب الثاني من على كرسيه واتجه نحو خريطة اوروبا الحائطية ، حيث يبرز بالأحمر ، خط الجبهة . أشار باصبعه الى بلجيكا :

- ستذهبين إلى هذا المكان .

ماتا هاري . . في طريقها إلى لشبونة

انتاب ماتا هاري « الارتباك .

- وهل سأضطر إلى اجتياز الخنادق ؟ ابتسم الكابتن لادو .

- كلا . في مثل هذه الرحلات نادراً ما نسلك الخط المستقيم . سوف تقصدين بلجيكا عن طريق لشبونة .

- وبعد ذلك ؟ وفي الحال ، خربش الكابتن لادو ، بعض الكلمات على الورقة ، وأضاف قائلاً :

- هاك خمسة اسماء من عملائنا . سوف يتصلون بك .

حاولت دس الورقة داخل حقيبة اليد ، انما بادرها الكابتن قائلاً :

- كلا . حاولي حفظ الأسماء غيباً . تجهم وجه ماتا هاري ، وعلى الفور ، أعادت

اليه الوثيقة .

- هذا يكفي . لدي ذاكرة قوية . وإذا حالفني الحظ ، هل سنتطرق إلى موضوع المال ؟

- ربما . المهم هو النجاح أولاً .

ان ماتا هاري عاشقة حتى الجنون . وعشيقها هو الضابط الروسي الأعمى ماسلوف . لذلك يعتبر مبلغ المليون فرنكاً فرنسياً ، الغيث الالهي الذي تتوقع هطوله في حياتها المقفرة . بين لحظة وأخرى . انما يتعلق تلبد الغيوم وهطول المطر المخلص ، بنجاحها في مهمتها ولكن لم يخطر في بالها بأنها تجتاز أخطر مرحلة في حياتها : اما أن تخلص للمكتب الثاني الفرنسي وإما أن تخونه وتنضم الى معسكر العدو الفرنسي وفاتها بأنها مراقبة بشكل مدروس ومتواصل بصورة محكمة .

هل تخلص لمبادىء السلطة الفرنسية فتنجح ، أم تنحاز للعدو . . فتقع في الفخ الذي حاولت حفره للمخابرات الفرنسية ؟

أطلق المكتب الثاني الفرنسي سراحها وأرسلها بعيداً إلى بلجيكا ، موقناً بأنها أشبه بالطائر العائف[1] الذي يحلق بعيداً ، لكنه يعود من جديد الى موضعه الأساسي ، ليدور حول الفريسة ، هادفاً الوقوع عليها .

وما الفريسة سوى الوثائق العسكرية الفرنسية . . ولكن ، من المحتمل أن يتحول الصياد الى طريدة . . ويقع لقمة سائغة بين أيدي القضاء .

جاز أن تكون ماتا هاري أشبه بهذا الطائر العائف الذي يحوم عالياً فوق فريسته ، ثم يفاجأ بنار الصياد . فيرديه قتيلاً . . وقد تحول الغازي إلى ضحية .

عند انصراف الراقصة ، ارتسمت على شفتي الكابتن لادو ، ابتسامة الواثق من نفسه ، لقد تصرف بدهاء لانجاح مهمته . ويبدو أنها لم تشكك في حسن نواياه اطلاقاً .

أما موضوعَ بلجيكا ، فهذا أقل همومه شأناً . جل ما يهمه الآن ، هو خط السير[2] . ولم يرسلها الى لشبونة ، دون قصد محدد . لم يتم اختيار هذه المدينة بالصدفة ، ففي طريقها الى لشبونة ، توجد مدريد وتعتبر هذه العاصمة ، مركز توزيع الجاسوسية الالمانية . « الفخ الذي نصبه الكابتن لادو ، للراقصة « البوش » بدقة

(١) عاف الطائر عوفاً أي دار حول الشيء يريد الوقوع عليه فهو عائف .

(٢) أو بيان الرحلة.

وبراعة » :

إذا كانت ماتا هاري هي فعلاً في خدمة العدو الالماني ، كما اتضح له ، سوف تنفذ خطتها هناك ، في مدريد ، وسوف تقع في الفخ الذي نصبه لها ، رئيس المكتب الثاني الفرنسي أما الفخ ، فيكمن في الأسماء التي ذكرها الكابتن لادو ، للراقصة الهندوسية في مكتبه . ان الاشخاص الأربعة ، الذين ذكر أسماءهم على الورقة ، هم وهميون ، من نسج خياله . لقد كتب هذه الأسماء بصورة اعتباطية . لكن الشخص الخامس فهو عميل فرنسي حقيقي لكنه عميل مزدوج ، وقرر المكتب الثاني الفرنسي التخلص منه .

إذا القت السلطات الالمانية القبض عليه وأعدمته رمياً بالرصاص ، هذا يعني بأن ماتا هاري قد خانت القضية المتعلقة بالمكتب الثاني الفرنسي . . أي أنها فعلاً جاسوسة المانية . عندها ، تبرز الأدلة الثبوتية بشكل حاسم .

بعد أيام معدودة ، بدأت التقارير تصل تباعاً الى مكتب الكابتن لادو ، فمنذ وصولها الى مدريد ، اتجهت نحو السفارة الالمانية وقامت بزيارة الملحقين العسكريين في السفارة الالمانية : فون كال وفون كروهن .

رغم موقفه العدائي لها ، قرر الكابتن لادو ، تأجيل حسم الموقف بالنسبة لتصرفاتها المريبة . قال لنفسه : « يتطلب العمل الجاسوسي الاحتكاك بالعدو ، من حين إلى آخر ربما تقصد ماتا هاري الاستفادة من علاقاتها مع الالمان ، لتؤدي دورها باتقان وباخلاص تجاه المخابرات الفرنسية .

بهذا ، سوف تتوصل الى الحصول على معلومات دقيقة حول القواعد المخصصة لعمليات انزال الغواصات الالمانية في مراكش .

وتمر الأيام ، انما تجري الرياح بما لا تشتهي سفينة الكابتن لادو . في مدينة لشبونة تقل ماتا هاري المركب كما هو متفق عليه ، لكن السلطات البريطانية تأمر بالتفتيش الفوري ، ويتم القبض عليها . لحسن الحظ ، علم الكابتن لادو بالأمر ، قبل فوات الأوان . هرع الى جهاز الهاتف واتصل فوراً بالانتليجنس سرفيس ، بناء لشفاعته تم اخلاء سبيل ماتا هاري ، وصدر قرار بابعادها فورا الى اسبانيا .

هكذا ، اضطرت الراقصة « البوش » اعادة نشاطاتها منذ البداية . فأخذت تتردد باستمرار الى السفارة الالمانية ، في مدريد . وبعد فترة من الوقت ، استلم الكابتن لادو تقريرين متعلقين بماتا هاري . واستناداً اليهما ، تبدد الشك واطمأن قلبه لقد توضحت

الأمور بشكل قاطع .
التقرير الأول : ألقي القبض على الجاسوس المزدوج وأعدمه الألمان رمياً بالرصاص
(مصدر التقرير الأول هو مدينة مدريد) .
التقرير الثاني : (ومصدر هذا التقرير هو برج ايفل) .

والمعلوم ان هذا الصرح الهندسي ـ الباريسي المبتكر ، يمتلك أعظم وأهم أجهزة استقبال في الراديو ، عصر ذاك . أنه قادر بشكل خاص ، على التقاط التبليغات المتبادلة بين اسبانيا والمانيا . وكان العدو يجهل الأمر التالي : لقد توصل المكتب الثاني الفرنسي الى حل لغز الرمز السري الالماني منذ زمن طويل .

هاك البرقية اللاسلكية التي نقلت الى الكابتن لادو . انها صادرة من مركز القيادة العليا الالمانية وموجهة الى سفارة مدريد :

« هـ ٢١ ، عميل ما قبل الحرب انه رائع ، لم يقدم شيئاً جدياً منذ الحرب . اطلب من هـ ٢١ ، الرجوع الى فرنسا لمتابعة مهمته . سوف يستلم شيكاً بمبلغ ٥ آلاف فرنك ، المسحوب بواسطة كرايمر ، على حساب فرع الحسومات » .

بالطبع ان الرمز السري هـ ٢١ ، يخص ماتا هاري . . إذ انتقلت فعلاً بعد أيام معدودة ، من مدريد إلى باريس بتاريخ ٣ يناير ١٩١٧ م . قرر الكابتن لادو عدم القبض عليها فوراً . إنما ، مثل هذا القرار يتضمن المجازفة . من الممكن جداً أن تقوم برد فعل فوري وتفر هاربة . ولكن ، من ناحية أخرى ، لا بد له من ملاحقتها سراً ، كي يكتشف هدف وجودها الحالي في فرنسا ، ومن هو الشخص الذي تنوي الاتصال به . أراد افساح المجال لماتا هاري كي تتصرف بحرية ، عله يتوصل بهذه الطريقة المدروسة ، إلى اكتشاف شبكة هامة من الجاسوسية .

هناك سبب آخر ، جعل المكتب الثاني الفرنسي عدم التصرف فوراً : إذا تم اعتقال ماتا هاري ، في حال رجوعها إلى فرنسا ، هذا يعني بأن المخابرات الفرنسية توصلت الى التقاط البرقية اللاسلكية ويعني ايضاً بأن الرمز السري قد كشف أمره .

كي لايكتشف الالمان هذه الحقيقة ، قرر الكابتن لادو التريث في القبض عليها . لكنه ضيق الخناق . بدأت المراقبة الشديدة تلاحقها ليلاً نهاراً . . انما ، لم تؤد هذه الاجراءات الدقيقة الى نتيجة تذكر . ذهبت كل مجهودات المكتب الثاني ، ادراج الرياح لم تقم بأي نشاط مشبوه . بالعكس ، لقد أسهبت في نشر تصريحاتها الحماسية في

تمجيد وتعظيم فرنسا . جاز الاعتقاد بأنها وجدت نفسها أخيراً في موقف حرج ، وقد شعرت بأنها أخطأت في تصرفاتها وفي رجوعها الى فرنسا . . فكان مثل هذا القرار ، عملاً طائشاً . . واتضح لها كذلك بأنها وقعت فعلاً بين مخالب الذئب . . أدركت كل ذلك . . ولكن بعد فوات الأوان . ولات ساعة مندم .

عام ١٩١٧م . ماتا هاري . . . . في سجن النساء

أخيراً ، أدرك الكابتن لادو بأن التريث لمدة طويلة غير مجد . لذا أمر بالقبض على الراقصة الهندوسية الشهيرة : ماتا هاري .

عند فجر ١٤ شباط ١٩١٧م ، تمركزت عدة فرق من رجال الشرطة حول الفندق الفرنسي « بالاس هوتيل » . . ثم اتجه المفوض يبريوله وبرفقته بعض رجال الشرطة ، الى غرفة الراقصة . . طرق على الباب . كانت الساعة تشير الى الساعة تماماً . لا جواب . صرخ المفوض غاضباً .

- إن لم تفتحي الباب . . حطمته .

ساد صمت عميق . . وبعد فترة وجيزة ، تعالى صوت انثوي ساحر :

- هيا . . ادخل . . إذا لم يزعجك الى غرفة النوم الخاصة بالسيدات .

فتح الباب . هرع المفوض ورجاله الى الداخل . كانت ماتا هاري واقفة قرب السري ، ما تزال ترتدي المبذلة[1] وشعرها منسدل باهمال على كتفيها . طبعاً ، يوجد فرق واضح بين المرأة تلك ، التي تستقبل الناس صباحاً دون ماكياج ، والفنانة التي تظهر على خشبة المسرح بجمالها الساحر حيث يغطي جسدها البض ، حجاب شفاف ورافعة النهدين المصنوعة من المعدن الذهبي . في هذه اللحظات العصيبة ، بدت وجنتاها ورقتين . . وقد غارت بينهما عينان مرهقتان . الآن تبدو تماماً في الأربعين من عمرها .

هز المفوض يبريوله رأسه ، مشيراً إلى الحاجز الواقي ثم جلس على كرسي مجاور ، عندما انتهت من ارتداء ملابسها وترتيب هندامها ، اقتيدت إلى سجن النساء المعروف باسم سجن سان لازار .

ماتا هاري في قبضة العدالة العسكرية

إنها الآن في قبضة العدالة العسكرية . استوجب التحقيق وقتاً طويلاً . بدأ التفتيش

(١) البرافون .

في أغراضها وعن ماضيها ، للعثور على أدلة جديدة لادانتها ، بالاضافة إلى الدليل الحسّي وهي البرقية اللاسلكية . ولكن ، لم يسفر التفتيش هذا ، عن نتيجة ملموسة . رغم ذلك ، قررت السلطة العسكرية احالتها إلى المحاكمة .

في ٢٥ تموز ١٩١٧ ، أستدعيت ماتا هاري ، للمثول أمام المجلس الحربي الثالث .

في هذه اللحظات الحاسمة ، قررت المتهمة الاعتماد على الورقة الرئيسية في هذه المقامرة الدرامية . . أي على جاذبيتها . فارتدت خصيصاً لهذه المناسبة . ثوباً أزرق مقوراً واعتمرت قبعة مثلثة القرون . جلست على الكرسي وهي تبتسم .

ولكن ، جاز طرح السؤال التالي : هل تتوصل المتهمة بواسطة هذا المظهر الجذاب ، الى التأثير على القضاة العسكريين الستة الذين يقومون بواجبهم باشراف رئيس المحكمة الكولونيل سومبرو ؟ من المؤكد ، بأن المندوب الحكومي ، الملازم مورنه ، بعيد كل البعد عن هذا النوع من التأثير . فهذا الشاب الملتحي ، وكيل النيابة ، سوف يصبح بعد ثمانية وعشرين عاماً ، المدعي العام خلال محاكمة بيتان ولافال . . فيعتبر من أشد المسؤولين تعلقاً بالنصوص القانونية . . فلا يلين ولا يرحم .

بجوارها ، جلس رجل وهو في الخمسين من عمره . عند وصولها إلى قاعة المحكمة ، دنا منها وصافحها بحرارة وابتسم لها بعطف ظاهر ، انه الاستاذ كلونه ، وهو محامي الدفاع . يقال بأنه واحد من عشاقها الكثيرين . . وتصرفه العاطفي في الوقت الحاضر ، دليل على صحة ما تردده ألسنة الناس .

ولم تفارق الابتسامة قط ، شفتي ماتا هاري . . كأنها غير مبالية بخطورة الموقف أما الرئيس سومبرو فظل محتفظاً بوقاره ، ولم يجاملها اطلاقاً :

ـ كنت برفقة مدير شرطة برلين ، يوم اعلان الحرب .

لم تفاجأ الراقصة « البوش » بهذه التهمة ، أجابته بنبرة هادئة :

ـ تعرفت على مدير الشرطة في الميوزيك هول[1] حيث كنت أقوم بعملي الفني . في المانيا ، يحق للشرطة مراقبة أزياء المسرح . جاء مدير الشرطة لفحص ثيابي . بهذه الطريقة ، حصل التعارف . تابع الرئيس سومبرو كلامه :

ـ ثم التحقت بقسم رئيس دائرة التجسس الالماني الذي كلفك للقيام بمهمة في باريس . . سلمك مبلغ ثلاثين ألف مارك ، وسجلك تحت رقم هـ ٢١ .

(١) مسرح المنوعات (للرقص والغناء والاداء البهلواني وما شابه ذلك) ميوزيك هول .

الآن ، ساد قاعة المحكمة صمت رهيب . انها لحظات حاسمة . هل ستعترف ماتا هاري ، بالحقيقة . . هل ستذكر الوقائع بصراحة ودون تردد ؟ أجل . فلن تحاول اللجوء إلى الكذب لقد فضلت ذكر الحقيقة بجرأة وشجاعة :

- هذا صحيح . كان رئيس دائرة الاستخبارات عشيقي . أعطاني ثلاثين ألف ماركاً واسماً مستعاراً ، لمراسلته . انما ، لم يكن هذا المال ، اجرة جاسوسة ، كان هدية .

هل ترك مثل هذا الدفاع ، أثراً في نفوس القضاة العسكريين ؟ لم تتغير سحنة أي قاض ما زالت الصراحة واضحة المعالم على محيا كل واحد منهم . لم يقتنع أحد بكلامها . وتابع الكولونيل سومبرو ، تلاوة التهم بصورة تدريجية :

- ذهبت إلى الجبهة . بقيت عدة أشهر ، في فيتل ، بحجة أنك تعالجين الجرحى .

أجابت ماتا هاري بنبرة عاطفية مليئة بالانفعال :

- هذا صحيح . أردت تكريس حياتي لأجل كابتن روسي مسكين ، وهو الكابتن ماسلوف . . الذي فقد بصره . أردت التضحية بحياتي لمعالجة عاهة أصابت ضابطاً تعساً . . وإني أحبه . ظل القضاة غير متأثرين بكلامها العاطفي . يبدو بأن انفعالها وحججها المتعددة ، قد ذهبت ادراج الرياح .

تابع الرئيس سومبرو كلامه ، بنبرة حازمة :

- في اسبانيا ، زودت الكابتن لادو بمعلومات حول القواعد الموجوده عند الشاطىء المراكشي حيث تجري عملية انزال الغواصات الالمانية . وهل يمكنك الحصول على مثل هذه المعلومات دون الاتصال بالعدو ؟

عندها ، تدخل محامي الدفاع ، الاستاذ كلونه :

- برأيك ، لقد تلقت هذه المعلومات من السماء ، أليس كذلك ؟ انت تقول « الاتصال بالعدو » وهذا الاتصال المذكور ما هو إلا التنفيذ التام لأوامر الكابتن لادو .

لقد سجل الدفاع نقطة لصالح المتهمة . انما ، كان الانتصار مؤقتاً ولم يدم سوى لحظات معدودة . . إذ انقض الكولونيل سومبرو على المتهمة بدليله الحسّي الأكثر خطورة بالنسبة لملفها الخاص :

« البرقية اللاسلكية التي التقطها برج ايفل ومبلغ خمسة آلاف فرنكاً الذي سلمته السفارة الالمانية للعميل السري (هـ ٢١) للقيام بمهمته في فرنسا » .

مرة أخرى ، لم تنكر ماتا هاري الحقيقة ودافعت عن نفسها بأسلوبها التبريري

المألوف ـ هذا صحيح . كل الصحة . انما الملازم فون كروهن ، هو عشيقي وقد وجد الأمر أكثر لياقة إذا قدم لي الهدايا بواسطة مال الدولة وليس بواسطة ماله الخاص . .

عندها ، طفح الكيل . رغم خطورة الموقف ومهابة الوظيفة انفجر القضاة الستة ومندوب الحكومة ، ضاحكين بأعلى صوتهم . . جحظت عينا ماتا هاري وحدقت بهم مذهولة . للمرة الأولى ، أدركت مدى خطورة الموقف وراودها انطباع سوداوي مريع لقد وقعت أخيراً في الفخ . من فمها ، أدانت نفسها :

ـ أؤكد لكم أيها السادة بأنه دفع المال مقابل ليالي الغرام التي قضاها معي ، ما هذا ياحضرة الضباط ؟ . . قليلاً من اللباقة والاحترام .

ولكن لاعلاقة للمقاييس الاخلاقية بهذه المناقشات الدرامية الحاسمة . . إذ تفاقم الأمر وازداد تعقيداً وخطورة بالنسبة للراقصة الهندوسية ماتا هاري .

ذكر محامي الدفاع عدداً وافراً من الشهود : من بينهم الاشخاص البارزين الذين يتمعتون بمراكز رفيعة في الدولة وكانت ماتا هاري عشيقة كل واحد منهم . . ماعدا جول كامبون . السفير السابق في برلين ، الذي جاء الى المحكمة وقدم شهادته بكل جرأة وشجاعة . لم يحضر اي واحد من هؤلاء السادة المولعين بجمالها الفتان .

بالنسبة لها ، كانت خيبة الأمل مريرة حقاً . هل فاتها بأن معظم الرجال يتكالبون على جسد المرأة لاشباع نزواتهم . . فكانت أداة تسلية بين أيديهم. لا أكثر ولا أقل ؟

أما الرئيس سومبرو ، فقد تلا على السامعين رسائل الاعتذار ، المرفقة بشهادات طبية ثم سحب الكولونيل سومبرو ورقة من الملف وقال :

ـ لايمكن استدعاء الكابتن ماسلوف للمثول أمام القضاة . . نظراً لحالته الصحية .

واتفق المجلس الحربي على صرف النظر عن قضية الكابتن الروسي الأعمى .

اعترى الاصفرار الجثي وجه ماتا هاري ، لم تكن واهمة عندما ادعت بأنه الرجل الوحيد الذي أحبته في حياتها ، منذ النظرة الأولى ولا يمكنها أن تحب أحداً سواه .

فجأة تحول محياها الى صورة ناطقة عن العذاب والخوف . يالتعاستها إذا تخلى عنها ماسلوف . . عندها ، ستجابه مصيرها المحتوم : الحكم بالاعدام .

ـ الحكم بالاعدام ـ

حان وقت المرافعات ، قدم الملازم مورنه ، قرار الاتهام بأسلوب جاف ودقيق . . فكان قراراً صارماً لا يرحم . لم يفاجأ أحد بهذه النتيجة المرتقبة .

ثم جاء دور محامي الدفاع ، الاستاذ كلونه . كان في كلامه عاطفياً أكثر من اللزوم انسحبت هيئة المحكمة للتشاور ، ثم عادت إلى المنصة بعد عشر دقائق تقريباً . تمشياً مع القانون ، أدت مفرزة من الجنود ، تحية الشرف ، عندما بدأ كاتب المحكمة بتلاوة حكم القضاء :

« إن المجلس الحربي يعلن بالاجماع وباسم الشعب الفرنسي الحكم بالاعدام على المدعوة زل مارغريتا جرترود ، وقد حكم عليها أيضاً بوجوب دفع كافة الأجور والمصاريف المستحقة للدولة » .

أجهش الاستاذ كلونه باكياً ، بينما رددت ماتا هاري بصورة لا واعية ، وقد اصيبت بذهول تام : ـ هذا غير معقول ، هذا غير معقول .

بالعكس ، هذا أمر معقول . . نظراً للظروف العصبية التي كانت تجتازها البلاد وقتذاك أي خلال شهر تموز ١٩١٧ م ، تعتبر هذه الحقبة من التاريخ ، من أخطر المراحل الدرامية منذ بداية الحرب العالمية . إن الهزيمة الدموية التي منيت بها القوات الفرنسية ـ الهجومية ، أدت إلى اضطرابات داخلية مريعة . صحيح أن الجنرال بيتان ، استلم زمام الأمور بقوة وشجاعة ، ولكن ، لم يطرأ تحسين على البلاد المضطربة الا جزئياً وببطء . فأصيب الرأي العام بالعقد النفسية التالية : اينما توجه الفرنسي تصور سواه ، جاسوساً المانياً . ولا عجب اذن ، ان ألح القضاء على اعدام جاسوسة المانية حتى ولو كانت راقصة أجنبية شهيرة . بهذا ، لم يتأثر أحد بمصيرها المأساوي . هذه الفنانة التي لقبتها الجرائد بالجاسوسة البوش . فبات الاعدام أمراً مألوفاًوعادياً جداً ، وقتذاك . ففي كل يوم كان يعدم القضاء بعض الجنود الفرنسيين لأنهم تمردوا على السلطة العسكرية ورفضوا قتل الأعداء ، خلال المعركة . .اذ أصابتهم الصدمة النفسية وهم يرون رفاقهم وقد تحولوا الى أشلاء مبعثرة تحت فيض من قنابل العدو .

طلب العفو من رئيس الجمهورية بوانكاريه

مسكينة ماتا هاري ، استحالت السحاب . .اذ نظرت اليه من خلال نافذة الأمل ، في حبسها المنفرد في سان لازار ، فظنته ماطراً . .خاب سعيها وخاب أملها . لم يستطع أحد تنجيتها من هذا المصير المحتوم . رغم ذلك ، لم يختل العقل ، بل ظلت رابطة الجأش متوقعة الإفراج بين لحظة وأخرى . .أهزل الحزن جسمها فأضناه . رددت اسم ماسلوف ، عدة مرات . . ما كانت تعبأ بالحياة ولا تأسف على شيء فيها

لولا حبها له .

انتظرت طويلاً . . استبد بها اليأس . فلا حيلة لها في قضاء الله وقدره . رغم هذا القنوط القاتل ، ظلت تتوقع حدوث أمر ما . . انبثاق نور ضئيل من خلال هذه الظلمة الحالكة

في الواقع ، أخذ الأصدقاء يتحركون في الخارج وفي الداخل ، لم يفقدوا الأمل . تكثفت الجهود الخيرة في سبيل اخراجها من هذا المأزق المهين . حاولت حكومة البلاد الخافضة التدخل لدى السلطات الفرنسية للافراج عنها (مع أن الملكة ويلهلمين لم تبد رأيها في هذه القضية) . . بالاضافة الى توسط بعض الشخصيات البارزة لدى رئيس الجمهورية بالذات .

لكن الرئيس بوانكاريه ، رفض تلبية نداء أصدقائها من مختلف الأصقاع ، واعتبر طلب العفو أمراًمستحيلاً . لقد انقضى كل شيء ، فلاسبيل الى الرجوع عن قرار المجلس الحربي :

ـ الإعدام ـ

١٥ تشرين الأول ١٩١٧ م انه الفجر . وصل الملازم مورنه وبرفقته بعض القضاة ، الى حبس ماتا هارى المنفرد . كانت غارقة في سبات عميق . عند العشية ، دس طبيب السجن في طعامها كمية من الكلورال[1] . لم تفتح عينيها إلا بعد جهد جهيد . فأخذت الحارسة تهزها عدة مرات . . كي تستفيق . وما ان فتحت عينيها حتى أصابها الذعر الشديد وصاحت مرددة العبارة السابقة لا شعورياً :

« هذا غير معقول ، هذا غير معقول »

ولكن ، بعد ثوان معدودة ، توترت وتصلبت وتمالكت أعصابها من جديد . التفتت إلى الراهبة الأخت ليونيد التي تقوم بدور الحراسة وقالت لها :

ـ لاداعي للخوف ياأختاه . . اني أعرف كيف أموت بشجاعة . سيكون موتي رائعاً .

ثم طلبت ارتداء ثوبها الدافىء وشرعت ترتديه وهي تحدث نفسها غاضبة :

ـ آه منكم أيها الفرنسيون . . وهل يفيدهم قتلي : وهل يعتقدون بأن موتي يجعلهم يكسبون الحرب ؟ كم عانيت لأجلهم ، ذهبت كل تضحياتي أدراج الرياح . . مع

(١) سائل عديم اللون يحضر من الكلور والكحول ويستخدم منوماً .

اني . لست فرنسية .

بعد لحظات معدودة ، انتهت من هندامها . كانت ترتدي الثوب الحريري الرمادي اللون والموشى بالفرو وقد اعتمرت قبعة من القش ذات اللون الأسود والأبيض . طلبت كاهناً في الحال حضر القس داربو . ، ودنا منها . . وكانت رغبتها الأخيرة : المعمودية على يد القس داربو . لذلك ، سمح له بالانفراد معها ، لدقائق معدودة .

وفتح الباب مرة أخرى ، وقفت ماتا هاري منتصبة ، مرفوعة الرأس . ياللعجب ، بدت معاظمة ، متكبرة . . في هذه اللحظات المأتمية . وقالت « اني مستعدة » . اتجه نحوها ضابط وقال لها :

ـ هل تودين الافشاء بسر ما ؟

أجابت بازدراء :

ـ كلا . لاأملك أي سر . حتى ولو أملك أسراراً ، لن أبوح بها . . سأحتفظ بها لنفسي .

ثم طرح شخص آخر ، سؤالاً اضافياً ان صاحب السؤال هو الدكتور « سوكه » الطبيب الشرعي . ويبدو هذا التأخير غير انساني ، ولكن ، يجب احترام القانون تمشياً مع المادة (٢٧) من قانون الجزاء .

ـ مارغريتا زل . . هل أنت حبلى ؟في هذه الحال ، لن يتم تنفيذ العقوبة إلا بعد الولادة وظلت ماتا هاري تتكلم بنبرة الاحتقار والاستعلاء .

ـ آه ، كلا . . بالتأكيد . . كلا .

ماتا هاري . . في الطريق . . نحو ساحة الاعدام

ارتج الموكب اتكأت ماتا هاري على ذراع الأخت ليونيد .

ـ سافرت كثيراً ياأختاه ، حسناً . . هذه المرة . . سيكون سفري الأخير . اني راحلة إلى المحطة الكبرى . . ولكني لن أعود . . هيا كوني مثلي شجاعة . . لا تبكي .

وصلت فرقة عسكرية صغيرة ، الى باب السجن . . للقيام بالعمل الشكلي المتعلق برفع قفل الباب . طلبت ماتا هاري السماح كي تكتب ثلاث رسائل : الرسالة الأولى ، موجهة الى ابنتها ، والثانية تخص حبيبها الكابتن ماسلوف ، والثالثة ، تخاطب موظفاً كبيراً في الدولة الفرنسية . وسلمت الرسائل الثلاث الى صديقها المحامي

الاستاذ كلونه .

وبسرعة ، دفع رجال الدرك المحكوم عليها . نحو عربة المساجين . . التي انطلقت بدورها في الحال . كانت ماتا هاري جالسة بين القس داربو والأخت ليونيد . قالت لها الراهبة :

ـ يجب التحرر من أي شعور يتسم بالحقد . . قبل المثول أمام الاله . تقبض وجهها وقالت :

ـ رغم ذلك . . لاأستطيع أن أسامح الفرنسيين .

ترددت ماتا هاري قليلاً ، ثم قالت بصوت خافت :

ـ مادمت تطلبين ذلك . . إني أسامح . .

توقفت فجأة عربة المساجين . . وصلوا أخيراً قرب ساحة الاعدام المضلعة الشكل . . وتقع في منطقة فانسين . ان منظر الساحة مخيف حقاً : هنا ، يقف جنديان بالزي الأزرق ، أمام تلة من التراب . . أشبه بخندق العساكر . . .

تقدمت ماتا هاري ببطء . .وقد نحلت واستحالت هيكلاً جثياً . . وقفت عند عمود الاعدام وخاطبت الراهبة :

ـ قبليني بسرعة ودعيني لوحدي . قفي عند جهة اليمين . سأنظر إليك . . وداعاً :

رفضت وضع العصابة على عينيها ، حاول الضباط ربطها على العمود . . فاعترضت . عندها ، أحاط حزامها بالحبل ، دون أن يعقده . بينها شرع ضابط آخر ، بتلاوة الحكم بالاعدام . وقف الجنود بعيداً عنها . . مسافة عشرة أمتار . نظرت الى الأخت ليونيد وابتسمت وحركت رأسها قليلاً علامة تحية . عندها ، وجه الضابط الطالب ، سيفه أرضاً ، وهو أمر فصيلة . . دون طلقة نارية واحدة فقط . بعدها . . دوى النفير وبدأ عرض تقديم السلاح ، لعدة فرق عسكرية .

ـ مصير الجثة ـ

لم يطالب أحد بالجثة . .وبعد اجراء دفن وهمي ، سلمت الجثة الى كلية الطب لتشريحها .

هل استحقت ماتا هاري هذا المصير المأساوي المريع ؟

كثيرون يعتقدون في وقتنا الحاضر ، بأن قرار الاتهام ظالم حقاً . عادة لا يتم اعدام امرأة رمياً بالرصاص إلا نادراً جداً . ان شجاعتها الفائقة ألهبت مشاعر الناس

وجعلتهم يعطفون على قضيتها وتناسوا بأنها جاسوسة عدوة .

في الواقع ، لم تنسجم ماتا هاري مع متطلبات الحرب . لم تستطع فهم واستيعاب هذا الاختراع الجهنمي الذي يتفاخر به الرجال ألا وهو الاسلوب القتالي الدموي المريع . . حيث يتحول العبث الى تقشف وتصبح الحدود غير سالكة ، مسدودة بين العواصم قاطبة . . وتنشب المعارك الوحشية بين شبان . . في مقتبل الأعمار وتنهمر الدماء مدراراً .

ان وطنها الأم حيادي ، وهو اقرب إلى المانيا منه إلى فرنسا . .من الناحية الشعورية على الأقل . ادركت ماتا هاري شيئاً واحداً خلال هذا الحرب الطاحنة : انها تمنعها عن كسب لقمة العيش . احتاجت إلى المال . . أحبت للمرة الأولى في حياتها الضابط ماسلوف . . حتى الجنون . لذا ، فعلت المستحيل كي تحصل على المال لتضمن سعادتها مع فارس أحلامها . كانت مستعدة أن تقبضه من المزايد الأعلى . لم تهدف في الواقع ، الاساءة الى أي شعب . . بل شاء القدر أن يكون المزايد الأعلى هو المعسكر الالماني . لذلك . . لاقت حتفها . . على أيدي عدوه اللدود ألا وهو الجيش الفرنسي . ربما استحقت العفو . . من الناحية الانسانية . انما ، من يتتبع أحداث عام ١٩١٧ الدموية ، يتضح له بأن الحكم القضائي الصادر عن المجلس الحربي الفرنسي ، واجب وضروري ، لسلامة الأمة . . تمشياً مع أحكام القانون العسكري المطلق .

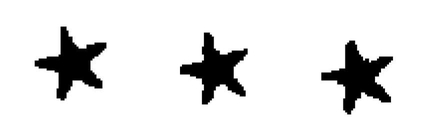
شأنها شأن الضابط اليهودي ألفرد دريفوس الذي أدين بتهمة ارتكاب الخيانة العظمى لكنه لم يعدم رمياً بالرصاص لعدم وجود ألة ثبوتية حاسمة . . في هذا المضمار .

أما ماتا هاري ، فقد وجدت نفسها أمام طريق مسدود ، عندما وجهت اليها تهمة التجسس لمصلحة العدو ، استناداً الى البرقية اللاسلكية وإلى الشيك الذي استلمته تحت رقم مرموز : (هـ ٢١) باختصار : لقد وقعت في الفخ الذي نصبه لها بدهاء وبراعة رئيس المكتب الثاني الفرنسي الكابتن لادو .

أدت ماتا هاري أدوارها الفنية على خشبة المسرح ، بمهارة ابداعية . . حتى درجة العبقرية ولكن فات الناس بأنها عرفت سر الابداع الفني يوم اكتشفت جوهر الحب الصاعق منذ النظرة الأولى ، مع الضابط ماسلوف .

بفضل هذا الحب المتوهج . تكشفت أمامها أسرار الفن الساحر ونالت النجاحات المتتالية في جميع أرجاء العالم . . وظل الحزن يمزق قلبها المعذب ويرهقه حتى النبضة الأخيرة .

ولا عجب أن أدت أدوارها تماماً كالطير وهو يرقص مذبوحاً من الألم .



الدوق والنساء

قضية الدوق تيوبالد.

جريمة عاطفية مريعة

١٨ آب ١٨٤٧ م ـ دراما عاطفية ـ حورية قصر « دوفوه » تتحول إلى أشلاء مبعثرة . . إذ تمزقها بوحشية . . طعنات خنجر عاشق مجنون .

دخلت الملكية مرحلة الاحتضار . منذ بداية عام ١٨٤٧ ، أخذت الاضطرابات تعم جميع الطبقات الاجتماعية وازدادت خصومة الشعب حدة وحقداً ضد بورجوازية الملك لويس فيليب .

بالاضافة إلى هذا الاستياء الشعبي ، هناك دلائل أخرى ، تثير القلق . إذ أصيب النظام الملكي بالانحلال الداخلي . . فأخذت الفضائح تتوالى ، الواحدة تلو الأخرى .

منذ اشهر معدودة ، انتحر مارتان دونور بعد اتهامه رسمياً في قضية أخلاقية ، وكان يشغل منصب وزير العدل . وفي شهر تموز عام ١٨٤٧ ، استدعت محكمة القضاء الأعلى (التي تمثل مجلس النبلاء) ، وزير الأشغال العامة ويدعى تست والجنرال كوبيير ، وحكمت عليهما بتهمة الفساد والرشوة . أجل ، منذ ذلك الحين بدأت الملكية تحتضر .

خلال المحاكمة ، اعتلى المنبر فيكتور هوغو الشاب ، وقد حاز وقتذاك على لقب شريف فرنسا وتكلم بشأن هذه الفضيحة ، باعتدال وتعقل ، بينما انتصب واقفاً خطيب آخر وتهجم على المتهمين المذكورين ، بعبارات قاسية متصلبة ، طالباً من هيئة المحكمة انزال أقسى العقوبة ، دون رحمة أو شفقة ، ثم أضاف قائلاً :

ـ أيها السادة ، كلما كان المركز الذي يشغله الشخص رفيعاً ، كلما جاز مقايضته بقساوة ملائمة لهذا المستوى . . عندما يقصر بواجباته ، يستحق العقوبة المناسبة فوراً ودون تلكؤ . وما الخطيب الثائر سوى أحد أشراف فرنسا : « شارل هوغ تيوبالد ، دوق دوشوازول برالان » .

ياللغرابة ، إن نفس هذا الرجل الذي يخطب باطناب وبانفعال أما مجلس الأشراف ، سوف يكون هو بدوره ، متهماً ، بعد شهر تقريباً ، في حرم هذه المحكمة بالذات ، وسوف تجرى محاكمته استناداً إلى مرافعة استنان[1] غريبة حقاً ، فريدة من نوعها ، قروسطية[2] ، مأتمية الطابع ، إذ سوف يصدر قرار الاتهام ، بعد موته .

ينتمي تيوبالد دوشوازول برالان ، إلى أقدم عائلات فرنسا ، وهي عائلة شوازول ، وزير الملك لويس الخامس عشر ، ينتسب أيضاً إلى جد آخر ، الذي ترك أثراً باقياً في التاريخ ، بفضل أحد طباخيه الذي اخترع ملبس اللوز . نسي الناس اسم الطباخ ، ليحل محله اسم الدوق . انه الظلم بعينه . ما العمل . هذه هي سنة الحياة .

لم تقتصر عائلة شوازول برالان العريقة ، على انجاب العباقرة في السياسة وفي فن الطهي بل شملت أيضاً الأشخاص الأقل موهبة وابداعاً . نذكر من بينهم « تيوبالد » ، الذي ولد عام ١٨٠٥ ، في الواقع ، فهو رجل عادي جداً ، إذ لا يتحلى بأية ميزة خاصة ، من الناحية الجسدية أو الأخلاقية . لا بد لنا في هذا المجال ، ذكر وصف فكتور هوغو ، المتعلق به « إنه ذو فم شنيع ، وذو ابتسامة منفرة ومصطنعة ، أشقر البشرة ، شاحب اللون ، ممتقع الوجه ، انكليزي السمات . فليس بالسمين ولا بالنحيل . يداه غليظتان وقبيحتان . ولايوجد أحد في سلالته من يملك مثل هذين اليدين . يبدو دائماً كان يود أن يقول شيئاً لا يتفوه به » .

أجل ، ان وصف الأديب العالمي فكتور هوغو ، دقيق للغاية . بالفعل ، هناك ناحية مميزة جداً لدى « تيوبالد » متعلقة بيديه . ان هذه الارستقراطي المرهف الحساسية ، الذي يتصرف بين الناس بلباقة ، إنما يملك يدين غليظتين جداً ومكسوتين بالشعر . انه لمظهر مخيف حقاً . . فهما أشبه بيدي قاتل .

عام ١٨٢٤ الزواج من فتاة رائعة الجمال : « فاني سيباستياني » . .

ـ هل أخلص في حبه لهذه الزوجة الصالحة التي اختارها لنفسه ؟

ـ هل كان هذا الاختيار منزهاً عن أية مصلحة شخصية ؟

ماكان يهمها شيء في الدنيا سوى أن تراه سعيداً في حياته .

للأسف ، لقد أحبته وهو لا يعلم بحبها . جل همه ، هو ابتزاز أموالها لتأمين نفقات القصر الفاحشة . . تعاشرا كالغرباء . . وانتهت العشرة الزوجية الشاذة . . بوصمة

---

(١) مرافعة استنان أي طريقة المحاكمة .

(٢) قروسطي أي متعلق بالقرون الوسطى .

عار ملطخة بالدم . . لأجل عشيقة فاتنة . . في ريعان الصبا : هنرييت دلوزي .

في شهر اكتوبر عام ١٨٢٤ ، تزوج الدوق شارل هوغ تيوبالد . إن الزوجة السعيدة هي ابنة المارشال . وتدعى فاني سيباستيان ، إن عائلتها أقل نفوذاً من عائلة الدوق تيوبالد لكنها أكثر غنى . في الواقع ، إن الفتاة العاشقة « فاني » هي التي فعلت المستحيل كي تظفر بقلب فارس أحلامها . إن غايتها القصوى هي الحصول على لقب دوقة دوشوازول وسيدة قصر دوفوه ، فلم تجد صعوبة لتحقيق رغبتها المنشودة .

تملك « فاني » المؤهلات العديدة ، لاحراز النجاح المطلوب ، تتميز بجمال مدهش ، طبيعي ومتوحش في آن واحد ، انها نموذج الفتاة الكورسيكية ، في نضارتها وكبريائها في البداية ، اتخذت الحياة الزوجية ، سيراً عادياً ومقبولاً . كان سخياً جداً في مشاركة زوجته الصبية ، لانجاب الأولاد وبعدد وافر . لقد أنجبت له عشرة أطفال . فمات منهم طفل واحد .

لكن هذه الانجاب المتواصل والمرهق ، جعل منها امرأة ذابلة وبدينة . وازدادت حالة البدانة سوءاً مع مر الأيام . . مع أنها لم تزل في الثلاثين من العمر . لم يعد يلاطفها أو يبادرها بأية كلمة حلوة . أخذ يبتعد عنها تدريجياً . بدأ الأمر بالاهمال ثم انتهى بالقطيعة . أما هي للأسف . فلم يتبدل شعورها ازاءه . انها عاشقة زوجها . ان مزاجها المتوسطي[1] يفرض عليها شهوانية ملحة ، بصورة مميزة . كانت على الدوام تطالب به انها تريده لها . . لوحدها ، ولن تتراجع عن قرارها ، مهما جابهتها المصاعب وعاكستها الأهواء .

في عام ١٨٣٧ ، أي بعد زواج دام ثلاث عشرة سنة ، وقع حادث مشؤوم . وهل يعود ذلك إلى الرقم المفرد الذي ينبىء بالشر ؟

لقد طفح الكيل بالنسبة للدوق تيوبالد . . لم تتوقف المنازعات والمشاحنات اليومية بينه وبين زوجته اليائسة المضطربة . . بل ازدادت ضراوة . . بات عاجزاً عن تلبية متطلباتها العديدة . لقد صمم على قطع العلاقة الزوجية ، بأي شكل من الأشكال .

قصد والده الدوق العجوز وحدثه عن رغبته في الطلاق . أجاب الوالد معترضاً :

ـ القصر ، وهل نسيت القصر ؟ قبل القيام بأية حماقة ، فكر في القصر .

هذا صحيح : ان « قصر دوفوه » مفخرة العائلة انما يكلف المبالغ الطائلة لتأمين حاجاته المختلفة . في الواقع ، ان الزوجة فاني قادرة على الاحتفاظ به وابعاده عن شبح

(١) نسبة الى البحر المتوسط .

الافلاس . لقد أذعن « تيوبالد » للأمر الواقع . بالفعل ، لا يوجد حل آخر . فما باليد حيلة . عندها ، حاول أن يعاشر امرأة أخرى ، كعشيقة له . لكن محاولته باءت بالفشل فهو ليس بالرجل الغاوي ولا يتميز بالجرأة ، لكنه معقد ، خجول ، ساذج وأحمق . إن « فاني » هي المرأة الأولى والوحيدة التي استطاع أن يوقعها في حبائله . بمقدوره أن يؤجج غيرة « فاني » وأن يتحول إلى رجل ساخط . . لاأكثر ولاأقل . نظراً لشخصيته المعقدة ، هل بوسعه القيام بعمل أفضل ؟

من الآن فصاعداً ، لم تعد الحياة الزوجية سوى واجهة خادعة ، بحيث يضطران إلى الاحتفاظ بها ، تمشياً مع تقاليد المجتمع . كان يقضي « تيوبالد » الأسابيع العديدة ، وحيداً ، منفرداً في قصر دوفوه ، بينما تقضي « فاني » أيامها المضجرة ، في فندق سيباستيان في باريس الواقع في شارع « فوبور سانت هونوره » رقم ٥٥ ، قرب قصر الاليزه الشهير .

لبثت الزوجة المسكينة ، في الفندق الباريسي الجميل ، تعاني في عزلتها ، اليأس والملل . انها تحب دوق « تيوبالد » ولاتحب سواه . . ولم تتوقف يوماً عن كتابة الرسائل المتوسلة والمحمومة . انها والحق يقال ، مراسلة مؤثرة للغاية ومشجية[1] . انها أشبه بتوسلات الحيوان الجريح « عد من جديد إلى حبيبتك » « فاني » ، خذها فهي لك . . حاول أن تجربها بعض الوقت ، بعطف وحنان ، سوف تكون سعيداً . . حتماً » .

في عام ١٨٤١ ، حصل تغيير جذري ، داخل القصر لم تنجح المربية في مهمتها ، فاضطرت سيدة القصر إلى الاستغناء عنها . لم يمض وقت طويل ، حتى أرسل أحد الأصدقاء ، مربية أخرى ، بناء على طلب الزوجين .

دخلت الفتاة الصبية القصر . استقبلها الدوق تيوبالد . . وتدعى هنرييت دولوزي . انها في السادسة والعشرين من عمرها . شعرها أشقر ، أنفها خانس جميل ، ممتلئة الجسم ولكن باعتدال ، تماماً مثل « فاني » أيام ريعان الصبا . باختصار ، انها فتاة حلوة جذابة . بالاضافة إلى ذلك ، انها مثقفة وتحمل شهادات عالية ، بهذا ، لم يتردد تيوبالد تسليمها الوظيفة المرجوة . . وفعل ذلك فوراً ، دون استشارة زوجته . وفي اليوم التالي التقت المرأتان . في الحال ، بدت علائم الكراهية والنفور واضحة على محيا كل واحدة منهما . الأولى ، اعتبرت الثانية عدوة لها ، والثانية اعتبرت الأولى منافسة لها .

---

(١) محركة للشفقة .

انما ، لم تنحصر الأمور ضمن هذه الدائرة من الاعتبارات . في هذه الأثناء ، يخرج تيوبالد ورقة مطوية من جيبه ، يفضها ويعلن برباطة جأش :

ـ حضرت نظاماً معيناً ، للآنسة دلوزي . اسمحا لي بتلاوته . من الآن فصاعداً ، تستغني السيدة دوبرالان » عن خدماتها كمربية للأولاد . لن تراهم لوحدها . لن تدخل غرفة أي واحد منهم إلا برفقة المربية .

أدهش « فاني » كلام زوجها . . فأصيبت بالذهول . حاولت أن تحتج . .ولكن بلا فائدة فاتضح لها من خلال نبرته الجافة ، بأنه لن يتراجع عن قراره . . بأي شكل من الأشكال .

التفت الدوق إلى زوجته وتابع قائلاً :

ـ ياصديقتي العزيزة ، إن أعصابك مريضة . إن تصرفاتك المزاجية[1] وحالات الغضب المتكررة ، لهي مفسدة وضارة جداً ، بالنسبة لهذه المخلوقات اليافعة . لحسن حظك فلن تشرفي من الآن فصاعداً ، إلا على تربية نفسك . ستكون الآنسة « دلوزي » المسئولة الوحيدة عن تربية الأولاد .

هكذا تكلم صاحب القصر . . ولم يعد هناك أي مجال للأعتراض . أذعنت « فاني » للأمر الواقع ، أما الآنسة « دلوزي » فحاولت القيام بالمهمة الموكولة اليها ، على أكمل وجه . بالفعل ، لقد أحرزت نجاحاً باهراًفي هذه المضمار . انها نشيطة ولطيفة المشعر ، وتتقن اصول التربية أيما اتقان . فرضت نفسها على أهل القصر ، بفضل شخصيتها الناجحة ، فأحبها الأولاد جميعاً . انهم ست فتيات وثلاثة صبيان ، وتتراوح أعمارهم بين سنة وخمس عشرة سنة . ومع مرور الوقت ، نسي الأولاد أمهم ، وتعلقوا بمربيتهم اللطيفة الحلوة ، الآنسة دولوزي ومنحوها لقباً مؤنساً : « أزل » .

اعتقد البعض ، بأن الدوق هو عشيق « أزل » وهذا عين الخطأ . انه مسرور فقط بمجرد وجودها في قصره . فكان يناديها شأن أولاده « باسم أزل » . . وكان يكتفي بالتحدث اليها وكان مثل أي زوج ضعيف الشخصية وخجول ، يتحدث دائماً عن زوجته : « فهي غير قادرة على ادراك مشاعري الحقيقية . في بداية الزواج ، جرت الأمور على أحسن ما يرام . . أما الآن . . الخ » .

أما « أزل » فكانت تبتسم فقط . . فلا تتفوه بكلمة . كانت تتسمع لكلامه .

---

(١) كان مزاجها يصاب بتغيراء مفاجئة .

ما عليها سوى التريث والانتظار . ان رياح الزمن تجري بما تشتهي سفينتها . . بينما أخذ الوضع العائلي يتدهور تدريجياً . من سيءً إلى أسوأ . وبدت علائم العذاب والقهر واضحة على محيا « فاني » الشاحب ، أشبه بوجه الميتة الخارجة من الضريح . اصبحت الآن منعزلة تماماً عن جميع أفراد العائلة . لم يبتعد عنها الزوج فقط ، بل الأولاد أيضاً . هكذا . . أخذت الآنسة دلوزي ، تتصرف على هواها . اصبحت متعجرفة . فكانت المرأة الأولى التي تقدم لها أطباق الطعام ، حول المائدة .كانت هي صاحبة الأمر والنهي . رغم ذلك ، ظلت فاني تأمل بطلوع فجر جديد ، على حياتها المظلمة الحالكة . كانت تعتقد في قرارة نفسها بأن « تيوبالد « عائد إليها . . لا محالة ، ذات يوم . كتبت له رسالة ملتهبة ـ إذ انعدم الحوار بينهما ـ « افعل أي شيء . . قم بأي رد فعل . . أرجوك ، اسمع كلام زوجتك التي تحبك . ان الآنسة دلوزي تحكم القصر بلا منازع . انها أغرب فضيحة شاهدتها في حياتي » .

ظل الدوق هادىء الأعصاب . . غير مكترث بهموم زوجته الساخطة المعذبة . كان يتلذذ في رؤية « فاني » وهي تتمزق حسداً وغيرة من المربية الصبية ، الآنسة دلوزي . ياله من وضع مبهم ، لا يطاق . . الذي افتعله بملء ارادته . حتى الآن ، لم تزل العلاقة عادية وبريئة بين « أزل » وصاحب القصر .ربما أراد أن يصارحها بحبه الدفين ، ولكنه لم يجروء على القيام بالخطوة الأولى . . كعاته . ودار الحديث بينهما عدة ساعات . . حول زوجته وحول حالته النفسية ومشاكله المختلفة الناتجة عن هذه العلاقة الزوجية المضطربة . كالعادة كانت أزل تتسمع لكلامه باهتمام بالغ ، والابتسامة الرقيقة لا تفارق شفتيها .

في هذه الفترة العصيبة بالذات ، حلت هدنة مفاجئة بين الطرفين المتخاصمين : لقد مات والده العجوز ، الدوق شوازول برالان . عندها ، أصبح تيوبالد الدوق الشرعي بعد موت والده .ونال المذلك لقب « شريف فرنسا » لقد بلغت الآن عنجهيته ذروتها . انها المرحلة الاجتماعية المزدهرة ، بالنسبة له . ولا عجب أن أهمل في هذه الظروف المشرقة ، مربية أولاده ، الآنسة دلوزي . أما « فاني » فكانت في غاية السرور والبهجة لم لا ؟ هاك الزوج الظافر باللقب الرفيع ، يتنقل من صالون إلى صالون في مدينة باريس الحالمة ، متأبطاً ذراع زوجته الكورسيكية ، الدوقة « فاني » انما حصل مثل هذا الوفاق الفجائي ، بناء على رغبة المجتمع الفرنسي فقط . . وليس هناك أي تعليل

سواه .

إنما هذا الاتحاد المصطنع الذي فرضته عليهما ، الحفلات الليلية الراقصة والاستقبالات العديدة . . لم يدم طويلاً . وبعد انقضاء العيد ، وجد الدوق نفسه ، وجهاً لوجه أمام زوجته والمربية أزل . وفي هذه الفترة بالذات ، أخذت الألسنة تلوك قصة الدوق الغرامية . فكان أمر المربية مجهولاً وقتذاك . انما ، بدأت الاشاعة تنتشر يوماً بعد يوم . هكذا مع مر الزمن ، تحولت الثرثرة إلى استنكار عام . . لتنتهي فيما بعد بفضيحة . . وأية فضيحة .

صبرت الدوقة طويلاً . . لقد طفح الكيل . لا يمكنها السكوت عن هذا التصرف الشاذ . لقد قاست الأمرين ، لا بد لها منَ القيام بعمل ما . على الفور ، استدعت والدها إلى القصر ، المارشال سيباستياني . فكان اللقاء عاصفاً بين الدوق والجندي العجوز . قال له بنبرته العسكرية المعهودة :

- اعلم أيها السيد ، ان احترام الزوجة هي فريضة الزوج الأولى .

استمرت المناقشة بين المارشال والصهر ، عدة ساعات ، انما ظل تيوبالد متمسكاً برأيه الأول : لن يتخلى عن الآنسة دلوزي .

ظلت فاني متفائلة ، رغم هذا العناد المتواصل . تابعت مساعيها الحميدة . استدعت ابني الملك وهما دوق دورليان والدوق دونومور ، ويمثلان طبعاً ارادة السلطة الملكية .

لم يتراجع الدوق اطلاقاً . عندها ، اتجهت الزوجة الملتاعة ، إلى رجال الاكليروس توسلت إلى معرفها كي يناقش الموضوع مع الدوق . إن الكاهن المعرف ، رجل قديس وتيوبالد متمسك بأصول الدين . برأيها ، انها أفضل طريقة لاقناعه ، وتبديل موقفه المتصلب ازاء المربية الحلوة « أزل » . ولكن ، انتهى اللقاء بينهما . . كأن شيئاً لم يكن . لن يعدل عن رأيه : سوف يحتفظ بأزل .

لم يبق أمام الزوجة اليائسة سوى حل واحد : كاتب العدل . . لم تنجح وساطات الوالد المارشال وابني الملك والكاهن المعرف . . الآن ، اتخذ الصراع صفته الرسمية الدرامية .

والأستاذ « ريان » هو رجل لطيف المعشر ، قصير القامة ، متواضع للغاية . قال للدوق بنبرة هادئة :

ـ ياسيدي الدوق ، يجب صرف الآنسة دلوزي من الخدمة والا لزم عليك الانفصال عن أليفتك التي تحمل اسمك باستحقاق . لا يمكن أن تستمر هذه الحالة طويلاً ، وبالتالي ، لن يقبل المارشال سيباستياني ولا الدوقة ، في هذه الأحوال ، تأمين هذه النفقات الباهظة التي تتطلبها اعالة قصر « دوفوه » .

بدأ الدوق يتلعثم في الكلام . طلب من كاتب العدل ، مهلة . رفض الأستاذ ريان . لا مجال لأية مهلة . عندها ، أذعن للأمر الواقع . وصرف المربية من الخدمة . انتصرت الدوقة .

غادرت المربية القصر وعادت تمارس مهنتها كمعلمة في مدرسة داخلية للبنات ، في باريس . بعد انصرافها ، ساد الاستياء والاحتجاج . بين الأولاد . . أما الدوق ، فقد انزوى في غرفته ، هكذا ، أصحبت الدوقة المتهمة الأولى ، منبوذة من جميع أهل القصر .

إنما ، لم تنقطع الصلات نهائياً بين أزل والدوق ، فأخذت تتوالى رسائلها المنتحبة والمخادعة ، الواحدة تلو الأخرى ، برأيها أنها ضحية أقاويل الناس وبالأخص الدوقة ، التي ظلمتها أشد الظلم . أما هو ، فلم يحاول الدفاع عن كرامتها ، بصورة ايجابية .

عندها ، تأججت نار الوجد والهيام في قلب هذا العاشق المحروم . لقد قرر اللحاق بها . . مهما كلفه الأمر . كذلك الأولاد ، يشتاقون اليها . ذات يوم ، زارها الدوق مع أولاده . كم كان فرحهم عظيماً ، عند هذا اللقاء السعيد . في هذه الأثناء ، ضرب الدوق موعداً للآنسة أزل في مكان خاص جداً أي داخل عربة جياد ، ومنذ اللحظة الأولى ، قالت له العاشقة المعذبة :

ـ لقد قررت الزواج . سوف أسافر إلى انكلترا كي أتزوج من أي شخص أصادفه هناك .

طبعاً ، هذا ادعاء كاذب . لكن الخطر المداهم والغيرة الفجائية ، جعلا منه رجلاً جسوراً بكل معنى الكلمة . وهنا ، داخل عربة الجياد ، حيث أسدلت الستائر ، حدث ما كان متوقعاً منذ زمن طويل : المضاجعة . الآن ، جاز القول بأن الدوق تيوبالد سيد قصر دوفوه ، أصبح فعلاً عشيق الآنسة هنرييت دلوزي .

باللغرابة ، كان الناس يعتقدون بأن هذه العلاقة الدرامية ، قد تمت قبلاً . منذ من بعيد .

ـ ١٨ آب ، عام ١٨٤٦ ،لايستطيع أحد أن يوقف القدر عن تنفيذ قراره :

ـ الجريمة ـ

كان الطقس حاراً جداً . . في شهر آب عام ١٨٤٧ ، هجرت عائلة « برالان » قصر دوفوه ، لقضاء العطلة في منطقة « دييب » . . بينما اتجه الدوق نحو باريس ، ليلتقي عشيقته الآنسة أزل ، التي تقيم في المدرسة الداخلية للبنات .
بعد ذلك ، قصد زوجته في فندق سيباستياني الفخم ، قرب قصر الاليزة .

أشرف نهار ١٧ آب على نهايته . . مع انتشار أشعة شمس الغروب الناعسة فوق أهداب محيا باريس الساحر .

مع طلوع الفجر ، حدثت في فرنسا أروع جريمة عاطفية عرفها القضاء الفرنسي عصر ذاك مع بزوغ أشعة الشمس دوت صرخات حادة من داخل غرفة الدوقة . على الفور ، هرع الخدم إلى مصدر الضوضاء . فجأة وقفوا جامدين .لقد هالهم ما رأوا ، ياهول الجريمة . انه مشهد مريع . . يكاد لا يوصف . لقد تحطمت جميع الأغراض ، وانقلبت قطع الأثاث ، رأساً على عقب وانتشرت على الجدران لطخات حمراء لزجة . .بينما انطرحت الدوقة على منضدة الزينة جثة هامدة . . سابحة في بركة من دم . لقد مزقت طلقات الرصاص ، جسدها البض . . شر تمزيق وفقدت جزءاً من رأسها تحت تأثير هذه الطلقات النارية الغزيرة المتتالية . يوجد على الأرضية قرب الجثة ، مسدس ملطخ بالدم ، إلى جانب شمعدان فضي حيث تكسوه أطراف من اللحم وخصلات شعر أشقر . وقد سقط من يديها كتاب ملطخ بالدم أيضاً ، بعنوان « الأشخاص المثاليون » . . ياللصدفة ويالسخرية القدر . هل استعمل المجرم المسدس والخنجر في آن واحد .

وما يثير الاشمئزاز حقاً ، هي الطريقة التي استعملها القاتل في ارتكاب هذه الجريمه النكراء . لقد وقعت الجريمة بالشكل التالي :

حاولت الدوقة في بداية الأمر مواجهة المعتدي بجميع الوسائل الممكنه وغير الممكنه فهناك بصمات دموية على الجدران وأغراض الغرفة المختلفة . وعدة أصابع مسوره بشكل تقشعر لها الأبدان . كما لو أنها حاولت القبض بيديها على حنجر القاتل .

هاك ماكتبه فكتور هوغو ، واصفاً هذا المشهد المريع :

« هذه الغرفة ، إنما تثير الرعب الشديد . نرى هنا ، بشكل نابض وحيوي ، معركة ومقاومة الدوقة . إن المرأة المسكينة ـ أشبه بحيوان قد وقع في الشرك ـ جابت غرفتها وهي تولول تحت ضربات قاتلها » .

وصل الطبيب عند الساعة الخامسة والنصف . . بينما كانت الدوقة تعاني سكرات الموت ارتمى تيوبالد على جسدها صارخاً :

ـ ماذا سيحل بنا . ماذا سيحل بأولادي المساكين ؟ إنما يبدو للوهلة الأولى ، بأنه ندب مصطنع . هل هذا انطباع خادع ؟ لا أظن .

بعد نصف ساعة ، حضرت الشرطة وعلى رأسها مفوض منطقة « رول » ومفوض منطقة « شانزليزه » والمدعي العام « دولانج » ومفتش الشركة « آلار » . أخيراً ، تمالك الدوق أعصابه . فكان يجيب بعجرية عن أسئلة المحققين :

ـ بالنسبة لي ، لايتعلق الأمر سوى بجريمة للسرقة .

لكن المفتش آلار ، هز رأسه علامة النفي . خطرت في باله فكرة معينة . التفت إلى الدوق وحدق بعينيه جيداً :

ـ كما ترى ياسيد الدوق . . لدي خبرة في هذا المضمار : إن مرتكب الجريمة ، رجل ذو مركز اجتماعي مرموق . .

بعد دقائق معدودة ، انتهى التحقيق : تم اغلاق جميع النوافذ لم يعد بمقدور أحد ، القدوم من الخارج . في المقابل ، رفع مزلاج الباب الذي يفصل شقق الدوقة عن شقق الدوق توجد على الدرب المؤدي إلى غرفة الزوج لطخات من الدم . ما تزال توجد في غرفتها بقايا الرماد المدخن الناتجة عن قطع من القماش المحترق .

عندئذ ، تبدل موقف رجال الشرطة . بدأوا بالتفتيش الدقيق والكامل . فتشوا جميع قطع الموبيليا وجميع الجوارير . في هذه الأثناء ، كان الدوق يستشيط غيظاً ويصرخ معترضاً رغم ذلك ، طلبت منه الشرطة بالحاح التعري الفوري . بعد تعريته ، لوحظ بأن لباسه الداخلي ملطخ بالدم .

والمعلوم أن الدوق شخصية هامة جداً ، بحيث لا يجرؤ مفتش الشرطة القبض عليه إلا بعد الحصول على أوامر من الملك بالذات ، وحتى صدور قرار آخر ، صمم المفتش على الاحتفاظ به مؤقتاً ، داخل غرفته ، ثم وقف شرطيان أمام الباب للحراسة .

في الخارج ، انتشر الخبر في جميع أرجاء مدينة باريس . لم يشفق أحد على مصيبته .

في البداية ، أخذ الناس يتمازحون . . واخترعوا بمناسبة هذا الحدث المريع لفظة جديدة : « لبس » الدوق زوجته[1] . إنما ، رويداً ، رويداً ، ازدادت الوشوشة انتشاراً وتحولت إلى زئير . وتدفقت الفضيحة على العرش .

في أوساط الحكومة ، ساد ذهول تام . جاز أن تزعزع هذه الفضيحة النظام بذاته ، وأن تقضي عليه . لذلك ، طرح المسؤولون على أنفسهم السؤال التالي :

« ماالعمل الآن ؟ يجب محاكمة الدوق ، فهو مرتكب جريمة فظيعة . بلا شك ، سوف يرسل إلى المقصلة . . ولكن يجب ألا ننسى بأنه حائز على لقب « شريف فرنسا » وبالتالي فهو صديق للملك .

في هذه الأثناء ، توافدت الجماهير بأعداد كبيرة ، إلى فندق سيباستياني ، طالبة الحكم بالاعدام للمتهم . إنما ، لم يكن هذا التصرف سوى ضرب من التبرير السياسي . إذ تعالت بعد لحظات صراخات عدائية وتحريضية :

ـ الموت للنبلاء ، الموت للاقطاعيين الأشراف ، الموت للملك لويس فيليب .

في ١٨ آب ، أي في اليوم التالي ، بقي الدوق حبيس غرفته وبقي الشرطيان يحرسان الباب ، في الخارج . عند الساعة العاشرة مساء ، دوت صرخات حادة . هرع الشرطيان إلى الغرفة . وقع بصرهما على الدوق . انه شاحب اللون ، بدأ يتقيأ ثم عقد لسانه . لم يعد قادراً على التفوه بكلمة واحدة .

على الفور ، استدعي الطبيب . فلم يساوره القلق على صحة المريض ، إذ قال مطمئناً :

ـ بلا شك انها وعكة صحية عابرة ، ناتجة عن انفعال عاطفي .

انما تفاقمت حالة الدوق ، في اليوم التالي . أصبحت حالات التقيؤ أكثر حدة ، مصحوبة بحالات من الاغماء[2] . عندها ، استدعي الطبيب مرة أخرى . لكنه شعر هذه المرة بالقلق الشديد على صحة المريض . استبعد فكرة التسمم ونسب هذه الأعراض إلى داء الكوليرا . . (والمعلوم أنها تشبه أعراض التسمم) . على كل حال ، لا يسع الطبيب إلا وصف الأدوية المسكنة غير الناجعة . . إذ كان علم الطب عصر ذاك ، غير قادر على وضع حد لهذا الوباء .

بعد ثلاثة أيام ، أي في ٢١ آب ، قرر مجلس الأشراف (صاحب السلطة

(١) أي جعلها قطعة من ملبس اللوز .
(٢) أو الغثيان .

الفعلية) ، القبض على الدوق «دو شوازول برالان» ونقل في عربة . . بينما رافقته مجموعة مكونة من أربعين شرطياً لحمايته من غضب الجماهير الثائرة واجتازت العربة مدينة باريس . . إنما لم يخطر في بال الشعب الفرنسي بأن المعتقل الحالي ما هو إلا رجل محتضر . . إنه يعاني الآن سكرات الموت . . داخل العربة بالذات وهي تجتاز العاصمة المائجة الهائجة . أخذ الشعب يهتف غاضباً ، ويزمجر مهدداً مردداً :

ـ لم يمت الدوق مسموماً ، إنه ما زال حياً يرزق . فهو الآن في أمان لقد سافر إلى الخارج وساد الاعتقاد بأن تبرئته حتمية . . لأن أغلبية مجلس الأشراف ، مكونة من النبلاء . .

في قصر لوكسمبورغ ، حاول الدوق باكييه وهو رئيس المجلس ، استجواب الدوق المحتضر . لكن تيوبالد آثر الصمت :

ـ وأخيراً ، هل تجرؤ على القول جازماً ، بأنك لم ترتكب هذه الجريمة ؟

ـ لاأستطيع الاجابة عن هذا السؤال .

انتهى الأمر . توقف التحقيق عند هذا الحد من المعلومات . وفي ٢٤ آب ، فارق الدوق الحياة . . حصلت الوفاة عند الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة فجراً . . عند الفجر أيضاً . . ودعت الدوقة الدنيا ولكن مضرجة بدماء الجريمة النكراء .

لكن الصحافة الفرنسية ، ظلت تلاحق الدوق حتى بعد مماته . هاك ما قالته جريدة « الديمقراطية المسالمة » .

« ترسل المحكمة البؤساء إلى المقصلة ، بينما الدوق وأحد أشراف فرنسا يعذب زوجته الفاضلة لمدة ربع ساعة ثم يذبحها . . وتبرئه المحكمة لأنه ابتلع قارورة صغيرة من السم » .

وتقول جريدة « العصر » (وهي جريدة رزينة ومعتدلة) ، بنبرة مقذعة ، شأن سائر الصحف وقتذاك : « لو كان الأمر متعلقاً بفلاح ، بعامل أو بمواطن بورجوازي بسيط ، لاتخذت السلطات الاحتياطات اللازمة لمنع المجرم عن الفرار بواسطة الانتحار ، من عقاب الشعب »[1]

بلغ الانفعال ذروته ، يجب القيام بعمل ما . .في سبيل تهدئة الخواطر وتخفيف هياج الرأي العام ، وبالتالي ، في سبيل انقاذ النظام الملكي من الهلاك . لذا ، قرر مجلس الأشراف عقد اجتماع . . رغم موت الدوق ودفنه تحت التراب ، لا يهم ، المهم

(١) أو بوجه التحديد : من عقاب المجرم باسم الجماعة أي باسم الرأي العام الذي مثله أصلاً الشعب .

هو برهنة الفكرة التالية : ولن تغتفر له الدولة ذنبه .

في ٣٠ آب ، عام ١٨٤٧ ، عقد مجلس الأشراف جلسة غير معقولة ومحالة ، وأقر بأدانة الدوق دو شوازول برالان . . وما دام المتهم ميتاً ، وجد الرئيس نفسه مضطراً إلى اعتبار الدعوى المختصة بالرأي العام ، هامدة .

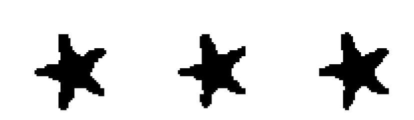
ثم ألقي القبض على عشيقته ، هنرييت دلوزي ، دام الاستجواب وقتاً طويلاً . بالطبع ، انها تتحمل المسئولية المعنوية بالنسبة لارتكاب الجريمة . إنما ، لم تعثر الشرطة على أي دليل خطي أو على شهادة بحيث تثبت على عمل تحريضي حقيقي لارتكاب الجريمة . عندها ، قرر القضاء اخلاء سبيلها .

قضت دلوزي بقية عمرها ، في جو باعث على التقوى . . إذ تزوجت في الولايات المتحدة القس التابع للكنيسة الكالفانية[1] وكرست حياتها للأعمال الخيرية . . ظلت تمارس مهنتها الانسانية هذه . . حتى الرمق الأخير .

أما الدوق « دو شوازول برالان » وزوجته الدوقة « فاني » فيرقدان معاً ، في داخل سرداب دفن العائلة ، في قصر « دوفوه » في فرنسا . . جنباً إلى جنب . . للأبد .

ـ الحاقة ـ

في حياته ، اعتزل الدوق زوجته الدوقة ، وفر منها إلى عشيقته أزل ، لكنه عاد إلى « فاني » المحرومة المعذبة ، ليرقد إلى جانبها . . رغم أنفه . . رقاد الأبدية . فوارحمتاه لها ، لتلك الآلام الطوال التي قاستها في ماضي حياتها . . ولكن هل يطل حب ربيعي جديد على أبواب الأبدية . . فتعانق روح أزل روح فارس أحلامها ، الذي أحبته حب العابد معبوده ؟



(١) الكالفانية وهو مذهب برتستانتي لا يعترف بسلطة الأساقفة . . بشر به الراهب الفرنسي كالفان .

الفاجعة

فجيعة ابن مزارع فقير: فرنسو أداميان.

مغتال الملك لويس الخامس عشر : كان تعذيبه الوحشي الصرعي نذير اشعال أفظع وأخطر ثورة شعبية في فرنسا . . وفي العالم .

هل كان « داميان » مغتالاً مجنوناً ؟ . . لولا الفقر والتشرد ، ما كان مجرماً ولا معتوهاً . . أصبحت الحياة ، بالنسبة له ، شبه مستحيلة . . ما ذنبه ان دفعه اليأس الملحاح ، إلى المغامرة حتى التهور والتمرد المتصلب ؟ ما ذنبه ان ظل طول حياته ، أسيراً لحرمانه ، يرجع اليه ويقيس به ؟ ان الانسان ابن بيئته . لقد عاش ابن المزارع في عصر محكمة التسلط الفردي الدكتاتوري . . وعن الدكتاتورية تنجم عادة مجتمعات من الفقراء المحرومين . ومتى جاوز الفقر حده ، تحول إلى جريمة .

ـ بداية الفجيعة ـ

قصر فرساي ، ٥ حزيران ، عام ١٧٥٧ . ان الساعة تقارب السادسة مساء . . وقد حان وقت المغيب . الطقس بارد جداً ، والأرض مكسوة بالثلج . أمام القصر ، تجمع جلساء الأمراء وهم يرتجفون برداً ، وكانوا يستعينون بكم معطف الفرو ، لتدفئة أيديهم .

انهم ينتظرون وصول الملك ، الذي قصد القصر ليزور ابنته المريضة . سوف يقل العربة الملكية للانتقال إلى « تريانون » ، حيث اتخذه البلاط مسكناً له ،منذ عدة أسابيع .

هاك الملك لويس الخامس عشر ، وهو يتقدم ، محاطاً بفريق من الخدم وهم يحملون المشاعل التي ترسل نوراً وهاجاً ، وسط هذا الظلام الدامس . تجري الأمور بسرعة خاطفة . رجل ، يشق صف الخدم ، يضع يده على كتف الملك ، وبكل قوته ، يضربه عند الجهة اليمنى ، ثم يختفي تحت جنح الظلام .

كانت الحركة سريعة للغاية ، بحيث لم يتحرك أحد . بسط الملك يده على صدره وتمتم مروعاً مذعوراً : « هذا الشخص السكير . وجه الي لطمة . . وهو يمر

بجانبي » . . ثم لاحظ بأنه ينزف دماً ، فأخذ يردد بصوت خافت : « اني جريح ، هذا . . النذل اقبضوا عليه . . ولكن لا تقتلوه » . .

غير أن هذا النذل ، بقي في مكانه . لم يهرب . ظل واقفاً هنا ، يتأمل المشهد بهدوء وسكينة لم يجدوا صعوبة ، للقبض عليه . عثروا في جيوبه على مدية ذات حدين وخمس وثلاثين لويسية ذهبية[1] . ولم يتردد في ذكر اسمه ، فور توجيه السؤال اليه : اني أدعى « روبر فرنسوا داميان » .

ساد الذهول والاستغراب ، قصر فرساي . عندما نقل الملك إلى غرفته ، راودته فكرة واحدة ونادى بكلمة واحدة : المعرف .

قبل كل شيء ، اعترف الملك للكاهن . . بعد ذلك ، بدأ الأطباء الجراحون بفحص جرحه . انه أشبه بخدش بسيط : لقد اخترقت شفرة المدية ، ما يقرب السنتيمتر الواحد ، الموضع القائم بين الضلع الرابع والخامس . بامكان الملك النهوض من فراشه فوراً ، بعد تضميد جراحه . . اذا شاء ذلك . بهذا المعنى ، يقول وزيره شوازول : « مثل هذا الجرح ، لا يمنع الشخص الذي يملك الحد الأدنى من الشجاعة ، عن النهوض من فراشه لتناول العشاء بشكل طبيعي ، وفي هذه الليلة بالذات . . »

انما ، لم تتوقف أحداث الميلودراما ، في غرفته . استدعى زوجته وابنه . لدى وصول الملكة ، صاح :

ـ لقد اغتالوني . . يا سيدتي .

وصرح علانية بأنه سيضع حداً لحياته الفاسقة ، أي لعلاقته الغرامية مع السيدة « دوبومبادور » ثم أخذ يوجه نصائحه وارشاداته إلى ولي العهد ، بنبرة الانسان المحتضر .

لازم الفراش عشرة أيام متواصلة . عندما أكد له أطباؤه بأنه تماثل للشفاء ، نسي مصيبته التي أدخلت الرعب إلى قلبه . في ١٥ حزيران ، انتقل صاحب الجلالة الى شقة السيدة دوبومبادور وهناك وقع على مرسوم ، بحيث ينقل بموجبه « فرنسوا داميان » إلى المحكمة العليا في باريس[1] ، لمحاكمته بتهمة محاولة قتل الملك .

بنجاح لقد حاول داميان اعادة عملية الاغتيال التي نفذها رافاياك ، أما هو فلم يوفق

---

(١) لويسية أي ليرة فرنسية ذهبية . وهي قطعة ذهبية بقيمة ٢٠ فرنكاً .

(١) وتدعى « البرلمان » قبل الثورة الفرنسية .

الا قليلاً . يناهز الثانية والأربعين من عمره . وهو ابن عائلة فقيرة مؤلفة من عشرة أولاد . فهو الولد الثامن . . ومن مواليد منطقة « أرتوا » الفرنسية . كان والده ، في بادىء الأمر ، مزارعاً ولكن لم يحالفه الحظ في هذا المضمار ، اذ لم يحسن تدبير أموره الزراعية ، فأصبح مزارعاً يومياً[٢] . . ثم استلم وظيفة حارس سجن .

أما الولد روبر ، فكان صعب المراس وكان مشاغباً ، لا يطاق . فكان أخوته يلقبونه بروبر الشيطان . واستعمل والده اسلوب العنف لتقويمه . فكان يعلقه من رجليه ويشبعه ضرباً . . انما ذهبت كل مجهوداته . . سدى .

فارقت أمه الحياة وهو لم يكد يسلخ السادسة عشرة من عمره . عندها ، أخذه عمه على عاتقه ، وحاول أن يقدم له الشيء القليل من التربية . للمرة الثانية ، ذهبت محاولات العم أدراج الرياح . جل ما اكتسبه ، هي القدرة على توقيع امضائه .

أخيراً ، تزوج داميان . مات بعض أولاده في سن الطفولة ، ثم فقد طفلة . لعدم توافر الأفضل ، مارس مهنة الخادم . لكنه لا يستقر في مكان . . اذ لا يبقى في عمله الجديد ، أكثر من أشهر معدودة . . يا له من شخص غريب الأطوار . فهو مؤمن متحمس ، ومتى تحدث عن أمور دينية انفعل بشدة حتى درجة الهذيان . إلى جانب ذلك ، فهو رجل سكير ، وغالباً ما تعتريه ، بعد جلسة سكر ، حالة عصبية ، مخيفة فعلاً . وبين عشية وضحاها ، يرحل ، تاركاً كل شيء ، دون أن يطالب بأجرة عمله . باختصار ، فهو ، برأي الأشخاص الذين عاشروه ، شبه مجنون .

أخذ يتنقل « داميان » من موضع إلى آخر حتى وصل في النهاية إلى باريس . شاءت الصدف أن يدخل في خدمة قضاة المحكمة العليا . هنا ، في هذا المكان ، التقى قدره ، وكان من الأفضل لو أنهى حياته ، في مصح عقلي .

كانت المحكمة العليا في باريس ، وقتذاك ، في خصام علني مع لويس الخامس عشر . وفي هذه الفنادق الخاصة التي يقيم فيها القضاة الباريسيون ، تجري عادة الأحاديث الانتقادية الموجهة ضد شخصية الملك . كان « داميان » يتسمع لهذا الكلام ، في الكواليس أو يتنصت وراء الباب فأثر في نفسه تأثيراً شديداً . وهل يشك في حسن نية وسلامة تفكير هؤلاء الأشخاص الكبار ؟ . فهل هذا معقول ؟ ان الملك سيء ومحاط بمستشارين أشرار . الملك يفعل الشر الملك هو الشر[١] .

(١) يهدف الكاتب في هذا النص الى ابراز الدور النفسي الأساسي للبيئة التي عايشها المغتال أي بيئة القضاة . . أي رجال القانون الذين يفقهون الحقيقة . . وبرأيه لا يمكن أن يتكلموا أو ينتقدوا جزافاً . . من هذه البيئة القضائية ، تلقى

هناك حدث درامي ، قد أثر عليه أيما تأثير : في منتصف الليل ، تم القبض على أحد سادته ، بناء على امر استبدادي . كانت تخطر في باله عبارة ، قد سمعها مرات عديدة خلال أحاديث الناس :

« سوف تتحسن الأحوال . اذا استطاع أحد أن يصيب الملك شخصياً . . » منذ تلك اللحظة ، أدرك حقيقة الأمر : يجب اصابة الملك شخصياً .

شهر أيلول ، ١٧٥٥ . لقد تفاقمت حالة داميان العقلية . انه يتكلم لوحده ساعات طويلة ، ويتنزه طيل الليل وفي جميع الأوقات . يعمل الآن خادماً عند امرأة غانية ، وهي مولعة بالطابع الفلكي . وخلال أوقات الفراغ ، كانت تقرأ خطوط يده وتقول له : « سوف تقطع أوصالك وأنت حي ، أو سوف تموت حرقاً » . هذه المرة ، لم يعد الشك يساوره . . اطلاقاً . حتى الكواكب تؤكد له ذلك : ان مهمته هي قتل الملك .

لكنه ، لم ينفذ فكرته في الحال . في شهر تموز عام ١٧٥٦ ، فر هارباً من دار سيده وقد سرق منه مبلغ مئتين وأربعين لويسة . لماذا ؟ هو بذاته ، لا يجد تبريراً لهذا العمل . ارتكب هذه الحماقة ، نتيجة لاندفاع لا يمكن ضبطه . لكنه عرض نفسه لخطر الموت . اذ ، في ذلك العصر ، كانت سرقة الخادم ، تعاقب معاقبة قاسية جداً : التنكيل ، ثم القتل شنقاً .

التجأ داميان إلى عائلته ، في « آراس » . واختبأ هناك . بقي في هذا المنزل ، لمدة ستة أشهر ، بعيداً عن رجال الشرطة . كان « داميان » في هذه الأثناء ، يتابع مراحل الخصام الحاد بين الملك والمحكمة العليا في باريس . لقد ازداد الأمر خطورة . هاجت العقول وماجت النفوس ، وتكاثرت الآراء المتطرفة .

فما هو موقف داميان من هذه الأوضاع المضطربة ؟ حدث نفسه : « حتما ، سوف يقطع الملك رأس القضاة ، في نهاية الأمر . . لا بد من وجود شخص ، لمنعه عن تنفيذ ذلك » .

انه استرعاء للنظام . ان مهمته هذه أقوى من الخوف الذي يعانيه بخصوص الشرطة . قصد دكان الخردوات ، ونقد البائعة أربعاً وعشرين لويسة واشترى سكيناً تطوى ، ذات حدين (بماركة نامور) . . اختار مديتين الأولى كبيرة ، والثانية

الايحاء الذاتي وتركزت نفسيته نحو فكرة ثابتة : القضاء على مصدر الشر أي على الملك ، بالاضافة الى نشأته الفقيرة التي عانى بسببها الحرمان والتشرد .

صغيرة ، ثم اتجه نحو باريس . وصل إلى المدينة في ٣١ كانون الأول .

اختار فندقاً قرب قصر فرساي ، وذلك في ٤ حزيران ١٧٥٧ . كان مرتبكاً ، وغير طبيعي . في ٥ حزيران ، لمعت في ذهنه فكرة لا واعية ، كأنها لحظة التجلي . حاول تجنب ما هو مقدر ومحتوم ، نادى صاحبة الفندق . انه يعاني من التبيغ[1] . وجهه شاحب ، نظراته مذعورة ، زائغة .

ـ هيا اتصلي بالطبيب . اني أحتاج إلى فصد[2] .

أما صاحبة الفندق ، فلم تأبه لكلامه ، بل قالت له :

ـ أفي هذا الطقس . . تريد فصداً ؟ . تناول بالأحرى قدحاً من النبيذ . سوف يدفئك حتماً .

هكذا ، احتسى داميان قدح النبيذ ، ثم اتجه نحو القصر وفي جيبه المدية التي اشتراها من دكان الخردوات .

دخل بسهولة إلى الباحة . أخذ يتحدث بدون تكلف مع السواقين والحراس ، معتقدين بأنه أحد خدم فرساي . ثم انضم تحت جنح الظلام ، إلى جلساء الأمراء . . بعد هنيهة ، وصل الملك محاطاً بخدامه من كل جانب ، وهم يحملون المشاعل . وانقض عليه . . .

لقد وقع الملك فريسة الهلع ، لدى اصابته الغادرة بمدية « داميان » . . هذا صحيح . ولكن لا ننسى بأنه ساهم مع الآخرين ، في القبض على المغتال .

اقتيد داميان إلى غرفة في القصر ، وسط حراسة مشددة . بعد فترة وجيزة ، وصل وزير العدل ، « ماشو دار نوفيل » ، خرج عن وقاره ، وصاح مزمجراً كالمعتوه :

ـ هيا ، آتوني بقضيب من الحديد الحامي .

في جو من الاستغراب الشديد ، نفذ الجنود الأمر ، على الفور رجعوا وبأيديهم ، المنقل[3] وقضيباً من الحديد . ثم أمر جنوده ، بنزع حذائي السجين :

ـ من هم شركاؤك في الجريمة ؟ من دفع لك المال ؟

انه سؤال مقبول ، يمكن طرحه . . اذ عندما عثر على مبلغ خمس وثلاثين لويسة ذهبية في جيب رجل فقير ، ويرتدي ثوباً بالياً . . خطرت في بال المحقق ، الفكرة

---

(١) او احتقان (تجمع الدم في عرق معين) .

(٢) فتح عرق .

(٣) موقد جمر .

التالية :

« حتما ، لقد نفذ جريمته لقاء هذا المبلغ من المال . » حبذا لو يدرك وزير العدل ، الحقيقة ، فهذه القطع الذهبية ما هي الا بقية سرقة من النقود التي اختلسها السجين من دار سيده . لقد أخطأ في الحكم عليه . ظل داميان هادىء الأعصاب :

ـ تصرفت لوحدي . لم يشركني فيه أحد . . ولم يعلم به أحد .

أما « ماشو دار نوفيل » ، فازدادت حدة غضبه ، انتفض صارخاً في انفعال :

ـ لماذا أردت قتل الملك ؟

ـ فعلت ذلك في سبيل الله والشعب . لأن فرنسا تنهار ، وقد عم البؤس ثلاثة أرباع المملكة .

فجأة ، استدرك داميان موقفه وقال :

ـ كلا . ما أردت قتل الملك . . والا ، لاستعملت المدية الكبيرة . . لا الصغيرة .

هذا صحيح . . كل الصحة . لقد وجه داميان ضربته بواسطة الشفرة الصغيرة من المدية . . بحيث لا تتجاوز بعض السنتيمترات . ومن غير المعقول أن تحدث مثل هذه الشفرة الصغيرة ، جرحاً مميتاً . . بينما كانت الشفرة الثانية من المدية ، كبيرة ومخيفة حقاً . ما الذي جعله يستعمل الشفرة الصغيرة ، ما دام ينوي قتل الملك ؟ فهذا أمر غير منطقي . ولكن هل يوجد أي منطق ، لدى داميان ؟

لم يطرح وزير العدل أي سؤال يتعلق بحالة المتهم العقلية . التفت إلى الجندي وهز برأسه ، وقد بدت علائم الغضب الشديد ، واضحة على محياه . رفع الجندي قضيب الحديد ، وقد حماه لدرجة البياض[1] .

انتشرت رائحة فظيعة من اللحم المحروق ، ثم دوت صرخة مريعة ، ولكن ، لم تتغير أجوبة الأسير : لا يوجد شركاء . . لقد حاول قتل الملك في سبيل مصلحة الشعب .

أخيراً ، توقف هذا الاستجواب المذهل . اقتيد داميان إلى سجن فرساي في ١٥ حزيران وقع الملك على نص قرار متعلق بداميان . بحيث يجب عليه بناء على هذا القرار ، المثول أمام القضاة في المحكمة العليا في باريس ، ثم اقتيد إلى «الكونسيرجوري» ، في الزنزانة القائمة في برج مونتغمري . . حيث سجن قبلا المغتال رافاياك .

(١) أي توهج النار بحكم تحمية الحديد في موقد الجمر حتى الدرجة القصوى فبدا كأنه أبيض .

لقد اتخذت الاحتياطات الاستثنائية لمنع السجين من الهرب . إنها اجراءات نادرة . تقع زنزانة داميان ، في الطابق الثاني . أما في الطابق الأول ، فقد اقامت فيه مجموعة من الحرس ، لا تقل عن المئة رجل ، ولا توجد في زنزانته ، سوى كوتين ضيقتين ، يناهز عرضها العشرين سنتيمتراً . بأية حال . . يستحيل الوصول اليهما . . وأنى له ذلك ؟ انه مقيد بواسطة أحزمة ، بحيث تقبض على ساقيه ، ذراعيه وصدره . وقد أوثقوه بشدة ، فأصابته نوبة من الحمى . ويقوم بحراسته أربعة رجال ، ويتناوبون الحراسة كل ساعة .

توالت التحقيقات في زنزانته . كانت جميعاً سلبية ، شأن التحقيق الأول ، الذي ارتجله وزير العدل . لقد تصرف داميان وحده . لم يعلم أحد بخطته سلفاً .

وفي صباح ٢٦ آذار عام ١٧٥٧ ، طلب منه المثول أمام « الهيئة العظمى » التابعة للمحكمة العليا في باريس . إنها الجمعية الأعظم شأناً ، التي شكلت خصيصاً ، للنظر في هذه القضية . لقد جمعت أشهر شخصيات فرنسا : أمراء ذوو محتدد ملك ، أعيان المملكة[1] وعددهم اثنان وعشرون . بالاضافة إلى رؤساء المحكمة الأولين وعددهم اثنا عشر ، وكبار المستشارين في محكمة باريس العليا .

لم يشعر المتهم بالارتباك . . . اطلاقاً . أخذ يتفرس بدون خوف وبحشرية ، في وجوه أهل البلاط . أشار بأصبعه إلى عدة قضاة حيث عمل في منازلهم ، أجيراً :

ـ أما أنت . . فإني أعرفك يا سيدي . حصل لي الشرف أن أعمل خادماً في دارك . وفي دارك أنت أيضاً . . يا سيدي . .

استعملت المحكمة ، الاجراء القضائي المتعلق بالعدالة الاستثنائية ، أي الاجراء المنجز بكل معنى الكلمة . في الليلة نفسها ، صدر القرار الاتهامي ، في غياب المتهم تلا قرار الاتهام الرئيس الأول ويدعى موبوه :

« روبر فرنسوا داميان . . حكم عليه بالمسألة غير العادية . وسوف يقر بذنبه أمام الباب الرئيسي لكنيسة باريس ، مرتدياً القميص ، حاملاً مشعلاً من الشمع الملهب ، ويعادل وزنه الليبرتين[2] . وبعد أن يطلب الغفران من الله ، من الملك ومن العدالة ، سوف ينقل إلى باحة « غريق » كي يصبح مقطّعاً بواسطة أربعة أحصنة . فوق ذلك ، سوف يسحق البيت المولدي[3] ولا يحق له التعمير فوقه ، وسوف تنفى عائلته

(١) الأعيان أي اصحاب اقطاعة .

(٢) حيث رأت عيناه النور .

عن فرنسا ولا يحق لها العودة تحت طائلة العقوبة بالموت شنقاًوخنقاً ، بلا أي اجراء آخر » .

أما اليوم التالي فكان نهار الأحد ، ٢٧ آذار . . في هذا التاريخ ، لا يمكن تنفيذ أي عقوبة ، لأنه يوم الرب .

هكذا ، في يوم الاثنين ٢٨ آذار ، نقل داميان من زنزانته إلى برج آخر من الكونسيرجوري حيث توجد قاعة التعذيب . هنا ، حسب العادة ، جثا على ركبتيه ، ليستمع إلى الحكم بالموت . في هذه الاثناء ، حضر كاتب المحكمة وجبة[٥] مؤلفة من أدوات التنكيل المريعة . ثم نهض داميان وقال معلقاً :

ـ آه ، سيكون النهار قاسياً .

الآن ، حان وقت تنفيذ المسألة غير العادية أي التنكيل بواسطة السحاقة[٦] . وضع داميان ضمن هذه الآلة الجهنمية ، المخصصة لسحق ساقيه . شيء لا يصدق : كم هو هادىء ، يبدو غيرمبال بالأمر . وقع بصره على أحد الضباط المكلفين في حراسته ، وهو يخرج من جيبه علبة النشوق الذهبية[١] ، فصاح باعجاب :

ـ يا سيدي . . ما أجمل هذه المنشقة .

لم يسمع الرئيس الأول « موبوه » كلامه ، (وكان يشرف على عملية التعذيب) ، فاعتقد بأنه أفشى بسر خطير ، في هذه اللحظة الأخيرة ، فسأله باهتمام بالغ :

ـ ماذا قلت ؟

ـ قلت بأن هذا الضابط يملك منشقة من الذهب .

إنها افادته الوحيدة ، التي ادلى بها روبر فرنسوا داميان ، أثناء التحقيق الحالي . مع ذلك ، استبعد القضاة لتنفيذ أروع وأعظم تعذيب ، في الوقت اللاحق .

بدأ الجلاد في غرز الوتد بين اللوحين ، كي يسحق الساقين ، وعليه الانتظار ربع ساعة ، حتى تستعيد الأعصاب حساسيتها . كلما انقض عليه البيزر[٧] ، أطلق المنكل به ، صرخة مدوية ، ثم يسكت . . وينظر حوله . وينتظر . . .

مضى ساعتان و ١٥ دقيقة . انتهى الجلاد من غرز الوتد الثامن . قرر الأطباء

---

(٥) هنا يستعمل الكاتب اسلوب جاحظي لاذع كلمة وجبة طعام علامة الاستهزاء من الطريقة الجهنمية في تعذيب الانسان هائمة في الاكل .

(٦) اداة تعذيب قديمة تستعمل لسحق السوق .

(٧) البيزر أي المطرقة الخشبية ذات الرأسين .

توقيف التنكيل ، لا رحمة بالمعذب ، بل تجنباً لخطر الموت . سمح لداميان ، بالاعتراف أمام الكاهن ثم الاستراحة قليلاً . دقت الساعة الثانية بعد الظهر . إنها بداية المشهد الأخير . سوف يكون مروعاً . . لا يطاق . برأيي لم يتلق أي انسان من أي كائن بشري آخر ، مثل هذا التعذيب الوحشي المريع ، باسم العدالة الشرعية .

رفعه الحراس إلى الطنبر المكسو بالقش وقد ارتدى قميصاً خاصاً بالمحكومين . . ثم وضعوا بين يديه المشعل الذي يزن ليبرتين ، بينما وقف من جانب ، راهبان ، وأخذا يتلوان الصلاة .

لم تكن المسافة بعيدة ، بين الكونسييرجوري ونوتردام . جاؤوا به زحفاً ، حتى درجات سلم الكاتدرائية . . اذ سحقت آلة التعذيب ساقيه ، سحقاً مريعاً . وبعد جهد جهيد ، جعلوه يجثو على ركبتيه كي يتلو نص الاقرار بالذنب :

ـ لقد ارتكبت بسوء نية جريمة قتل الأب ، الشنيعة والمقيتة جداً وجرحت الملك بضربة سكين عند الجهة اليمنى ، اني أطلب التوبة والغفران من الله ، من الملك ومن العدالة .

رفع مرة ثانية إلى الطنبر ، الذي انطلق به وهو يحدث صريراً مزعجاً . . نحو المرحلة الأخيرة : نحو ساحة غريق . لقد جريت الاستعدادات قبل صدور الحكم بالموت . والمكان هو عبارة عن شكل مربع طول ضلعه ثلاثة وثلاثون متراً ،ومحاط بألواح خشبية ، على شكل حباك[1] في الوسط ، نصبوا المشنقة أي منصة من الخشب ، يبلغ ارتفاعها مترين . على المنكل به ، الاستلقاء على ظهره ، كي يصلب بحيث تثبت ذراعيه وساقيه بواسطة قيود من حديد . . بينما تنتظره المحرقة في موضع مجاور .

وضع داميان على المنصة . احتشد جمع غفير . لقد تهافت الناس لمشاهدة هذا العرض الفريد من نوعه (لا تقل أهمية عن مشهد تنفيذ حكم الموت بالمغتال رافاياك)[2] .

تنافس رجال البلاط حول المقاعد المفضلة وقد دفعوا الأموال الطائلة للحصول على مكان في الشرفة أو قرب النافذة .

---

(١) حباك (حظيرة من قصب شد بعضه الى بعض) .

(٢) رافاياك ، قاتل الملك هنري الرابع وهو زوج الملكة الايطالية ماري دي مديتشي التي اصبحت وصية العرش الفرنسي بعد موته ، ثم استلم ابنها ولي العهد لويس الثالث السلطة بعد اغتياله « كونشينو » على يد الكابتن الفرنسي « فيتري » .

حضرت إلى ساحة الاعدام باقة من أجمل سيدات فرنسا ، وهن يرتدين الأثواب الأنيقة الفخمة بينما اعتمر السادة ، الشعر المستعار . . وأخذوا جميعاً يتحاورون ويتضاحكون ، حول موائد عامرة بالنبيذ الفرنسي المعتق والمأكولات الدسمة الشهية .

أخيراً ، بدأ العرض ، باشراف نخبة من الجلادين في فرنسا ، الذين وفدوا الى ساحة نوتردام من المدن الكبرى .

أولاً ، اقترب جلاد مدينة باريس ، من داميان . وضع السكين التي استعملها المتهم لضرب الملك . . في يده اليمنى . . وعلى مهل ، سكب السائل الكبريتي . أطلق داميان صرخة عظمى ثم سكت ، وأخذ يتأمل يده المحروقة دون أن يتفوه بكلمة واحدة .

أما جلاد مدينة أورليان ، فهو مسؤول عن العملية الثانية . دنا منه ، قابضاً على كماشة فولاذية ، وأخذ ينزع ربلة[1] الساق ، الفخذين ، الذراعين والثديين .

ثم جاء دور جلاد مدينة ليون ، حاملاً بيده ، اناء من الحجر الرملي ، حيث يغلي مزيجاً من القطران[2] والكبريت والرصاص المذاب والزيت . . وأخذ يسكب المغرفة تلو المغرفة ، في كل جرح . . . .

اتجه نحوه أربعة أحصنة وهي مقيدة بسلاسل حديدية . . الآن ، يبدأ المشهد الأخير الفعلي من هذا العرض الدرامي المريع . سوف نرى بعد لحظات ، الوحشية البشرية التي جاوزت كل تصور عقلي . لم تتوصل الأحصنة على فسخ داميان . رغم ضربات السوط ، لقد انهكت نفسها بلا طائل .

دام هذا المشهد أكثر من ساعة . فكان المعذب المسكين تارة يرسل صراخات مروعة وطوراً ينظر إلى هذا المشهد الوحشي ويطلب من جلاديه عدم الصياح في وجه الأحصنة .

أخيراً ، استسلمت ساقاه . . ولكن لم تنفصلا عن جسده . لهذا السبب ، توقف فجأة حصانان عن الحركة ، فأعاقا عمل الحصانين الآخرين ، اللذين يشدان الذراعين .

هذه المرة . . يجب وضع حد ، لهذا الموقف الرهيب . بسرعة ، قطع الجلادون اطراف العضلات[3] ، وعلى الفور ، انفصلت الأعضاء الأربعة دفعة واحدة .

---

(١) الربلة أي دهن اللحم .
(٢) الزفت أو القار .
(٣) طرف العضلة أو الوتر .

استغرقت هذه العملية الشيطانية ، زهاء ساعتين و ١٥ دقيقة . . . في وسط ساحة « غريق » .

عندما رمى الجلادون في المحرقة ، بقايا داميان ، لاحظ الناس ويا لهول ما رأوا ـ ابن المزارع الفقير ، وهو ينتفض . . فما زال حياً . .رغم كل هذا التقطيع الوحشي . . ما زال صدره ينبض وما زالت عيناه تتحركان وشفتاه ترتعشان .

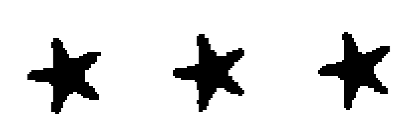
لقد تذوق بعض الأفراد من المجتمع الراقي عرض التنكيل هذا . . ولكن لا يطبق مثل هذا المفهوم على الأغلبية الساحقة من الناس .

لقد أضر هذا الاعدام المروع ، بسمعة الملك لويس الخامس عشر وبالتالي بشعبيته . لم يجد وسيلة ناجعة ، لاستعادة وضعه السابق . اعتبر الرأي العام الفرنسي هذا العمل الفظيع ، غير انساني ، بحيث أسرف وتمادى الملك في اشباع غريزته في التشفي والانتقام من رجل غير مسؤول عقلياً عن أفعاله .

وقد وقعت هذه المأساة القروسطية في عصر النور ، أي في عصر الفلسفة العقلانية . التي رفع مشعلها الوهاج ، روسو ، فولتير وديدرو الخ . .

مثل هذا الاعدام الانتقامي الحاقد . . ولد صدمة نفسية لدى الشعب الفرنسي ولدى أوروبا قاطبة .

في يوم شتوي جليدي ، من شهر حزيران ١٧٥٧ ، رجل متوهم ، مجنون فقير ، قام من حيث لا يدري ومن حيث لا يريد ، بالضربة الأولى ، بسكينه الصغيرة ، ضد الملكية المطلقة . . .وكان هذا العمل العفوي ، نذير اشتعال الثورة الشعبية الفرنسية الكبرى . . التي تعتبر من أعنف وأفظع الثورات في العالم أجمع . . بقيادة مارا ، روبسبير ودانتون .



إني اتهم

إميل زولا وأغرب محاكمة قضائية في العالم.

دريفوس ، إني أقبض عليك . . لإرتكابك جريمة الخيانة العظمى . . .

هل يتوقع القضاء الفرنسي عام ١٨٩٨ م إعلان توبة الضابط دريفوس قائلاً متوسلاً :

« إني أجثو بين يديك ، طالباً صفحكَ وعفوك عن تلك الجريمة المريعة التي اقترفتها : الخيانة العظمى » أم هل سيلتزم الصمت ويرفض الإفصاح عن الحقيقة ، فتندلع شرارة حرب أهلية . . بحيث تدوم أكثر من اثنتي عشرة سنة ؟ ثم هل كان فعلاً « دريفوس » الضابط الخائن الذي باع وطنه لألمانيا ؟ . . على حد قول « بيكارد » ، إن الخائن الحقيقي هو « استرازي » وليس دريفوس . . هل هذا صحيح ؟ ما رأي أميل زولا ؟

قضية «دريفوس»

ماذا يجري في فرنسا ، في هذا العام بالذات : ١٨٩٨ م ؟ حل الخصام محل الوئام ، بين جميع الناس ، إن لغة الشتائم والسباب في السائدة بينهم جميعا . انتقلت عدوى التخاصم إلى الأماكن العامة والخاصة . . إلى المنزل والمكتب والمقهى والشارع . وغالباً ما تتحول المشادة الكلامية إلى الضرب بالأيدي وإلى الأعتداء بالعصا .

رب صداقات قديمة ، قد تحولت بين عشية وضحاها إلى خصومات حادة ، ورب عائلة متحدة متآلفة ، قد فقدت عرى الإلفة والمحبةبين أفرادها ، ورب أزواج متحابين قد تنافروا في الحال ، وألتجأوا إلى الطلاق لوضع حد لهذا الخلاف الناشب والذي يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم ، وتكاثرت التحديات اليومية المتبادلة ، بين النواب والصحافيين والعسكريين .

لم تتردد الجرائد الغاضبة الثائرة عن إعلان رأيها بصراحة ، مطالبة بالثأر والفتنة

حدثت كل هذه الأمور الدرامية في فرنسا بشكل مفاجىء ، لا عجب أن تساءل الناس في الخارج بالطريقة التالية : هل تترجح فرنسا على شفير حرب أهلية قاتلة . . بمعنى آخر : هل فقدت عقلها ؟

تبدو فرنسا الآن كأنها فقدت صوابها ، فجأة . . دون أي سبب يذكر . هل يوجد فعلاً سبب واضح ؟ ما هي علة هذا النزاع الذي بدأ بتمزيق البلاد بصورة درامية ؟ إن السبب الرئيسي هو رجل ، رجل واحد لا غير . لأجل شخص واحد ، تنهال اللطمات والشتائم . . كلمة واحدة ، مصدر كل هذة البلبلة وهذه المتاعب . . كلمة واحدة ، تمنع رئيس الجمهورية ، كذلك وزراءه عن النوم مساء بهدوء وطمأنينة . كلمة واحدة يتبادلها أفراد العائلة الواحدة حول المائدة فيدب الخلاف ثم الإنفصال . . كلمة واحدة تحتوي على أشهر وأروع قضية عرفها تاريخ القضاء الفرنسي : « دريفوس » .

كي نفهم قضية « دريفوس » حق الفهم ، يجب الغوص في أعماق الأحوال العسكرية والسياسية عصر ذاك . كانت فرنسا وقتذاك مصابة بالإذلال ، نتيجة لإنهزامها المخزي في حرب عام ١٨٧٠ م . من جراء هذا الإنكسار فقدت الألزاس واللورين . وفي بداية سنوات ١٨٩٠ م ، راودها حمى استرجاع ما فقدته منذ عشرين سنة تقريباً . بهذا سادت روح الإنتقام ، الأغلبية الساحقة من المواطنين .

لا غرابة ان وضع الشعب كل ثقته بالجيش الفرنسي القادر وحده على تحقيق أمنياته الغالية . . ولا غرابة أن اعتبر الجيش مؤسسة عسكرية مقدسة ، بكل معنى الكلمة . في المدرسة ـ وحتى في أصغر مدارس القرية ـ بات المعلم ينشر ديانة الوطن . وفي ١٤ تموز تهافت الشعب على شراء المجلات ، هلل جنود المدرعات والجنود الخيالة والزواويين[1] والجنرالات ، وكل يوم أحد ، كان يقصد الأماكن الخاصة وهي أشبه بالكشك المزخرف ، حشد غفير من الطبقة البورجوازية والعمال . . على حد سواء . . للاستماع إلى الموسيقا العسكرية التي تؤدي أصبوحتها[2] بأبهة واعتزاز . بات الزي العسكري ، يتمتع بهيبة خاصة : كانت كل فتاة تحلم في قرارة نفسها ، في زواج من ضابط جميل .

في هذا العصر بالذات ، تم تأسيس فرع جديد ويعرف باسم : « قسم الإحصائيات » وينتمي إلى هذا الجيش الطموح الذي يجسد آمال وكرامة الأمة

(١) زواوى وهو جندي فرنسي بلباس أهل مراكش والجزائر .

(٢) يهدف الكاتب في هذا المقطع الى تصوير نفسية الناس في ذلك العصر بصورة كاريكاتورية

بأسرها . وقد خصص لهذا الفرع الفريد من نوعه في تاريخ فرنسا ، ملحق منفرد ، تابع لوزارة الحربية في شارع الجامعة . أما الوسائل التي يستعين بها ، فهي بالأحرى تقليدية وعادية جداً ، أمثال الشائعات وتقارير المخبرين غير الجدية . . أغلب الأحيان .

إنما مهمة هذا الفرع الرئيسية ،هي مراقبة السفارة الألمانية . لهذا السبب ، اختار « قسم الأحصائيات » طريقة سهلة جداً ، حتى درجة الحيرة الملغزة : خادمة منزل ، وتدعى ماري باستيان . عادة ، تتجه كل صباح إلى السفارة الألمانية ، لتنظيف مكاتبها . ويتم التنظيف في وقت مبكر . لذا ، لا يوجد سواها ، في هذه الفترة الصباحية . بهذه الطريقة لم تجد صعوبة في نقل محتويات سلات المهملات إلى قسم الإحصائيات التابع للجيش الفرنسي . بعد ذلك ، يتم تجميع أطراف الأوراق الممزقة ، على أمل اكتشاف أسرار المانيا .

كانت تؤدي هذه المرأة الفرنسية ، عملها السري ، بصورة دائمة وبشكل موفق . ولكن ، لا يمكن اعتبار مثل هذه الطريقة فعالة بصورة مطلقة .

يعرف مثل هذا العمل في مفهوم الأستخبارات ، باسم « الوسيلة العادية »

هل استطاعت الاستخبارات الفرنسية عصر ذاك ، تدبير عملها بفطنة ، بواسطة خادمة المنزل هل أصبح كشف أسرار عسكرية خطيرة ، من خلال السفارة الالمانية ، ممكنا نيله . . ؟

جاز أن تكون هذه المعلومات المبعثرة التي تلملمها دائرة الاحصائيات الفرنسية من سلة المهملات في السفارة الالمانية ، مقصودة أصلاً من قبل جاسوس وهمي للتمويه . .لا أكثر ولا أقل ولكن . . هل هذا معقول ؟

الآن ، اتخذت جميع العناصر أماكنها المحددة :

أ) إن الرأي العام مأخوذ بفكرة الهزيمة التي لحقت بجيشه عام ١٨٧٠ م والمتعطش الى الأخذ بالثأر باي شكل من الأشكال وبأسرع وقت ممكن ، ويضع كل ثقته بجيشه الذي يكن له اعجابا مطلقاً . .

ب) لقد تم تأسيس دائرة جديدة للاستخبارات وتم تكوينها من هنا وهناك والتي تعمل استناداً الى طريقة تجريبية أي مبنية على الملاحظة والاختبار .

ج) تم تعيين خادمة منزل ، داخل هذا الجهاز السري ، لجمع المعلومات الممكنة ،

بصفتها المسؤولة عن سلات المهملات في السفارة الالمانية .

انطلاقاً من هذه العناصر المذكورة ، سوف تبدأ أكبر وأغرب مشكلة قضائية في تاريخ فرنسا ، وسوف تدوم المحاكمة أكثر من اثنتي عشرة ستة .

ولكن ، في نهاية عام ١٨٩٣ م ، بدأ القلق يساور قسم الاحصائيات التابع لوزارة الحربية يبدو أن قطع الأوراق التي نقلتها الخادمة من سلة المهملات ، تحمل بين طياتها علامة واضحة : توجد علاقة بين الملحق العسكري الالماني « شوارزكوبن » وضابط فرنسي . هذا يعني بأن الضابط الفرنسي يزود الملحق العسكري الالماني بمعلومات عسكرية خطيرة .

عثر على رسالة جديرة بالاهتمام وقد أثارت قلقاً ملحوظاً في قسم الاحصائيات . فهي موجهة من « شوارزكوبن » الى الملحق العسكري الايطالي ، ويعود تاريخها الى ١٦ نيسان ١٨٩٤ م هاك بداية نص الرسالة . . وسوف تحفظ فرنسا فيما بعد ، هذا النص ، ظهراً عن قلب :

صديقي العزيز :

إني آسف لأني لم استطع رؤيتك قبل رحيلي . يوجد طي الرسالة اثنتي عشرة خريطة مفصلة من نيس . . التي استلمتها من هذا النذل « د » طالباً مني تسليمها لك.

ساد الاضطراب نفوس الضباط الفرنسيين ، وباتوا يطرحون على أنفسهم بانفعال ملحوظ ، السؤال التالي : يوجد بيننا خائن . . ولكن ، من هو ؟ من هو هذا النذل الحقير الذي يبدأ اسمه بحرف « د » ؟

في نهاية شهر أيلول ، عام ١٨٩٤ ، وقع حادث خطير للغاية ، ويمكن اعتباره حدثاً حاسماً لقد تلقى المقدم هنري وهو رئيس مساعد في دائرة الاستخبارات ، رسالة بالوسيلة العادية أي بواسطة الخادمة . . وهي ورقة صفراء ، رقيقة جداً . . وموجهة الى الملحق العسكري الالماني ، وتفيده بالأمر التالي : سوف نرسل لك في القريب العاجل ، معلومات حول عدة مواضيع سرية للغاية ، بالأخص فيما يتعلق بالمكبح الهيدروليكي المتعلق بالمدفع عيار / ١٢٠ / وبأحوال فرق جنود التغطية عند الحدود الالمانية .

كانت رسالة مغفلة . لم يتوصل المحققون الى اكتشاف اسم صاحبها ، لكنها تحتوي على أمور هامة جداً ، فهي مكتوبة باليد . ولقبها المقدم هنري باسم « اللائحة

المفصلة » « لوبوردورو » ويظل هذا اللقب ملازما لها ، على صفحات التاريخ .

أما المقدم هنري ، فهو شخصية عسكرية مرموقة . يناهز الثمانية والأربعين من عمره في البداية ، انتسب الى الجيش الفرنسي ، كجندي عادي . لقد تقدم بسرعة ، بفضل شجاعته الفائقة التي تميز بها خلال حرب ١٨٧٠ م بالطبع ، انه يفتقر الى تنشئة خاصة والى علم النفس ، لكنه استطاع التعويض عن هذا النقص ، بفضل حسه المرهف للنظام وولائه التام لرؤسائه .

أرسل المقدم هنري عدة صور فوتوغرافية متعلقة باللائحة المفصلة الى جميع الدوائر العسكرية ، وكل همه هو العثور على الضابط المشبوه الذي يملك خطاً يطابق خط الوثيقة المذكورة .

ـ القبض على الجاسوس ـ

بالفعل ، تم العثور في مجلس القيادة بالذات ، على ضابط مشبوه . انه يتمتع بصفات مميزة ، ولكنه يوحي في الوقت نفسه ، بالريبة والحذر . انه الكابتن ألفرد دريفوس . . وهو في الخامسة والثلاثين من عمره . انه فرنسي من مواليد الألزاس ، وينتمي الى الديانة اليهودية . (ولد في موهاوس) . ويملك والده مصنع غزل للقطن ، وهو مزدهر للغاية ويوم استولى الألمان على الألزاس عام ١٩٧٠ م ، ترك المنطقة وتخلى عن كل ممتلكاته فعل كل ذلك ، كي لا يفقد هويته الفرنسية .

نشأ ألفرد ضمن هذه البيئة الوطنية ، وقرر منذ فتوته ، تكريس حياته للجيش . استطاع أن ينجح بتفوق ، في امتحان الدخول الى معهد البوليتكنيك[1] وتخرج منه برتبة ملازم في سلاح المدفعية .

في عام ١٨٨٩ م ، تم تعيينه نقيباً في الجيش ، واستمر يتقدم ، على هذا المنوال . وكان يحتوي ملفه الخاص عام ١٨٩٠ م على الدرجات التالية :

« السلوك » : جيد جداً ـ المظهر : جيد جداً ـ ملاحظات عامة : « ضابط كفؤ جداً ، ذو كفاءة ملحوظة في دائرة مجلس القيادة » . استناداً الى هذه الصفات المميزة ، تم تعيينه في عام ١٨٩٣ م ، نقيباً في مجلس القيادة . كذلك من الناحية الشخصية . . فكانت حياته ناجحة : في عام ١٨٩٠ م ، تزوج ـ بعد حب متبادل ـ ابنة رجل ثري بائع الماس ، وتدعى لوسي هادمارد ، بالاضافة الى الحب الزوجي ، نال ألفرد من

---

(١) تم تأسيس هذا المعهد في باريس عام ١٧٩٤ وهدفه هو تأهيل مهندسين للدولة وضباط للجيش .

زوجته الصبية مهراً محترماً . وأنجبت له ولدين يدعى الصبي بيار وتدعى الفتاة جان .

غير أن شخصية دريفوس ، غريبة الأطوار انه كتوم ، بارد ومنعزل وغالباً ما يبدو فظاً وقاسياً . بكلمة أوضح : لم يكن دريفوس لطيف المعشر . بالطبع ، ليست الحياة قصة عاطفية غالباً ما يكون المرء في ميدان الحياة ، غير لطيف المعشر . فهذه هي حالة دريفوس .

في معهد البوليتكنيك ، لم يوطد عرى الصداقة مع أي طالب . كذلك في مجلس القيادة لم ينسجم مع أصدقائه . هل يعود السبب الى ضعفه البصري ومظهره الملغز وهو يتأمل الآخرين من خلال نظارة بلاماسكتين ؟ . . أم يعود السبب الى صوته الأبح والرتيب الذي يزعج الغير بنبرته الشاذة التي تشبه صوت الزنك على حد قول أحد الشهود ؟ . . أم يعود السبب الى تصرفاته الغريبة ؟ انه سري ، متطفل وغير متحفظ . جاز القول بأنه حاز على احترام الآخرين لأنه ضابط بارز ، ولكن لم يفز بقلب أحد . استحق المديح الوافر ولا شيء سواه .

أما الكاتب الفرنسي الشهير « اميل زولا » الذي سيتولى الدفاع عنه فيما بعد ، فيصفه بالشكل التالي :

« يبدو أشبه بتاجر أقلام رصاص . قصير القامة ذو مظهر غير جذاب ، تنقصه الشخصية المميزة ، صوته ضعيف ، مرتعش قليلاً وخافت ، نحيل الجسم ، يبدو التصلب واضحاً على قسمات وجهه لكنه يفتقر الى أبهة السلطة » .

رغم بعض هذه الصفات غير المستحبة ، يمكن اعتبار الكابتن ألفرد دريفوس في هذا العام بالذات أي ١٨٩٤ ، ضابطاً شاباً ، منتمياً الى القيادة ويبشر بمستقبل زاهر هاك ما كتبه في مذكراته :

« بدأت حياتي العسكرية بنجاح رائع وبسهولة . الحظ يبتسم لي باستمرار » .

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن فكان حكم القدر قاسياً . بدأ قسم الاحصائيات بالتحقيق بصورة جدية ، وقع الاختيار على ألفرد دريفوس ، كخطوة أولى في هذا العمل الاستعلامي الدقيق والمعقد فعلاً .

شرع المحققون بمقارنة خطه ، بالخط الذي يخص اللائحة المفصلة « لوبوردورو » . . وكان الشبه بارزاً للعيان بشكل مدهش .

ابتهج المقدم هنري لهذه النتيجة وقال مهللاً :

« آه ، انه دريفوس ، لا عجب . . كان من المفروض أن أشك في أمره . . منذ البداية » . وعندها ، نقل المقدم تقريره الى رؤسائه ، الجنرال غونس والجنرال بوادفر . وأرسل طي التقرير ، التحليل الخطاطي ، الذي قدمه لهما أحد ضباط دائرة الاستخبارات وهو المقدم باتي دو كلام . باختصار . انه ملف شيق للغاية ، بحيث يحوي كل ما هو ايجابي ، ويثبت بالدليل القاطع بأن الضابط دريفوس هو صاحب هذا الخط الذي يخص « اللائحة المفصلة » (لوبوردورو) .

أما وزير الحرب ، الجنرال مرسييه ، فاقتنع على الفور بحالة اجرام دريفوس . انما تبرئة للذمة[1] طلب تحليلاً خطاطياً[2] آخر واستناداً الى خبير حقيقي . . هذه المرة . ولكن لم تكن النتيجة مختلفة : « توجد عدة نقاط من التشابه بين الخطين : كذلك توجد عدة نقاط من التباين » .

ليس الأمر بذي بال . سيحاول مرة أخرى ، لن يكتفي بالقرارين السابقين . هكذا توجه الجنرال مرسييه الى خبير ثالث ، ويدعى بريتون ، وقد ذاع صيته كمخترع « الأنتروبومتري » (أي القياسة الأناسية »[3] لكنه لا يعتبر خطاطياً[4] رغم هذا الواقع ، لم يتردد هذا الخبير في قياسة الأناسية عن اعلان نتيجة التحليل الخطاطي بصورة حاسمة : « ليس هناك أي مجال للشك . . انه الخط نفسه » .

هذه مسألة مفروغ منها . أخيراً ، قرر الجنرال مرسييه القبض على دريفوس . انه مقتنع الآن تمام الاقتناع ، بأن دريفوس هو المذنب ولن يتراجع هذه المرة ، في صدد قراره الحاسم .

في ١٣ اكتوبر ١٨٩٤ م ،استدعي الكابتن دريفوس الى وزارة الحربية . هنا ، في جو « ميلودرامي » ، طلب منه المقدم « باتي دوكلام » كتابة العبارات الأولى من « اللائحة المفصلة » (لوبودورو) . . وقد املاها عليه على حد قول الضباط الحاضرين وقتذاك ، كان دريفوس مضطرباً ، عندها ،صاح المقدم باتي بنبرة مسرحية :

« دريفوس ، اني أقبض عليك لارتكابك جريمة الخيانة العظمى » .

ثم انصرف الجميع ، وبقي دريفوس وحده في الغرفة .

(الانتحار؟ . . هل هي أفضل طريقة للتخلص من عذاب الضمير؟)

---

(١) أو ارضاء الضمير. (٢) أي متعلق بالخطاطة .

(٣) قياسه اناسيه (علم أقيسة الجسم البشري وبخاصة في تحقيق شخصية المجرمين) .

(٤) خطاطي أي دارس الخط كمعبر عن شخصية كاتبه .

اللحظات الأخيرة

لبث الكابتن دريفوس في غرفة التحقيق مضطرباً مذهولاً ، يعاني اليأس الشديد والتردد القاتل ، هل يقتل نفسه ؟ لقد فهم كل شيء ، وقع بصره على مسدس ، وقد ترك قصداً على طاولة المكتب . . على كومة من الوثائق .

انتابه الدوام[1] وارتبك الأمر عليه . فجأة ، تهدم صرح المستقبل الزاهر ، الذي بناه في مخيلته ، منذ مطلع شبابه .

ساد الغرفة صمت درامي ، أشبه بصمت القبور . انتصب واقفاً ، قام بخطوة واحدة . . نحو المسدس . بدت له هذه الآلة الجهنمية كأنها تستدنيه[2] هل يضغط بالزناد على أم رأسه ؟ هل يضع حداً نهائياً لهذه الصدمة النفسية المميتة وهذه المريعة : الخيانة العظمى ؟ هل يقتل نفسه لأنه فوجىء بهذا القرار ؟ هل هو حقاً خائن ؟

فجأة ، سحب يده اليمنى المتجهة نحو المسدس . . وتراجع خطوة الى الوراء . . قال لنفسه بنبرة يائسة : « لا . . لن أقتل نفسي . . اني بريء . . سأقاوم جميع أعدائي حتى الرمق الأخير . اني بريء . . لن أقر بذنبي لأني لست الجاني . »

بعد فترة وجيزة ، دخل الضباط الواقفون وراء الباب ، فبادرهم قائلاً بصوته الخافت الجاف : « لاأريد أن أقتل نفسي . أريد إثبات براءتي » . وفي الحال ، اقتيد دريفوس الى سجن « شرش ميدي » وقد تم اعتقاله وحبسه ، بسرية تامة . حتى عائلته ، جهلت حقيقة الأمر . . وظل عدد من الوزراء ، جاهلاً سير هذه القضية الغامضة .

كان يتلقى في حبسه المنفرد ، زيارة واحدة ، كل يوم . . وهي زيارة المقدم باتي دوكلام ، وكان يطلب منه كتابة بعض الصفحات في أوضاع مختلفة ، مرة ، يكتب واقفاً ، ومرة أخرى يكتب مسترخياً على السرير أو جالساً على كرسي ، أحياناً بواسطة كف ، وأحياناً بلا كف . . ثم تنقل هذه الصفحات الى السلطة العسكرية ، اذ ما زال التحقيق مستمراً . . فتم استشارة ثلاثة خبراء جدد في ميدان الخطاطة . فكانت النتائج محيرة ومشوشة ، اثنان منهم أكدا بأنه الخط نفسه بينما ذهب الثالث الى قول العكس تماماً .

---

(١) شبه الدوار في الرأس .

(٢) استدناه أي طلب منه أن يدنو .

عندها ، جاز طرح السؤال التالي : كيف ستجري الأمور . . اذا ما اتضحت براءة دريفوس لقد حل الارتباك محل الحسم السابق . حتى الآن ، لا يعالج القضية سراً ، سوى وزير الحربية ومعاونيه بالاضافة الى رئيس المجلس ورئيس الجمهورية . بهذا جاز اخلاء سبيله بعد فترة قصيرة ، ما دام الأمر محصوراً بين عدد من المسؤولين الكبار ، ويمكن تحقيق هذا الاخلاء ، نظراً لعدم وجود أدلة ثبوتية ضده .

ساد وراء الكواليس الانطباع التالي : من الممكن جداً أن يتم اخلاء سبيل الكابتن دريفوس ، بين لحظة وأخرى وذلك لعدم توفر أدلة ثبوتية ضده .

ولكن ، حدث مالم يكن في الحسبان ، في الأول من نوفمبر عام ١٨٩٤ م ، وقع حادث بحيث جعل الرجوع الى الوراء ، أمراً مستحيلاً ، فأجبر الجميع ، بدون استثناء ، على متابعة السير قدماً . . الى الأمام . ان الحدث الهام هو التالي : ظهور مقالة في جريدة « حرية الكلام » للصحفي ادوار درومون . انه اعلان مثير وقد طبع بأحرف كبيرة على الصفحة الأولة من الجريدةِ :

« الخيانة العظمى ـ القبض على الضابط اليهودي دريفوس » .

ويتبع هذا العنوان الكبير الذي ظهر بشكل فاضح في صدر الصفحة ، عرض مسهب للحالة بأسلوب حماسي عنيف ـ الى الحد الأقصى ـ بحيث يتهم دريفوس بالخيانة العظمى ، إذ باع أسراراً عسكرية الى المانيا . . بالاضافة الى ذلك ، لقد اعترف صراحة واقر بذنبه وسوف يحاكم قضائياً ، في القريب العاجل .

أما صاحب المقالة فهو الصحفي ادوار درومون ، وهو أصلا مقاوم للسامية وبخاصة لليهود ويعتبر رائد المناهضة للسامية في فرنسا . وأطلق عقيدته هذه ، منذ عدة سنوات من خلال كتاب ، وقد لقي دوياً ملحوظاً في جميع أرجاء البلاد ، ويعرف بالعنوان التالي : « فرنسا اليهودية » منذ ذلك الحين ، وهو يكتب مقالاته المناهضة للسامية اليهودية ، ولا يتورع عن الافشاء بأسماء الأشخاص الذين يجلبون المصايب والويلات ، أي اليهود ـ على حد قوله ـ

وبمقالته المؤرخة في واحد نوفمبر ، سجل هدفا في صميم المرمى . . وياله من هدف ، انه لقاتل حتما . . أشبه باغتيال معنوي ، على اثر هذا الخبر الصحفي الفاضح ، انتشر في الاوساط الرسمية والشعبية ، الانطباع التالي : ضابط يهودي باع نفسه لالمانيا . . لا عجب . . هؤلاء اليهود لايملكون وطناً . . يفعلون أي شيء

للحصول على المال .

في الواقع ، يصح طرح السؤال التالي : كيف توصل ادوار درومون ، الى كتابة مقالته هذه ؟ كيف استطاع الحصول على الأسرار التي يجهلها حتى الوزراء ؟ هذا يعني بأنه يوجد شخص ما . . شخص مزود بمعلومات دقيقة وهامة . . بهذا ، لن تكون القائمة طويلة .

وهذا الشخص المجهول ، هو المقدم هنري بلاشك ، بدت له الأمور غير عادية . ان سير التحقيق بطيء للغاية . فاختار أسلوب التسرع .لذلك ، صرح بمكنونات صدره الى الصحفيين ، وبالأخص الى الصحفيين الأشد عداوة للسامية اليهودية ، أي الذين يكتبون في صحيفة « حرية الكلام » وبما أن دريفوس يهودي ، سوف تكون المقالة رائعة ومثيرة ، كما أرادها المقدم هنري بالضبط .

هذه المرة ، وجدت الحكومة نفسها أمام طريق مسدود . لايمكنها التنقل أو التستر . فما باليد حيلة . وأصبح العدول عن قرار الاتهام بالخيانة العظمى . . بعيد المنال . . فعلا .

استشاط الوزراء غيظاً ، لأنهم عرفوا حقيقة الأمر بواسطة الصحافة . عندها ، قرروا فتح تحقيق قضائي ضد دريفوس .

وكلف المقدم « أورمشفيل » لتنفيذ هذه المهمة . دام الأمر شهرين كاملين . بعد هذه المدة ، استلم أورمشفيل ، تقريرين . يتعلق التقرير الأول ، بالناحية الأخلاقية ، انه سيء ومرهق : « بالنسبة لدريفوس ، توجد علاقات عديدة ، بعد زواجه . عاشر أماكن القمار أن حياته ماجنة » ولكن ، لوحظ بعد مدة قصيرة بأن التقرير مغلوط . لقد اختلط الأمر على المحققين ، اذ جرى التحقيق حول شخص آخر ويدعى كميل دريفوس وهو نائب منطقة « السين » وهو ماجن . . فمات انتحاراً فيما بعد .

أما التقرير الآخر ، فيتعلق بالخبراء الثلاثة . اثنان منهم يعتبران المتهم مذنباً والثالث ، يعتبره بريئاً .

ان الأدلة كافية ومدهشة ، بالنسبة للمحقق ، منقول في تقريره يملك دريفوس معلومات واسعة جداً ، وذاكرة رائعة ، ويتكلم عدة لغات اجنبية . بالاضافة الى ذلك ، انه يتمتع بطباع لينة للغاية حتى درجة المجاملة والخنوع . . مثل هذه الطباع يلائم تماماً مثل هذه العلاقات الجاسوسية ، بجواسيس أجانب .

ان الافراط في التهذيب هو دليل ثابت للخيانة . هذا أمر غريب ولكنه الواقع . لامجال للتراجع . سوف يحاكم دريفوس . بالفعل ، اقتيد الى المجلس الحربي ، في ١٨ ديسمبر ١٨٩٤ م تمت المحاكمة في جلسة سرية . لقد وصف مفتش الشرطة ليبين ، هذه المحاكمة السرية فيما بعد .

وقف دريفوس ، مرفوع الرأس جامداً . . تكلم بصوت واهن ـ جاف ، غير مبال . اعتبر نفسه بريئاً ، لكنه لم ينطلق بنبرة غاضبة . . لم ينفعل ولم يتوسل .

لم يحسم الأمر خلال هذه الجلسة السرية . ولم تعتبر الأدلة ، ثبوتية بكل معنى الكلمة هذا هو انطباع القضاة ، بشكل عام . لم لم يتوصل القضاء الى حسم القضية ، فما زالت معقدة وغامضة .

رغم ذلك ، لن يتردد القضاة العسكريون في اصدار قرار الاتهام ضد دريفوس ، عند العشية ه قبل صدور حكم المحلفين في الجنايات ، قدم « باتي دوكلام » تلبية لأوامر وزير الحرب مرسيبه ملفاً سرياً ، ولم يطلع عليه الآخرون خلال المرافعات . انما ، لا يحوي الملف أموراً خطيرة . يحمل بين طياته الرسالة الشهيرة التي أرسلها الملحق العسكري الالماني الى ايطاليا والتي تتحدث عن هذا النذل « د » (في الواقع ، سوف يتضح فيما بعد بأن الشخص المجهول هو « دوبوا » وهو جاسوس على نطاق ضيق) بالاضافة الى بعض وثائق قليلة الأهمية ، ومن بينها قرار الاتهام الذي كتبه « باتي دوكلام » طالباً من القضاة ادانة دريفوس .

هكذا ، استناداً الى ملف « باتي دوكلام » سوف يتخذ القضاة القرار المنتظر والمعلوم ان هذا الملف لم يسلم الى محامي الدفاع ولم يطلع عليه المتهم بالذات ـ

الادانة التاريخية : ٢٢ ك ١ ١٨٩٤م

في ٢٢ كانون الأول عام ١٨٩٤ ، أصدر المجلس الحربي في باريس بحق الكابتن ألفرد دريفوس ، الحكم بالتجريد العلني من الرتبة العسكرية وبالنفي لمدى الحياة . انه الحد الأقصى من العقوبة ، اذ ألغى قانون (١٨٤٨) الحكم بالاعدام لجناية سياسية .

وقد هلل الرأي العام بمثل هذا القرار ، حتى هذه اللحظات الحاسمة بالذات ، ما زال هذا الحكم التاريخي سرياً . لم يعلم أحد بخصوص الملف السري الذي استلمه القضاة ، قبل اتخاذ القرار النهائي . بالنسبة للجميع ، يعتبر دريفوس ، خائناً ، خائناً مريعاً . وهل يمكن اعتباره بصورة مختلفة ؟ والجدير بالذكر أن قضيته ما تزال غامضة وملغزة .

ـ موقف الزعيم الاشتراكي ـ جان جوريس

اشتهر جان جوريس بمقالاته السياسية الهادفة الى تحقيق السلام العالمي . فهو مؤسس الجريدة الباريسية « لومانيته » ويعتبر موقفه الصريح بالنسبة لقضية دريفوس ، هاما جدا . انه متمسك بالمبادىء الوطنية البعيدة عن الشوفينية[1] بهذا ، لا يمكنه السكوت عن هذا التصرف المشين والمريع الذي اقترفه ألفرد دريفوس برأي جان جوريس مرتكب الخيانة العظمى ، القتل رمياً بالرصاص ، هكذا يتضح لنا بأن جوريس حارب فكرياً وعقائدياً في سبيل إبعاد شبح الحرب عن فرنسا ، عام ١٩١٤ ، استناداً إلى رؤية سياسية واعية ، لقد تنبأ بوقوع الكوارث الفظيعة من جراء هذه الحرب العالمية المسعورة . بمعنى أوضح ، لقد هدف جوريس إلى توطيد العلاقات الدبلوماسية مع المانيا ، وقتذاك حباً بوطنه وبشعبه . عكس ما ذهب إليه قاتله ـ كما شرحنا ذلك في فصل سابق ـ مدعياً بأنه خان وطنه مطالباً الصلح مع دولة عدوة وبأنه باع نفسه لهذا العدو اللّدود ، إذن كيف نفسر غضبه العارم ، يوم اقتيد ألفرد دريفوس إلى المحاكمة بتهمة ارتكاب جريمة الخيانة العظمى ؟ بهذا ، لا نبالغ إذا اعتبرنا تصرف راوول فيلون ، غير مجد إطلاقاً ، بالنسبة لمصالح فرنسا . في الواقع لقد صدقت نبوءة جوريس ، فانهارت جميع المؤسسات الحيوية وسقط العدد الهائل من الضحايا في كافة المناطق المحاربة والمسالمة . انما ، هل يمكن تفسير غضب جوريس وقتذاك ، بشأن قضية دريفوس ، دليلاً عن حقده الشخصي ضد الضابط اليهودي ؟ ان جوريس ، انسان تقدمي ويستمد أفكاره من الهام انساني ، لذلك لا يصح اعتبار تصريحه العدائي ، برهاناً على احتقاره لشخص دريفوس بالذات . ان السبب الرئيسي هو وضع المتهم ، لقد وجهت الى اليهودي رسمياً تهمة ارتكاب جريمة الخيانة العظمى . هذا يعني بأنه يعرض البلاد الى دمار محتوم ، بحكم بيع أسرار عسكرية مهمة للعدو .

ان حب جوريس المفرط لفرنسا وللطبقة الكادحة ، جعله يفرط في دعوته السلمية وفي هجومه المتواصل ضد دعاة الحل العسكري المرتكز على الاسلوب الفاشي .

غضب جوريس في مجلس النواب وقال بنبرة حادة :

« هل يصح التسامح مع ضابط خائن . . بينما يتم اعدام جنود مساكين ، ورمياً

---

(١) تزمت وطني .

بالرصاص . . بلا رحمة أو شفقة ؟ » .

وقد أيد جورج كليمونصو رأي جوريس ، غير أنه أصبح فيما بعد ، من أشد المدافعين حماسة ، عن قضية دريفوس . انما ، لا يمكن تجاوز القانون ، بأي شكل من الأشكال . بالعكس لقد قررت السلطة القضائية انزال العقوبة الصارمة بحق دريفوس بحيث يصبح حكمه نموذجياً ومخيفاً .

وفي ٥ حزيران ١٨٩٥ م ، بدأ الاحتفال المنتظر : التجريد العلني من الرتبة العسكرية كان احتفالاً مأتمياً ، وقد ترك تأثيراً درامياً في نفوس الشاهدين جميعاً . بدأ هنا التنفيذ العسكري كأنه صادر عن سلطات عهود القرون الوسطى .

جميع سكان باريس ، حضروا الاحتفال ، في المدرسة العسكرية . كان يوماً بارداً ومشمساً في الباحة ، تجمع أربعة آلاف رجل ، بسلاحهم الكاملة ، يشكلوا « سياج العار » . . عند الساعة التاسعة صباحاً ، وصل دريفوس ، محاطاً بضباط ، وعددهم أربعة . . ثم وقف جامداً وسط مساحة مربعة الشكل ومترامية الأطراف ، حيث انتشر على جوانبها ، عدد وافر من العساكر .

لقد اتجه دريفوس نحو محور الساحة ، بخطى ثابتة ، صلبة وآلية . وقف أمام الجنرال الذي يقود هذا الاحتفال . ومن على صهوة الفرس ، قال اللواء بصوت جهوري : « ألفرد دريفوس . . أنت لا تستحق حمل السلاح . باسم الشعب الفرنسي ، اننا نجردك من رتبتك العسكرية » .

عندها ، اقترب منه ضابط صف ، وخلال دقائق معدودة ، بدت دقائق لا متناهية . . كأنها عدة ساعات . . انقض على زيه العسكري برتبة كابتن . . انتزع منه الكبية[1] ، ثم الشرائط المذهبة الثلاث ، ثم الكتفيتين[2] فالأزرار ، وشارات الأكمام والبنطال . بعد ذلك ، انتزع الحمالة ، أخرج السيف من غمده ، وبحركه سريعة وجافة ، حطمه على ركبته ، بعدها ، تحول دريفوس الى خرقة بالية ، الى مهرج بائس . . منذ هذه اللحظة ، بدت عليه علائم السجين المرهق ، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة . ولكن ، لم تنته بعد ، عملية الصلب . عليه الآن ، الابتعاد عن الباحة ، ليتوارى عن الأنظار . لذا ، يتوجب عليه المرور برفقة اللواء ، أمام فرقة

---

(١) قبعة عسكرية فرنسية الأصل .

(٢) الكتفية (نسيج مقصب على كتف الضابط) .

عسكرية ، مكونة من أربعة آلاف رجل ، ياله من درب طويل ، لامتناه ، فكان يصرخ من حين إلى آخر ، بنبرة يائسة : إني بريء ، وكان ينطق هذه الكلمة بصوت جاف ، بارد ، لا طابع له . لا عجب ان اعتبره الحاضرون مذنباً .

بعد هذا الاحتفال الرائع ، أخذ المسؤولون يهتمون الآن بحالة دريفوس المعتقل يجب تخصيص عناية مميزة . عادة ، يتم نقل المتهمين بالخيانة العظمى الى « كاليدونيا الجديدة » انما مثل هذه المعاملة ، تبدو ناعمة جداً . لهذا السبب ، أقر البرلمان قانوناً جديداً لن يذهب الضابط اليهودي الى « كاليدونيا ـ الجديدة ، بل سينقل الى سجن الأشغال الشاقة ، وسوف يبنى هذا السجن خصيصاً له ، في الغوييان ، أي في جزيرة الشيطان ، مقابل كايين .

المنفى : دريفوس في جزيرة الشيطان

ان جزيرة الشيطان ، جزيرة صغيرة ومهجورة ، لا تتجاوز مساحتها ، الألف والمئتي متراً طولاً ، والاربعمائة متراً عرضاً . فهي عبارة عن صخرة عارية حيث تنمو فوقها ـ رغم قساوة الطبيعة ورداءتها ـبعض أشجار جوز الهند . في هذا المكان القصي المنعزل ، حوشت وزربت السلطات الفرنسية المصابين بالجذام ، المعتقلين في سجن كايين . عندها ، طردت مصلحة السجون[1] المصابين بالجذام ، ليحل محلهم ألفرد دريفوس . شيدت المصلحة المذكورة كوخاً ، محاطاً بحباكين[2] ، وبلغ كل حباك ، ارتفاعاً ملحوظاً ، بحيث يمنع عنه نور الشمس . ثم اقترحت نظاماً خاصاً . .خاصاً جداً : سوف يرافق الكابتن المخلوع بشكل متواصل حارس صارم ومتيقظ ، ولديه مهمة واضحة .

أولاً : ملاحقة جميع تحركات السجين ، في جميع تنقلاته داخل هذا الكوخ .

ثانياً : عدم توجيه أي كلمة له . وسوف يتم تبديل الحارس ، كل أربع ساعات .

من الآن فصاعداً ، ستكون حياة دريفوس على الوجه التالي : عزلة مريعة ،لايمكنه التحدث مع أحد ، لامودة ولاصداقة حميمة . . وخاضعاً للمراقبة الدائمة.صحيح أن ـ المعتقلين في سجن كايين ، يتلقون تعذيباً جسدياً يفوق حد الوصف ، انما ؛ توصلت مصلحة السجون الى ايجاد طريقة أشد ايلاماً : التعذيب المعنوي .

(١) مصلحة السجون .

(٢) حباك أي خظيرة من قصب شد بعضه إلى بعض .

- التعذيب المعنوي -

جاز القول الآن ، بأن الدهر أتى على الضابط المخلوع ، فأهلكه جسدياً ومعنوياً . اصبح لا مبالياً بمرور الزمن وبأحكام الناس ، أشبه بمريض يئس من شفائه الأطباء ، فسلم أمره لمشيئة القدر ، منتظراً الرمق الأخير ، للخلاص من هذا التآكل النفسي المتواصل .

لقد رضي بهذا العيش الذليل ، في جزيرة مقفرة ، نائية ، اذ تحرر أخيراً من الميول التركية[٣] وبات صامتاً ، اشبه بجثة متحركة بين أسوار القبور وقد أصابه مرض الجوال[٤] فاصبح شارداً ، غير مكترث بالواقع المرير الذي يعيشه .

ماهي الوسيلة المتبعة ، لتنفيذ فكرة التعذيب المعنوي ؟

لقد ألفت مصلحة السجون كل اتصال بالعالم الخارجي . يحق لأهله فقط مراسلته ، ولكن ضمن مواضيع شخصية بحتة . ثم ، لا يمكنه استلام الرسائل العائلية بصورة مباشرة . ان مصلحة السجون تقرأ جميع الرسائل الموجهة إليه ، ثم تكتب مرة ثانية بواسطة موظف خاص بهذه الطريقة ، لا يقدر على مشاهدة خط زوجته أو خط أولاده أو ملامسة الأوراق التي لامسوها هم ، بأنفسهم . لا يحق له استلام سوى الصيغة التي كتبتها له مصلحة السجون طبعاً ، لن تنقل له العبارات العاطفية أو التشجيعية .

عاش دريفوس في الجزيرة المهجورة ، غريباً ، جاهلاً كل شيء . بدأت فرنسا تميل نحو الفتنة الأهلية والانقسام بسبب قضيته الملغزة . سوف يتصدر اسمه ، الصفحات الأولى من الجرائد وسوف يقضي على مستقبل العدد الوفير من رجال السياسة ، وسوف يجبر وزراء على تقديم استقالتهم وسوف تنهار وزارات ومؤسسات حكومية مختلفة . أما هو ، فلا يعرف شيئاً ويظل صامتاً ، خاضعاً لمراقبة هذا الحارس الأخرس ، الذي لا يفارقه لحظة واحدة . سادته فكرة ثابتة : لقد تركه الجميع ولم يعد أحد يهتم بمصيره .

غير أن عائلته ، لم تهمل أمره لقد أسس أخوته الثلاثة : ليون ، جاك وماتيو ، لجنة لاعادة النظر في قضيته . قاموا بمحاولات جريئة ، لكنها باءت بالفشل . وجهوا كتاب

(٣) الميول التركية أي المخاوف التي تنتاب الشخص الذي يخشى أن يهمل ويترك .

(٤) جوال وهو مرض عصابي يتمثل في مشي الانسان ، أثناء النوم .

التماس الى رئيس الجمهورية فليكس فور : كانت عناصر الالتماس غامضة جداً ، فكان الجواب اذن ، الرفض القاطع . بعد ذلك ، قام الاخوة الثلاثة ، بمبادرة حمقاء : بعثوا برسالة الى امبراطور المانيا غيوم الثاني ، طالبين منه الافصاح عن الفكرة التالية : لم يستلم الالمان أي نوع من المعلومات من دريفوس . واستعمل الاخوة الثلاثة في الرسالة تلك ، اسلوب الاستعطاف والتوسل . بالطبع ، لم يحرك الامبراطور ساكناً . ظل صامتاً ولا مبالياً ، على كل حال ، لو تدخل في الأمر ، لتفاقمت الأمور وأصبح مثل هذا الدفاع ، معرضاً للشبهة ، بشكل فاضح .

في الواقع ، لم يعد هناك أي مجال لمعالجة القضية معالجة ايجابية . فما باليد حيلة ظلت عائلة المتهم ، مقتنعة ببراءته . . وتعتقد بأن الأمور المتعلقة بسير التحقيق ، غير طبيعية . ولكن ، أنى لها برهنة ذلك . أما الرأي العام ، فاختلطت عنده الوقائع الحسية بالشائعات المتناقضة والمنتشرة بسرعة خاطفة . باختصار ، لايوجد أي أمل في تنجيته من هذا الحكم القضائي الصارم . بات الشعب الفرنسي مقتنعاً بحالة الاجرام واعتبره شخصاً أتياً[1] اذ لديه بالفطرة استعداد لبيع الوطن للحصول على المال الحرام .

رغم ذلك ، ظلت عائلته تبحث عن مخرج قانوني لهذه القضية اليائسة :

المفاجأة : المقدم بيكار

في ١ تموز ١٨٩٥ م ، حدث ما لم يكن في الحسبان لقد تم تعيين المقدم بيكار رئيس دائرة الاحصائيات ويبدو بأن هذا التعيين ، بعيد كل البعد ، عن قضية دريفوس .

يعتبر المقدم بيكار ، ضابطاً مرموقاً ، انه غير رافض ، والعكس هو الصحيح ، فهو مطيع ، يتقيد بالنظام بصورة مطلقة . وهو مقتنع كسائر المسؤولين ، بحالة اجرام الضابط اليهودي ألفرد دريفوس وبالنزاهة التامة للمجلس الحربي . . ويتميز بالانصاف . . حتى درجة التطرف .

عند استلامه مهماته الجديدة ، اطلع المقدم بيكار على الملف الشهير الذي يخص دريفوس . والذي أصبح شغل شاغل الشعب والمسؤولين الكبار ، على حد سواء .

عند اطلاعه على الملف المذكور ، اضطرب المقدم وقال بانزعاج ظاهر :

ـ أهذا كل شيء ؟ . . ألا يوجد شيء آخر ؟

كلا لن يكتفي بهذا الملف الحالي ـ سيحاول الحصول على معلومات جديدة بواسطة

(١) أتى القوم أي انتسب اليهم وليس منهم فهو أتي .

الوسيلة العادية ، أي بواسطة الخادمة باستيان ، التي ما تزال تعمل هناك ، في السفارة الالمانية :

في شهر آذار عام ١٨٩٦ م نقلت الخادمة الفرنسية من سلات السفارة الالمانية ، حوقا[1] ويعرف باسم الأزرق الصغير فكان ممزقاً الى اثنتين وثلاثين قطعة . وعندما تم تجميع هذه القطع المبعثرة ، انتفض المقدم بيكار صائحاً بدهشة بالغة :

ـ ماهذا . هذا يعني بأنه يوجد خائن آخر بيننا والا . . لا يوجد سوى خائن واحد . . وليس دريفوس . هاك ما يقوله الأزرق الصغير :

سيدي ، انتظر منك توضيحاً مفصلا بشكل أفضل بالمقارنة مع التوضيح الذي ارسلته لي ذات يوم ، حول القضية التي لم يبت فيها . وعليه ، ارجوك تسليمي اياه كتابة ، هكذا سوف اتخذ بفضله قراراً بشأن الأمر التالي : هل سأستمر في علاقاتي مع الدار « ر » أم لا ؟

واتضح بأن هذه الرسالة السرية ، موجهة من قبل عشيقة الملحق العسكري شارزكوبن الى ضابط فرنسي ويدعى المقدم استرازى .

واسمه الكامل : شارل وولسان استرازى ، وهو برتبة مقدم في فوج المشاة ٧٤ ، ويطابق تماماً صورة الخائن المطلوب . انه يملك جميع الصفات السيئة :

أ) انه مفتقر دائماً الى المال .

ب) لقد اغتصب مهر زوجته لينفقه على عشيقته .

ج) انه مقامر .

د) مدمن للخمرة .

هـ) يرتاد الأماكن المشبوهة . ماعدا ذلك . فهو رجل جذاب ، جميل المحيا ، ويتميز برجولة ملحوظة ، ويتصرف دون أن يتأثر بالآخرين ، في جميع الظروف والأحوال . أما مشاعره الوطنية فهي معتدلة جداً . . هاك بعض النماذج من رسائله الشخصية :

ان القادة في بلادنا ، هم عبارة عن مهرجين ، وسوف يضع الالمان كل لواء من جيشنا ، في مكانه المناسب ، في وقت بعيد . ويكتب في رسالة أخرى ، ما يلي : « لن أؤذي كلباً صغيراً ، ولكني مستعد أن أقتل ثلاثمائة ألف فرنسي بسرور فائق » .

لقد استلم المقدم بيكار في مكتبه ، هذه الرسالة مع الملف الخاص باسترازى ،

---

(١) حوق أي اطار المطاط أو جعطوقه . وهذا الطوق مطاطي داخلي .

عندما تأمل المقدم خط الرسائل ، صاح بدهشة بالغة ، والتزم فجأة الصمت القاتل . . ما دام هذا الذهول أكثر من دقيقة ، ثم صاح :

« الخط ، انه خط البوردورو نفسه »

عندها ، أدرك بيكار بأن القدر قد عينه لتحمل مسؤولية مريعة . انه يملك الآن بين يديه ، البرهان الحاسم ، عن براءة دريفوس ، وهو الوحيد ، العليم بهذه الحقيقة ، ولكن حتى يتيقن من رأيه ، تصور تجربة خاصة . سلم هذه الرسائل الى الخبراء في الخطاطة ، طبعاً دون ذكر اسم موقعها ـ وكان القرار التالي :

انه خط دريفوس بالذات . انه مذنب . وكان رد الفعل على الشكل الآتي :

« لماذا تقدم لنا من جديد . رسالة أخرى من دريفوس ؟ . . »

لم يعد هناك أي مجال للشك . وعلى الفور ، كتب المقدم بيكار ، رسالة الى الجنرال غونس ، معلناً عن هذا الخبر المثير . والجنرال غونس ، يعمل في مجلس قيادة . لكنه تلقى جواباً غير ملائم لرغبته :

« عليك تجنب الانطباعات الأولى . . من الضروري التصرف بحذر مطلق . الحذر ، الحذر : يجب وضع هذه الكلمة ، باستمرار ، نصب عينيك » .

لكن المقدم بيكار ، رجل عنيد طلب مقابلة الجنرال غونس :

ـ أيها الجنرال[1] ، يجب اجراء تحقيق حول استرازى . انه خائن ، بلا شك . يجب وضع حد لتصرفاته .

هيا ، يابيكار . أمامك ، مستقبل زاهر . سوف تحصل على ترقية . . قريباً . اصغ الي جيداً : الحذر ، الا أن بيكار ألح في طلبه . عندها ، استشاط اللواء غضباً وقال له بنبرة حادة :

ـ ليس الأمر بذي بال ، فما الضرر لو بقي هذا اليهودي في جزيرة الشيطان ؟

ـ ولكن ، عاجلاً أم آجلاً ، سوف يتم اكتشاف الحقيقة .

إذا لزمتَ الصمت . لن يعرف أحد . بعد ذلك طلب منه الجنرال ، الانصراف .

غير أن هذه الحقيقة المتوارية بين طيات أسرار مجلس القيادة ، سوف تطفو على السطح وسوف تصل تدريجياً الى أسماع الشعب .

في ١٥ أيلول ١٨٩٦ م ، نشرت صحيفة البرق مقالاً مثيراً ـ والمعلوم ان هذه

الصحيفة معادية بعنف للسامية ـ « الخائن ـ لقد تمت برهنة ادانة دريفوس بواسطة الملف » وتكشف الصحيفة عن وجود الملف السري الذى استعمل لادانته والذي استلمه قضاة المجلس الحربي فقط ، دون سائر المعنيين ، امثال المتهم ذاته ، ومحامي الدفاع .

بالطبع ، لم يضر الملف السري بدريفوس ، بل حصل ، من جراء هذا المقال ، رد فعل عكسي . لقد اتضح اخيرا وجود تصرف غير قانوني بالنسبة لسير القضية خلال المحاكمة القضائية . . هذا يعني ، وجب الآن نقضه[1] واعادة النظر .

طلب بيكار اجراء تحقيق ، لمعرفة هوية المسؤول عن افشاء السر والذي اتصل بالصحفي و لم يكن عدد المتهمين وفيرا ، يمكن حصر الدائرة بسهولة : لكن السلطة العليا تدخلت بسرعة : لا تحقيق . رغم ذلك ، استمر بيكار في البحث عن ادلة ضد استرازى . مرة اخرى تدخلت السلطة العليا : لن يتم اجراء اي تحقيق بشان استرازى . لكن المقدم بيكار ، صرف النظر عن هذا القرار ، وصمم على متابعة التحقيق للقبض على الخائن الحقيقي وتحرير البرىء من قيود المنفى ، في جزيرة الشيطان .

في هذه الحال ، قررت السلطة العسكرية التصرف بشكل حاسم . في الواقع ، اصبح بيكار بالنسبة لها ، مزعجا للغاية . انه رجل ذو مبدأ ومثل هذا الرجل المثالي ، يشكل خطرا اكيدا على قرارات السلطة وقتذاك . اذن ، لزم التخلص منه ، باي شكل من الاشكال .

في ١٦ نوفمبر ١٨٩٦ م ، طلب منه التخلي عن وظيفته في دائرة الاحصائيات ، واوكلت اليه مهمة هامة وعظيمة عند الحدود الجنوبية من بلاد تونس . وتم تعيين المقدم هنري بديلا عنه . فهو موضع الثقة لدى رؤسائه . استلم المقدم هنري مركز الرئيس المساعد في دائرة الاحصائيات . انه مطيع ومخلص جدا .

عندما اصبح المقدم هنري على رأس الدائرة ، بدأ بتزوير الملفات وكان يهدف من وراء ذلك ، تبرئة استرازى والقضاء على دريفوس وتعريض بيكار للشبهة .

بهذا ، يجدر طرح السؤال التالي : ماذا يجري الآن ، بعد ابعاد بيكار عن مسئوليته في دائرة الاحصائيات ؟ هل يمكن اعتبار المقدم هنري بكل بساطة . . خائنا ؟ هل هو

---

(١) نقضه أو ابطاله .

شريك استرازى في الخيانة ؟ ام انه استعان به بطريقة اكثر دهاء ودقة ؟ ربما اخفى عن الرأى العام الحقيقة ، تأدية للواجب العسكري . . اذ ، اعتبر رؤساؤه الضابط اليهودي مذنبا بهذا ، لزم اعتباره مذنباً ، ما عدا ذلك فهو كذب وادعاء ؟ عندها وجب عليه فصل الشخص المؤيد لدريفوس وابعاده ، ثم تغطية الحقيقة وتحطيم كل معارضة .

جاز طرح السؤال التالي : هب يحمي المقدم هنرى خائنا . . معتقداً بانه يفعل ذلك باسم الوطن ووفاء لوطنيته ؟ يبدو مثل هذاالتساؤل تافهاً ، انما سوف يسود الاضطراب النفسي سير التحقيق ، المتعلق بقضية دريفوس . . منذ البداية . . حتى النهاية .

رغم ذلك ، ظلت قضية دريفوس ، مبهمة وبعيدة كل البعد عن مدارك الجمهور الفرنسي . جل ما يعرفه الجمهور هو الأمر التالي : ان ألفرد دريفوس ، رجل خائن . . فهو مذنب . لقد ارتكب جريمة الخيانة العظمى ، أما تسليم ملف سري لقضاة المجلس الحربي ، فهذا أمر اعتيادي للغاية . ولا أحد يعرف حتى الآن ، شخصا باسم استرازى . انما سوف يذاع صيته في القريب العاجل .

لقد كان بيكار يعاني الضجر في تونس ويشعر بالخوف على حياته ، لذلك سلم الملف كاملاً إلى أصدقائه . هكذا ، وقع ملف بيكار ، بين يدي نائب رئيس مجلس الشيوخ ، ويدعى شورركستنر .

انتشرت فضيحة استرازى . . بالمصادفة

سوف تنتشر فضيحة استرازى ، بواسطة عائلة دريفوس . . حدث ذلك بالصدفة . . خطر في بال الاخوة الثلاثة ، تصوير اللائحة المفصلة أي البوردورو ، ثم توزيع الصور الفوتوغرافية كمنشورات في شوارع باريس على أمل العثور على شخص قد يتعرف بالصدفة على خط كاتبها . ياللغرابة ، لقد نجحت الخطة . في بوليفار مونمارتر ، وقع بصر السيد كاسترو على المنشورة المصورة فوتوغرافيا وصاح باستغراب :

« أجل ، أعرف جيداً هذا الخط ، فهو خط أحد زبائني ، المقدم استرازى » .

والسيد كاسترو ، هو بورجوازي معروف في الاوساط المالية ، صاحب بنك وكان يهمّ ـ بالصعود الى العربة العامة ، عندما اقترب منه أحد أخوة دريفوس وقدم له الصورة الفوتوغرافية .

عندها ، نشر ماتيو دريفوس رسالة مفتوحة الى وزير الحربية ، موجها التهمة ضد

استرازى . بعد ذلك ، بدأ التحقيق في هذه القضية الملغزة ، بمنظار مختلف . استعمل استرازى اسلوباً هجومياً للدفاع عن نفسه ، معلنا على صفحات الجرائد غضبه الشديد ونقمته على هذه العصابة من اليهود التي لوثت شرفه .

وكلف اللواء بليو ، لاجراء التحقيق في هذه القضية الجديدة ، وهو لواء نشيط ومطيع طاعة عمياء لرؤسائه لذلك ، لايمكنه اعتبار الضباط السبعة التابعين للمجلس الحربي مخطئين بأي شكل من الأشكال . فهم في نظره ، الحقيقة المطلقة وبالتالي ، لايجوز التردد في تلبية أوامرهم الهادفة الى تعزيز هيبة السلطة الوطنية . لقد ختم تقريره الشخصي بالشكل التالي :

« رغم وجود بعض الهفوات في حياته الخاصة لايمكن اعتبار استرازى متهماً بالخيانة ويجب تبرئته » .

بالعكس ، طلب القيام بخطوات سريعة للقبض على بيكار الذي اقترف ذنباً خطيراً للغاية : لقد سلم ملفاً سرياً الى رجل مدني ـ هيا للقبض على بيكار ، سوف يقدم الى المحاكمة .

انما بدأ الرأي العام بالانفعال . لقد طفح الكيل . ما هذا ؟ هل يوجد جاسوس آخر ؟ ما معنى كل هذه الأمور ؟ حدث نقاش في مجلس النواب . قال ميلين رئيس الوزراء مطمئناً :

« إني أعلن على الفور ، الكلمة الفاصلة في هذا النقاش : ان قضية دريفوس . . غير موجودة أصلاً » .

تعالى التصفيق ونالت حكومته الثقة بالاجماع وامتنع التصويت ثمانية عشرة صوتاً . مع ذلك ، يجب الاهتمام بمشكلة استرازى . سوف يستدعى للمثول أمام المجلس الحربي وذلك في ١٠ يناير ١٨٩٨ م لقد أكد ثلاثة خبراء في الخطاطة ، بأنه غير متورط في كتابة البوردورو فليس هو الكاتب المزعوم . ولكن مؤخراً اتضح بأنهم قدموا تقرير التبرئة استناداً الى أوامر خفية . وفي اليوم التالي ، أي في ١١ حزيران ، أعلن رسمياً عن تبرئته بالاجماع هذا يعني بأنه بات من الآن فصاعداً ، في مأمن من أي ملاحقة ، بمقتضى القانون الفرنسي . حتى ولو أثبتت ادانته لاحقاً ، حتى ولو اتهم نفسه وأقر بذنبه ـ كما حصل ذلك فيما بعد ـ فلم تعد العدالة قادرة على معاقبته ، انه بريء بصورة دائمة وحاسمة .

لقد ولى القلق الى غير رجعة . بوسع ميلين ، رئيس الوزراء ، النوم الآن بملء جفونه ، مرتاح البال . . بكل معنى الكلمة : لم توجد أصلاً قضية باسم دريفوس . . حتى ولو اعتبرت موجودة . . فقد انتهى أمرها في الوقت الحاضر . لقد تم اجهاضها وهي ما تزال داخل البويضة . . مع تبرئة استرازى . عم الفرح المسؤولين القياديين في وزارة الحربية : من الآن فصاعداً ، لن يذكر أحد ، اسم دريفوس .

انما تجرى الرياح بما لاتشتهي السفن . لقد خاب ظن العسكريين . فجأة ، بعد يومين . . انفجرت قضية دريفوس من جديد . . اشبه بقنبلة موقوتة .

في صبيحة يوم ١٣ كانون الثاني ١٨٩٨ م ، تهافت الباريسيون على شراء الجرائد اليومية : « الفجر » (لورور) . ويتصدر الصفحة الأولى ، أشهر مقال في تاريخ الصحافة الفرنسية ، وهو بعنوان : « اني أتهم » ، وصاحب المقال التاريخي هو الكاتب القصصي الشعبي اميل زولا .

كان زولا عصر ذلك ، متربعاً على عرش الشهرة والجاه . . استطاعت عائلة دريفوس اقناعه بتسخير نفوذه في خدمة الحقيقة . . ما هو فحوى هذا المقال الذي تعلقه الأيدي على الجدران في جميع أنحاء باريس ، بينما تنزعه أياد أخرى وتمزقه ؟ يحتوي المقال على النقاط التالية :

أولاً : بطلان الأدلة[١] ضد دريفوس .

ثانياً : تسليم الملف السري .

ان العدالة فوق الجميع وهي ضد النظام . . ولن يتراجع أنصارها عن تطبيق هذا المبدأ مهما بدا الأمر مكلفاً ومستحيلاً . فهذا هو جوهر قضية دريفوس .

أما من الناحية الشكلية ، بالأمر مختلف تماماً . لقد حدق ما لم يكن بالحسبان : تفجرت فجأة الأحقاد وانتشر الهذيان الكلامي . وقد بلغت الحركة المعادية للسامية ذروتها من العنف والكراهية . انما ، لحسن الحظ ، لم تحول هذا الحقد الى مصادمات جسدية ولم تسبب مذابح على طريقة البوغروم[٢] أيام روسيا القيصرية . انما بقي كل شيء محصوراً ، ضمن دائرة من الكلمات . ويالها من كلمات ، لم ينطلق بمثلها سوى هتلر والنازيين ، خلال هجومهم الانفعالي ، ضد أعدائهم في العالم .

---

(١) يبدو بأن الكاتب بلهار يميل الى تبرئة دريفوس من تهمة الخيانة العظمى رغم صدور الأدلة الثبوتية من المحكمة الجنائية ، وقتذاك .

(٢) ذبح اليهود وهي حركة قامت بها السلطات القيصرية لاستئصال اليهود .

ثالثاً : « الأزرق الصغير » .
رابعاً : قضية استرازى .
خامساً : الوثائق المزورة من قبل المقدم هنري .

في الواقع ، يتضمن المقال الصحفي قرار اتهام ، مرهقاً ، وبرهنة لا تدحض ، وفي الختام يقول اميل زولا :

« عند توجيه هذه التهم ، أدركت بأني أعرض نفسي لامكانية الوقوع تحت طائلة القانون الذي يعاقب جريمة القذف . واني أعرض نفسي عمداً . فليحاولوا استدعائي الى محكمة الجنايات ولتعقد الجلسة علانية ، في وضح النهار . اني انتظر » .

الآن ، بدأت قضية دريفوس تتجه نحو الخط الدرامي . في الحال ، انقسم الرأي العام الى حزبين متخاصمين . . ودام هذا الانقسام عدة سنوات ، بحيث تفصله حدود خفية ، فهي حدود الكراهية التي لاتحترم الجماعات التقليدية . انها الكراهية العمياء التي تخترق نفوس العائلات والصداقات الأكثر أصالة ، لذلك الأزواج ، في الواقع ، ما هو سبب الخلاف ؟

لم ينشب الخلاف لأجل رجل فقط . . بل لأجل مبدأ .نشب الخلاف بين عقيدتين ، أو بالأحرى حول ل فلسفتين غير قابلتين للتفاهم . . فهما متناقضتان اصلاً . أجل . أصبح دريفوس رمزاً ، فريق ، يعتبره مثير الفتنة ، ان وجوده يسبب اضطراباً داخل بنية الجيش ، اذ يعتبر نظام الجيش مقدساً بالنسبة لأعداء دريفوس[1] واذا تمت تبرئة دريفوس ، هذا يعني بأن المسؤولين الذين ينتمون الى أعلى السلطات العسكرية الفرنسية قد ارتكبوا خطأ فادحاً ضده . بهذا ، لن يضحوا بالمؤسسة الجوهرية والأكثر أهمية ، ألا وهي الأمة . . لأجل شخص واحد .

بالنسبة للفريق الآخر ، فنظرته مناقضة تماماً لنظرة الفريق الأول . يعتبر انصاره العدالة مقدسة ، وهي فوق الجميع . لقد تم ادانة شخص بريء . فهذه هي النقطة الأكثر أهمية . ان العدالة مطلقة . . قائمة بذاتها . انها فوق كل اعتبار حتى فوق داعي المصلحة العليا[2] ربما أدى رد اعتبار دريفوس ، الى نشر الفوضى وهدم بنية الجيش بأسره . . رغم ذلك ، يجب تنفيذ فكرة رد الاعتبار دون أي تردد .

---

(١) ويعرفون باسم « أنتي دريفوساو » .
(٢) حجة تدعيها الدولة لتبرر عملاً غير قانوني غالباً .

أما الصحافة الفرنسية ، فكانت تنشر يومياً أخباراً ضد السامية اليهودية وتحث الناس على قتل اليهود وعلى الفتنة . هاك ما كتبته « لاريفودو دوموند » (أي مجلة العالمين)[٢] .

« يجب ربط دريفوس على عمود التشهير[١] ، في وسط باحة الكونكورد ، ليتسنى لسكان باريس ، المرور أمامه ، بشكل موكب ضخم ، كي يبصقوا على وجهه » .

وفي صحيفة « حرية الكلام (لاليبر بارول) طلب الكاهن كرو» « مافحواه » يجب ان ندوس بأقدامنا على هذا الجلد اليهودي ، صبحاً مساءً » .

بينما يطرح قارىء ، السؤال التالي : « انا ننتظر مذبحة اليهود . فمتى يتم ذلك ؟

ويمهر السؤال بالامضاء التالي : « مواطن يتفهم مجزرة سانت برتلمي »[٢] لم يقتصر الهجوم العنيف على يهود فرنسا بل تعداه الى انصار دريفوس ، الذين لا ينتسبون الى الديانة اليهودية . وكان الكاتب اميل زولا ، الهدف الرئيسي من قبل الحاقدين . فوجهوا اليه الشتائم المبتذلة ، على اختلاف ألوانها وأوزانها . حتى في أوساط العائلات الراقية ، بات اسم « المبولة » « لوزولا » .

أما الصحفي هنري روشفور ، فهاك ما يوصي به الشعب الفرنسي لمعالجة أمور اتباع اعادة النظر في دعوة دريفوس :

« على الجلاد المعذب ، قطع أجفانهم ، ثم تثبيت السرطان البحري السام ، على مقلة العين ، كي يقضم البؤبؤ والجليدية ، لهؤلاء العميان الأراذل » .

من الآن فصاعداً ،ستكون وتيرة الحياة الفرنسية على الوجه التالي :

مجهابهة تامة ، عديمة الرحمة ، لكنها محصورة بين أبناء الطبقة البورجوازية . بينما فئة الشعب ، المكونة من الفلاحين والعمال ، ستظل على الحياد . والسبب واضح :

لاتتعلق قضية دريفوس بمعارضة مصالح ، انه نزاع مجرد وعقلي . لم تنشب المعركة الكلامية لأجل فكرة بل لأجل استحقاقات .

(١) وهو عمود يربط المتهم أو المحكوم لعرضه على الناس

(٢) تلميحاً الى مجزرة سانت برتلمي الرهيبة بين البرتستانت والكاثوليك لأسباب سياسية وكان التعصب الديني حجة وتبريراً لتحقيق مآرب شخصية بحتة .

ـ قضية اميل زولا ـ

هل يصبح اميل زولا منبوذاً من المجتمع البورجوازي الفرنسي . . مثل المنبوذين في بورما وجنوبي الهند . . بسبب عناده المتواصل في المطالبة بتبرئة المتهم بالخيانة العظمى ، الضابط اليهودي : ألفرد دريفوس ؟

ان فرنسا الآن ، ممزقة شر تمزيق . في هذا الجو المشحون بالأحقاد الدفينة ، بدأت محاكمة الكاتب القصصي اميل زولا وذلك في ٧ شباط عام ١٨٩٨ م . وسجل هذا اليوم ، تصعيداً ملحوظاً في العنف .

قرر الجيش ملاحقة زولا بتهمة القذف في حقه ، لكنه فعل ذلك باسلوب بارع للغاية . لقد وجه اليه اللوم فقط ، لأنه ذكر في مقاله بأن تبرئة استرازى من قبل المجلس الحربي ، انما صدرت بناء لأوامر خفية . ولم يستطع زولا برهنة هذا التأكيد الخطر . لهذا السبب ، صدر الحكم في ادانته . واكتفت المحكمة في النظر في قضية استرازى : هل هو في حالة اجرام أم هو بريء ؟ وقد أهملت المحكمة عمداً دعوى دريفوس .

منذ البداية ، حدد رئيس المحكمة بصرامة ، الخطوات الواجب اتباعها . واذا حاول زولا أو أي شاهد آخر أو أحد محامي الدفاع ، ذكر موضع دريفوس ، أجابهم الرئيس على الفور ، مقاطعاً بنبرة جافة ، مردداً عبارته ـ وقد اصبحت مشهورة في ملف القضاء : « لن تطرح هذه المسألة على بساط البحث » .

قبل افتتاح الجلسة ، تم الاتفاق على معالجة الأمور الثانوية والاضافية ، دون ذكر هذا الاسم اللعين : دريفوس . أما زوجته ، السيدة دريفوس ، فلم يسمح لها بذكر كلمة واحدة رغم ذلك ، احتدم النقاش عندما أعلن المقدم هنري ، أثناء الادلاء بشهادته ، عن الفكرة التالية : « توجد بين يدي الأدلة الحاسمة ، التي تثبت حالة اجرام دريفوس » .

عندها ، وجد الرئيس نفسه ، أمام الأمر الواقع ، فأجبر على التحدث عن القضية .

لكن « بيكار » الموجود في القاعة ، انتصب واقفاً وقال بانفعال :

ـ انها وثائق مزورة . . وأنت تعرف ذلك تماماً .

ـ انك تكذب .

- انك تكذب .

وأسفرت المبارزة عن نتيجة التعادل بينهما . لاغالب ولا مغلوب . ولكن انتقلت المناقشة من وراء المنصة الى الحضور ، فعم القاعة ، هياج شعبي شديد . وبدأت رابطة الوطنيين » مع رئيسها ديروليد ، بالضجيج والتهديد : « الموت غرقاً لليهود . الموت لزولا » .

وفي نهاية المطاف ، جاء دور كليمونصو ، مدير صحيفة الفجر (لورور) ليدافع عن نفسه ، فختم مرافعته وسط الصفير الحاد . بحركة مسرحية ، رفع ذراعيه عالياً مشيراً بأصبعه الى الصليب المعلق على الجدار فوق منصة القضاة :

« فهاك الصليب . . رمز المحكوم عليه . .لقد علق خصيصاً فوق رأس القاضي كي لا يزعجه هذا المشهد . يجب وضع هذه الصورة عند الطرف الآخر من القاعة ، كي يراها القاضي قبل اصدار قراره ، فتكون بمثابة له ، المثال الحي للخطأ القضائي » .

في ١٣ شباط ١٨٩٨ م ، أصدرت المحكمة قراراً بسجن زولا سنة واحدة مع غرامة نقديه ، قدرها ثلاثة آلاف فرنكاً فرنسياً . ونزع منه ، وسام الشرف . بعد ذلك ، قرر اميل زولا السفر الى انكلترا .

هكذا ، سجل أعداء دريفوس ، انتصاراً ساحقاً ، في بداية عام ١٨٩٨ ، لقد تحطمت جميع محاولات أنصاره ، على صخرة الآلة السياسية والقضائية . وأخذ منجل العقاب بحصد الأشخاص الذين اختاروا الصف الأمامي من المعارضة . ويمكن تلخيص الحالة بالشكل التالي :

أولاً : زولا في المنفى .

ثانياً : تم توقيف المقدم بيكار وينتظر محاكمته .

ثالثاً : في الجيش ، بدا الواشون بالافصاح عن أسماء العسكريين المؤيدين لقضية دريفوس . وعلى الفور تم القبض عليهم ونالوا العقاب الصارم .

باختصار ، انه انتصار النظام .قسم من الشعب الفرنسي ، ابتهج لهذه النتيجة الحاسمة وقسم آخر ، أصيب بخيبة أمل . جميع الفرنسيين تأثروا بهذا الأمر ، ما عدا شخص واحد . ما زال هذا الشخص منفياً ، منذ ثلاث سنوات ، في جزيرة الشيطان ، حيث يرافقه ، في عزلته الراعبة شاهد أخرس . . ويلاحقه بنظراته المريبة

ليلاً نهاراً . . فلا يفارقه لحظة واحدة . . ولا يوجه اليه كلمة واحدة .

هذا الشخص المنعزل عن العالم ، لا يعرف شيئاً . . وبالتالي لا يعرف شيئاً عن موعد العودة الى وطنه . . ربما لن يرجع أبداً . برأيه ، لم يعد له وجود بالنسبة للآخرين : انه ميت .

في عام ١٨٩٨ م ، أي في هذه الأجواء المضطربة المشحونة بالأحقاد والمبارزات الكلامية العنيفة ، أجريت الانتخابات التشريعية . لقد بلغت الحملة الانتخابية ذروتها في العنف. رغم ذلك ، لم يطرأ أي تغيير يذكر ، على مجلس النواب الجديد . ظل هذا المجلس معادياً لفكرة اعادة النظر في قضية دريفوس ، تماماً شأن المجلس النيابي السابق .

وفي ٧ تموز ، أعلن وزير الحرب الجديد ، عن نبأ مثير للغاية تلبية لاستفسار رسمي امام النواب الخاضعين سلفاً لآرائه المختلفة ، توصل هذا الوزير الجديد الى البرهنة عن حالة اجرام دريفوس ، بناء على ذلك ، أخذ يقرأ عليهم الوثائق الثلاث ، التي لم يسبق نشرها . على الفور ، انتشر الهذيان ، داخل البناء النصف الدائري . وقد تم الاتفاق بالاجماع على تنفيذ القرار التالي : لصق الخطاب الرسمي على جدران جميع البلدات ـ الفرنسية . في الواقع ، لا تحتوي الوثيقتان أي برهان حي ، أما الوثيقة الثالثة فهي مزورة ، لقد قام بعملية التزوير المقدم هنري ، الذي تم ترفيعه مؤخراً .

هناك شخص آخر ، يعرف الحقيقة وهو المقدم بيكار . لقد صمم هذا الأخير ، على المغامرة بحياته في سبيل الافصاح عن السر الدفين . بهذا ، وجه بيكار الى وزير الحربية ، رسالة مفتوحة حيث يتهمه باستعمال وثيقة مزورة .

كانت النتيجة فورية : لقد تم استدعاء بيكار للمثول أمام القضاة . عندها ، كلف الوزير كافنياك أحد مساعديه وهو الكابتن كينييه ، لتحضير ملف ضد بيكار . ويحتوي الملف الذي سلم الى الكابتن كينييه ، الوثيقة المزورة الثالثة ، التي تلاها وزير الحربية قبل أيام ، أمام النواب .

وحسب العادة ، فحصها الكابتن . اعترى وجهه الاصفرار . . اذ يتعلق الأمر بالرسالة الأخيرة ، فهي في الواقع ، قطعتان مختلفتان ، وقد تم الصاقهما بدقة لا متناهية . اذن ، لم يكن المقدم بيكار واهماً : انها وثيقة مزورة .

كم كانت دهشة وزير الحربية عظيمة ، عندما علم بحقيقة الأمر ، بواسطة الكابتن

كينييه . أما الوزير كافنياك ، فهو نقي السريرة ، ولم يخطر في باله قط مثل هذا التزوير وبرأيه أن التهجم على سمعة الجيش هو ضرب من الوشاية ، تقوم بها جماعة من قطاع الطرق ومن اليهود . لكنه فوجىء بالأمر الواقع . هذه الزمرة من اللصوص المسلحين لا تدعي زوراً وبهتاناً . . بل انها صادقة . وفوراً ، انهارت أعصابه وتحطمت آماله . فانتابه شعور من اليأس والتشاؤم .

على الفور ، استدعى وزير الحربية ، رئيس قسم الاحصائيات . في البداية ، أنكر المقدم هنرى ، كل شيء . . لكنه أخذ يضطرب بعد فترة وجيزة . . ثم اعترف بالحقيقة ، انهدا وانهار :

« أجل ، انها وثيقة مزورة ، ولكن دريفوس مذنب . . فهذا أمر بدهي . . اذن لا داعي للقلق كان الملف رقيقاً ، فاضطررت الى تكثيفه ، لهذا السبب أضفت اليه بعض الأدلة الحسّية . . اذ كان يفتقر الى مثل هذه العناصر . آه ، ليس الأمر بذي بال ، لم أقم الا ببعض اللمسات الخفيفة . ثم ، أنت تعلم تمام العلم يا معالي الوزير ، بأن دريفوس خائن وقد أثبتت ادانته . واعتقد بأني أحسنت التصرف » .

(انتحار المزيف)

تابع المقدم هنري اعترافاته . أعترف بكل شيء . لم يكتف بتزوير الوثائق التي تدين دريفوس ، بل أخفى وزور الوثائق التي تتهم صراحة استرازى . قام بهذا التزوير ، لتعريض المقدم بيكار للشبهة . وكي ينفذ مثل هذا العمل الصعب بدقة ، استعان بمزيف محترف ، والمعلوم أن هذا المزيف قد قبض عليه مراراً ، وحكم عليه عشر مرات بتهمة النصب والاحتيال . . انما لم يستطع القضاة استجوابه إذ قتل نفسه شنقاً ـ بعد أيام معدودة فكان التحقيق سريعاً جداً ، وانتهى الى التأكيد بأن المزيف مات انتحاراً .

وفي اليوم التالي ، أي في ٣٠ آب ١٨٩٨ ، نشرت وكالة « هافاس » البلاغ الرسمي التالي : « اليوم في ديوان وزير الحربية ، اعترف المقدم هنري ، بأنه هو بذاته صاحب الرسالة التي اعتبرت خطأ رسالة مكتوبة بيد دريفوس . وعلى الفور أمر معالي وزير الحربية بالقاء القبض على المقدم هنري ، ثم اقتيد الى حصن مون فاليريان .

(انتحار آخر)

انفجرت القنبلة . . بدت الحياة السياسية الفرنسية حتى الحياة ذاتها . . متجمدة أو

معلقة . ساد الصمت في كل مكان . . حتى أنصار دريفوس ، أصيبوا بالذهول .
وبات ـ السؤال التالي يتردد على الشفاه ، بصورة لا واعية : « ولكن : لماذا تصرف بهذا الشكل ؟ » لماذا ؟ لن يتوصل أحد الى اكتشاف السر . وفي نفس اليوم ، عند بعد الظهر ، وقعت حادثة أكثر إثارة من الحادثة السابقة ، لا بل تعتبر حديث البلاد ، من أقصاها الى أدناها ، أما النبأ المثير وغير المنتظر ، فهو التالي :

« مات المقدم هنري . انتحر في حبسه المنفرد ، بعد أن ذبح نفسه بشفرة موس » .

عندها ، انتشرت حالة من الاضطراب والرعب في صفوف اعداء دريفوس .
وبدأت تتساقط الرؤوس ، جميع رؤوس مجلس القيادة ، الواحد تلو الآخر : استقال أولاً الجنرال بوادفر ثم الجنرال بليو ، ثم وزير الحربية ، كافنياك . . وتبع ذلك ، رقص دائري من الاستقالات بين وزراء الحربية : استقال أربعة وزراء في حقبة لا تتجاوز الأسابيع السبعة . . ابتداءً من شهر ايلول حتى تشرين الأول .

لقد أنهكت الهزيمة أخصام دريفوس ، فخارت عزائمهم لكنها لم تقض عليهم نهائياً . . بالعكس ، استعادوا بسرعة نشاطهم السابق . ان المشتكي الرئيسي ضد دريفوس ، قد قبض عليه في حالة تلبس بجناية التزوير وحتى بجناية الخيانة . . لايهم ، أخذ المسؤولون في مجلس القيادة ، يقدمون الاستقالة ـ الواحد تلو الآخر . . لا يهم ، ان الوقائع تناقض مواقفهم المختلفة . . لا يهم ، شرع أخصام دريفوس ، التهرب ، متخذين الجبهة الأمامية ، وسيلة للهرب ، انه هروب عكسي . استعملوا برهنة ذات منطق تافه ، ويمكن تلخيصها بالشكل التالي :

أ) يعتبر دريفوس مذنبا حتى ولو كان بريئاً .

ب) انه الجاني ، لأن الجيش بذاته قد أصدر حكماً في ادانته ، والجيش دائماً على حق .

بينما أشادت الجرائد المعادية للسامية بهذا « الوطني الزائف » أي بالمقدم هنري لقد خصص له شارل موراس هذا الرثاء المؤثر والمدهش حقاً :

« هذا الرجل الشعبي ، قد اختلق وثيقة مزورة لأجل المصلحة العامة . انه رجل عظيم خادم الدولة البطولي . سوف تعتبر وثيقته المزورة البائسة ، من أعظم أفعاله الحربية » .

نظم أعداء دريفوس ، اكتتاباً وطنياً للتبرع لأرملة المقدم هنري . بهذه الطريقة ، حصلت اللجنة هذه على مبالغ ضخمة من المال . على كل حال ، فالتشجيع الأساس

صادر عن السلطة العليا ، ألا وهو الوزير كافينياك ، إذ صرح قائلاً ، عند تقديم استقالته :

« مازلت مقتنعاً بحالة اجرام دريفوس وما زلت مصراً على محاربة فكرة اعادة النظر في القضية » .

لحسن الحظ ، لم يؤيد جميع الناس رأي وزير الحربية . لقد طالبت الأغلبية الساحقة اعادة النظر في قضية دريفوس ، وفي ١٩ تشرين الأول عام ١٨٩٨ م ، اعتبرت محكمة التمييز ، هذا الاقتراح في اعادة النظر ، ممكناً قبوله ، لقد وافقت عليه بناء لطلب رسمي ، قدمته عائلة دريفوس ولكن ، شرط أن تجري تحقيقاً مسبقاً .

انما ، هناك شخص مسئول قد رفض المساهمة في التحقيق ويدعى استرازى . في نفس اليوم الذي توفي فيه المقدم هنري ، حزم استرازى أمتعته للسفر ، واتجه الى هولندا . وسوف يرسل استرازى لاحقاً ، من هناك ، رسالة إلى صحيفة الصباح « لوماتان » حيث يعتبر بأنه هو بذاته ، صاحب اللائحة المفصلة المعروفة باسم « لوبوردورو » .

ـ الانفراج ـ

في ٣ حزيران ١٨٩٩م ، ألغت محكمة التمييز الحكم الصادر عن المجلس الحربي في باريس واستدعت دريفوس للمثول أمام المجلس الحربي في رين ، في اليوم التالي ، عاد اميل زولا من المنفى ، وتم الافراج عن المقدم بيكار ، الذي دخل السجن وبقي هناك ، لمدة تناهز السنة بكاملها .

هناك ، عند الطرف الآخر من العالم ، في جزيرة الشيطان ، فتح أحد الحراس فمه للمرة الأولى ، بعد أن مارس مهمته في الحراسة لمدة أربع سنوات متواصلة دون أن ينبس ببنت شفة : « دريفوس ، اتبعني . . سوف تعود إلى فرنسا » .

في هذه اللحظة بالذات أدرك دريفوس تمام الادراك بأنه غير منبوذ كلياً عن العالم ، واتضح له بأن وراء هذا الصمت المطلق ، يوجد الآخرون . العدد الوفير من الآخرين . . الذي لم ينسى ولم يهمل قضيته دقيقة واحدة .

ـ عودة دريفوس من جزيرة الشيطان ـ

في ١ تموز ١٨٩٩م ، وصل دريفوس الى رين ، للمثول أمام المجلس الحربي .

بدأت المرافعات في ٧ آب وسوف تستمر حتى ٩ أيلول . والمعلوم أنه استعاد زيه الرسمي ، بعد أن ألغت محكمة التمييز فعالية التجريد العسكري ، مع اصدار حكم التبرئة .

ظهر دريفوس من الباب الصغير الخلفي . . فكانت لحظات مؤثرة للغاية . هاكه أخيراً ذلك الشخص الذي جعل من الشعب الفرنسي ينقسم على نفسه ويتخاصم لسنوات عديدة .

للوهلة الأولى ، أصيب الحاضرون بالذهول التام اذ صعقتهم هذه الآثار المريعة التي ولدتها قساوة الاعتقال . هاك ما كتبه أحد الشهود : « إنه عبارة عن خرقة بشرية بالية ذراعان مهزولتان[1] ، ركبتان نحيلتان ، كأنهما تخترقان قماش البنطال . . لشدة نحولها . أما عيناه المحدقتان بالحاضرين وراء نظارة بلاماسكتين ، فهما مفعمتان حيوية ، بفضلها ، بدا هذا الوجه الجثي[2] حياً » .

بدأ أخيراً ، الاستجواب . وهنا أيضاً ، أصيبح الحضور بالدهشة البالغة . في الواقع ، لقد نسي الشعب دريفوس . ولكن ، للأسف ، ما عدا مظهره الخارجي ، فلم يطرأ عليه أي تغيير يذكر . انه يتميز دائماً بهذا الاستعلاء ، وهذه الحركات الفظة ، بالاضافة الى صوته النحيل الجاف ، الأحادي الوتر ، ولا عجب أن لقب بصوت الزنك .

لقد كدر دريفوس القضاة وأزعجهم . هذا واضح . . وأغاظ أعداءه . . والأنكى من هذا وذاك هو موقف أنصاره من تصرفاته الشاذة . . لقد أذهلهم وأرهقهم . فكتب أحدهم في هذا الصدد ما يلي : « لو بقي دريفوس في فرنسا طول المدة المتعلقة بالقضية لما وجد أنصاراً له ، يدافعون عنه بحيوية وحماس ، كما يفعل أنصاره الحاليون ، في الوقت الحاضر » .

ولم يصدر أي قرار حاسم بالنسبة للدعوى . استمرت المرافعات أو بالأحرى ، توالت حالات التغيب عن المرافعات ، إذ لم يتوصل المسؤولون الى أي رأي واضح ، طول هذه الفترة الطويلة من صيف ١٨٩٩ .

وتوالى دخول القادة العسكريين كل في زيه الرسمي ، الواحد تلو الآخر ، الى حرم

---

(١) بالمعنى الطبي ، مصابتان بالضمور .
(٢) أي المتعلق بالجثة أو جيفي .

المحكمة . واتفقوا جميعاً على تجنب ذكر الموضوع الجوهري في القضية . اكتفوا باصدار التصريحات الوطنية الفارغة والمفخمة . ثم أقسموا اليمين ، وقد وضعوا اليد على القلب وعلى وسام جوقة الشرف ، معلنين بنبرة حماسية :

- ان دريفوس مذنب -

ان شهادة اللواء مرسييه ، وزير الحربية السابق ، أثرت أيما تأثير ، على القضاة ، انها شهادة بسيطة ، واضحة . . ذات الطابع العسكري المألوف . ان اللواء مرسييه ، بنفسه ، أمر باعتقال دريفوس . اذن ، اما دريفوس المذنب ، اما هو ، اذا أعلن القضاة عن تبرئة دريفوس ، هذا يعني بأن اللواء مرسييه هو الجاني .

وحان الوقت لاصدار قرار الاتهام الحكومي ، وقد أعلنه المقدم كاريير ، وهو ضابط درك متقاعد ، ولديه رأي شخصي منفرد ، بالنسبة لمهمة وكيل النيابة . منذ بداية كلامه قال بالحرف الواحد : « في سبيل الاحتفاظ بأفكاري واضحة جلية ، قررت عدم مطالعة ملف القضية » .

كان قرار الاتهام مشوشاً جداً . . الى درجة لم يتوصل المختزلون الى تسجيل اقواله بشكل واضح .

أما الجهة الدفاع ، فقدم المحامي « دومانج » مرافعة كاملة ، ودقيقة للغاية ، لكنها باردة .

في ٨ أيلول ١٨٩٩ ، صدر القرار القضائي ، وسوف يدهش الأنصار والأعداء على حد سواء يعتبر دريفوس مذنباً ، ولكن مع ظروف مخففة[1] . مثل هذا القرار ، لا يعني شيئاً ، اما دريفوس مذنب ، عندها تعتبر جنايته من أشد الجرائم خطورة : الخيانة العظمى ، واما بريء . لا يوجد حل وسط . ولكن لم يجرؤ قضاة المجلس الحربي في رين ، على تحديد الموقف بشكل واضح . لم يكونوا في مستوى القضية . كانوا بلا شك ، مقتنعين ببراءة دريفوس . فهذا أمر بدهي . لكنهم لم يقدروا على مجابهة رؤسائهم ، وجهاً لوجه ، في عقر المحكمة . لا بد لهم من تلبية أوامر هؤلاء القادة الذين يقفون أمامهم بزيهم العسكري الموشى - بالميداليات المختلفة . حاولوا إذن ، اختيار الحل الوسط ، لكنهم لم يرضوا أي واحد من الفريقين المتخاصمين .

بعد عشرة أيام ، أي في ١٩ أيلول ، منح رئيس الجمهورية المتهم دريفوس ، اعفاء

(١) مع ظروف مخففة لجريمة الخيانة العظمى .هذا يعني بأن المحكمة لم تنف أصلاً وجود حالة الاجرام .

من قسم من العقوبة[٢] وذلك بسبب حالته الصحية . واعتبر الرئيس مثل هذا الاعفاء ، كافياً ومنصفاً : لن يدخل دريفوس السجن ، وبالتالي ، فلن يشجب تصرف الجيش . . بهذه الطريقة ، لن يحتج أحد على هذا القرار . .

بالاضافة الى ذلك ، يعلن وزير الحربية الجديد وهو اللواء غاليفة ، بنبرة الواثق من نفسه ، في مجلس النواب : « انتهى الحادث » .

بالطبع ، لايمكن اعتبار هذه المشكلة القضائية الفرنسية الأشد خطورة ، والتي سببت الأزمة السياسية الأكثر تعقيداً في تاريخ الجمهورية الثالثة . كلا . . لا يمكن اعتبارها بحكم المنتهية . ان التاريخ أصلاً ، متشدد ومتطلب . انه لا يكتفي بالأحكام التقريبية وبالحل الوسط المدروس مسبقاً ، بدقة وعناية . يجب أن تأخذ قضية دريفوس مداها الطبيعي . . ولزم أن تستمر حتى النهاية .

في عام ١٩٠٠م ، بمناسبة افتتاح المعرض الدولي أعلن رئيس المجلس « فالدك روسو » العفو العام بالنسبة لجميع الوقائع التي تخص قضية دريفوس . انما مثل هذا الاعلان الرسمي ، لم يبدل شيئاً ، في جوهر المسألة بالذات .

بالنسبة للعدالة ، وبنظر الرأي العام يعتبر دريفوس مذنباً . وهذا الاحتفال المريع والمأتمي ، المتعلق بالتجريد العسكري من رتبته الرسمية . . الذي جرى عرضه في باحة المدرسة العسكرية . . أمام أربعة آلاف رجل . . وأمام مختلف فئات الشعب . . هل يستطيع نسيانه وهل نسي الآخرون هذه الاهانة الفظيعة ؟ لن يتبدل شيء . ستبقى الأمور على حالها ما دامت المحكمة ، لم تعترف رسمياً ببراءة دريفوس .

ومن جهة اخرى ، يقول دريفوس ، معبراً عن رأيه الشخصي بنبرة حاسمة جداً :

« لقد وهبتني دولة الجمهورية ، الحرية . فهي لا تساوي شيئاً ، دون الشرف . سوف أستمر في ملاحقة القضية ، لاصلاح هذا الخطأ القضائي المريع ، الذي جعل مني الضحية . أريد أن تعرف فرنسا بأسرها ، بواسطة حكم نهائي ، بأني بريء . عندما يقتنع كل فرنسي ببراءتي ولن يلصق بي تهمة جريمة ارتكبها شخص آخر . . تهدأ ثورة قلبي واشعر بالاطمئنان » . ويطالب دريفوس استبعاده عن قانون العفو العام ، الصادر عام ١٩٠٠م .

رغم انتشار نبأ العفو العام ، في جميع أرجاء البلاد ، استوجب حقبة طويلة من الزمن كي يحصل ألفرد دريفوس على إعادة الأهلية[١]، أي استوجب ذلك ، ست

(١) رد الاعتبار أو رد الحقوق .

سنوات بكاملها .

في عام ١٩٠٣م ، ارتفعت عدة أصوات ، ومن بينها صوت الزعيم الاشتراكي جان جوريس ، مطالبة اعادة النظر في القضية . وكان الوضع هذه المرة استثنائياً . لم يكن وزير الحربية ، الجنرال أندريه ، معادياً لدريفوس فأمر باستئناف التحقيق .

في ١ حزيران ١٩٠٤م ، أعلنت محكمة التمييز ، أن طلب اعادة النظر في القضية ، ممكن القبول ، وأخيراً ، في ١٢ تموز ١٩٠٦ م ، بعد اثنتي عشرة سنة من تاريخ بداية المشكلة ، وبحضور جميع أعضاء المجلس النيابي ، صدر الحكم بتبرئة دريفوس .

بعد تلاوة السلسلة الطويلة من الحيثيات[٢] ، ساد فجأة صمت تام قبل أن يلفظ رئيس المحكمة العبارة التي وضعت حداً حاسماً لجميع هذه المحن والمآسي .

« ان قضاة المحكمة يلغون الحكم الصادر عن المجلس الحربي في رين ، الذي حكم على دريفوس بتاريخ ٩ أيلول ١٨٩٩م ، بالاعتقال لمدة عشر سنوات ويعتبر مثل هذا الحكم خطأ وقد تجنى على المعتقل نفسه » .

في اليوم التالي ، أقر البرلمان قانوناً بالتصويت ، أجل لقد أقر قانوناً خاصاً بدريفوس ، بعد أن حكم عليه بالنفي الى جزيرة الشيطان .

هذه المرة يسمح له التشريع الجديد باستعادة مهمته في نطاق الجيش الفرنسي ، بصفة مقدم . أما بيكار ، فقد تم تعيينه عميداً[٣] .

وفي ٢٠ تموز ١٩٠٦م ، رفع دريفوس ومنح له وسام جوقة الشرف برتبة فارس . وجرى احتفال الترقية[٤] في باحة المدرسة العسكرية في المكان نفسه ، حيث تم تجريده من رتبته الرسمية أي منذ احدى عشرة سنة وستة أشهر .

أدت الفرق العسكرية تحية الشرف . أما دريفوس ، فظل ساكناً بارداً . تماماً ، كما فعل ذلك ، يوم قيام الاحتفال لتجريده من رتبته العسكرية .

الآن ، انتهت فعلاً قضية دريفوس .

لم يعد هناك أي مجال للشك ، بالنسبة لبراءة دريفوس . انه واقع تاريخي . وزيادة في الايضاح ، جاز الاستشهاد بالكلمات الأخيرة التي لفظها الملحق العسكري الالماني شوارزكوبن ، على فراش الموت . وشوارزكوبن هو الشخص المعني في القضية ، الذي استلم الوثائق السرية . يمكن اعتبار كلامه هذا ، دليلاً اضافياً بالنسبة للأدلة الثبوتية

---

(٢) الحيثيات أو أسباب الحكم .   (٢) أو حفلة تقليد الوسام .

الأخرى التي تساهم في تبرئة الضابط ألفرد دريفوس من تهمة الخيانة العظمى .

بعد زمن طويل ، وقبل موته انتصب فجأة على سريره وصرخ بالفرنسية :

« أيها الفرنسيون ، اصغوا إلي . . ان دريفوس بريء » .

بالفعل ، لقد توضحت جميع الأمور بالنسبة لدريفوس ، غير أن استرازى ، ظل معرضاً للشبهات ، ومنهم من اعتبروه مذنباً من غير الاعتماد على أدلة حاسمة . هكذا ، ظل الشك يراود مخيلة الناس ، بالاضافة الى التردد والحيرة .

لقد اتهم استرازى نفسه ، مدعياً بأنه هو كاتب اللائحة المفصلة أي « لوبودورو » فعل ذلك ، تلبية لأوامر رؤسائه . كان جاسوساً مزدوجاً . . لذلك ، قدم للالمان معلومات عسكرية بلا أي مقابل . . على أمل الحصول سراً على وثائق سرية هامة . انما ، جاز الاعتقاد بأن هذا الاحتمال مستبعد الحدوث . لو كان مثل هذا الاحتمال صحيحاً ، لما انفعل رجال دائرة الاستخبارات ، عند استلامهم اللائحة المفصلة . . إذ كان بمقدورهم التعرف على خط عميلهم السري استرازي ، الذي يقوم بواجبه كاملاً .

بهذا ، يمكن الاعتماد أخيراً ، على الفرضية التي تذهب الى ادانة استرازى وهي الأقرب إلى التصديق والمنطق . بالاضافة الى ذلك توجد فرضية أخرى ، بحيث تعتبر وجود طريقة سرية أخرى ، أكثر دهاء ودقة من طريقة الجاسوس استرازى . . وهي بحق ، طريقة بارعة وجذابة .

دماغ الماني وراء الستار : شوارزكوبن

هل أجج بين الفرنسيين الفتنة اللعينة ، عمداً . . بأسلوب جهنمي عبقري ؟ هل قام بدور الواغل[1] ، مع عملائه الفرنسيين المخدوعين ؟ هل اعترافه ببراءة دريفوس ، دليل على أنه هو الجاني ، أم دليل على أن دريفوس مذنب وبحاجة الى دفاع الماني ، في هذا المجال ؟ يمكن القول من خلال هذه التساؤلات المتضاربة بأن القبض على متهم بأمر من السلطة القضائية بعد مفارقة الحياة . . لا يجدي فتيلاً وهل يقبض على شوارزكوبن وقد تحول الى جثة . . بعد أن حول نهر السين الهادىء الحالم الى بحر لجي وأوشكت أن تتحول مياهه الصافية الزرقاء الى بركة مترامية الأطراف ، مليئة بدماء سانت برتلمي . لقد أوشك استرازى اقناع الشعب الفرنسي بارتكاب مجزرة في حق

(١) الواغل إي الشخص الذي يبغي أصحابه الشر ، يضمره لهم ويحسبونه يريد لهم الخير .

انما ، هل كان حقاً استرازى صاحب هذه اللعبة الخفية الدموية ، وهل كان فعلاً دريفوس بريئاً ؟ والا ما سبب تصاعد دخان الفضيحة ؟ وهل يوجد دخان بلا نار ؟

لايصح اعتبار الملحق العسكري الالماني ، موظفاً حكومياً ساذجاً وطائشاً . بهذا المعنى ، لا يمكن رمي قطع من الوثائق السرية في سلة المهملات بصورة لا واعية . . والمعلوم أن هذه الوثائق تحتوي على معلومات عسكرية خطيرة للغاية . . وهل يعقل أن يمزقها بكل بساطة ثم يرميها في سلة المهملات . . كأن شيئاً لم يكن ؟ ولا يغرب عن بال أحد بأن الخادمة الفرنسية تقصد السفارة الالمانية كل صباح ، لرمي النفايات . . وعادة لا يوجد أحد من موظفي السفارة . . في هذا الوقت المبكر . .

بهذا ، يحق لنا طرح السؤال التالي : ان اللائحة المفصلة (أي البوردورو) التي تفصح عن أمر خطير ، إذ تهدف تبليغ عدة أسرار عسكرية في القريب العاجل . . هل هي فعلاً صحيحة وممكنة الحدوث ؟ وهل يمكن أن يرتكب هذه الحماقة ، جاسوس محترف ؟ هل أصابه مس من الجنون . .فقرر كتابة كل هذه العبارات بصراحة تامة . . وبيده بالذات . . ولم يمهر النص بأي امضاء ؟ ولماذا ؟

بهذا أمكن احتمال الفكرة التالية :

لقد قام بهذا العمل شوارزكوبن ، بشكل مدروس ، وخطط له بدقة لا متناهية ، فالتبس الأمر على المحققين وغارت فرنسا بين طيات ضباب كثيف ، مشحون بالمقذوفات[1] والمآسي الطارئة المتوالية ، فاختلطت عندها الوثائق الاصلية بالوثائق المزورة . . وبات الحق سراباً والعدالة أمنية . . مستحيلة المنال .

جاز أن نتصور تأمر التالي :

اتضح للموظف الالماني استرازى ، بأن العميل الفرنسي قد تلكأ عن مهمته ، ربما اقترح على الالمان ، شروطاً مستحيلة أو ربما ساور السلطات الفرنسية الشك بخصوص هذا العميل الفرنسي المزدوج ، عندها اضطر الى التخلص منه . فكتب اللائحة المفصلة أي البوردورو ، مقلداً خط العميل الفرنسي ، ثم مزقه ورماه في سلة المهملات ، ويهدف من وراء ذلك ، افتعال الهيجان النفسي في أوساط دوائر الاستخبارات الفرنسية . بهذه الطريقة ، سوف يحدث بلبلة شاملة . . بكل معنى الكلمة .

إنما حدث ما لم يكن بالحسبان . لم توجه التهمة إلى استرازى بل إلى شخص آخر ،

---

(١) أي الشتائم المتسقبحة .

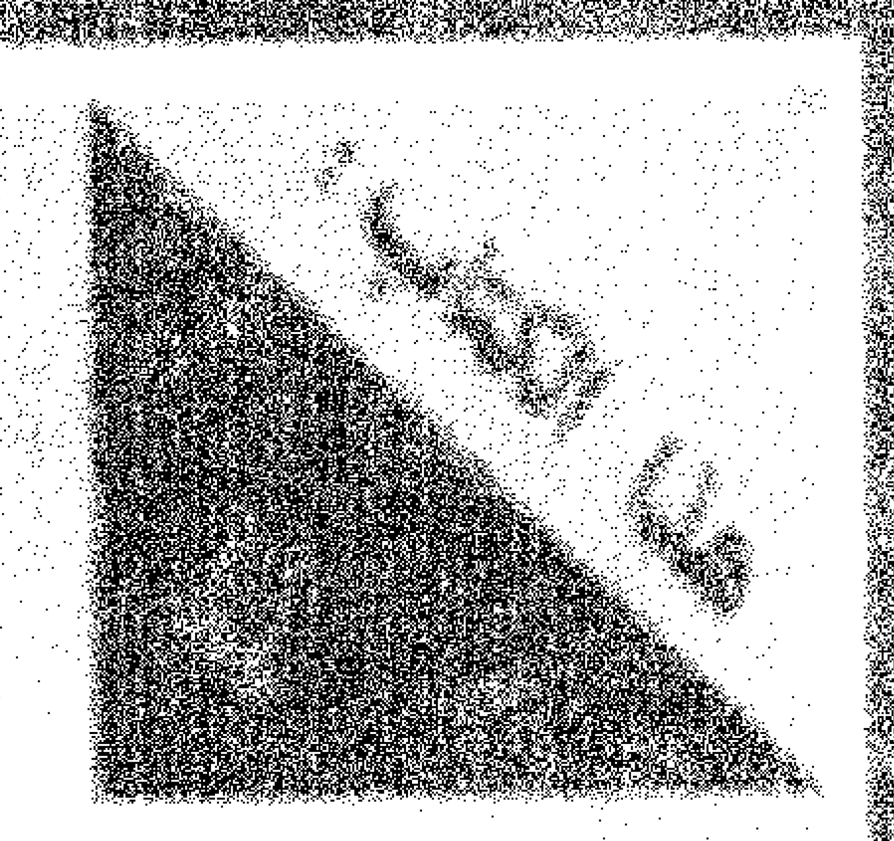
ويصدر حكم قضائي في حقه . بعد ذلك ، توالت المصائب ، الواحدة تلو الأخرى ، بالأخص عندما تعقدت وانتشرت فضيحة دريفوس . لقد أشعل شوارزكوبن رغم أنفه ، البرميل المليء بالبارود . لقد استطاع هو وحده توجيه ضربة قاضية في عقر فرنسا ، بحيث لا يقدر انتصار العدو تحقيق مثل هذه النتائج المدمرة التي حققها شوارزكوبن بمفرده . . دفعة واحدة .

أخيراً ، جاز القول بأن هذا الموظف الالماني البسيط ، الذي يقوم بدور الملحق العسكري في السفارة الالماني ، هو المسئول من حيث لا يدري ، عن أخطر أزمة اجتاحت بلاد فرنسا لمدة تتجاوز العشر سنوات وتلقفتها أقلام المؤرخين بحيرة وذهول . . قبل الحرب العالمية الأولى وما تزال . . حتى يومنا هذا . إنما لا يمكن اعتبار هذه الفكرة سوى فرضية بحتة . . لا أكثر ولا أقل غير أننا نميل الى الاعتقاد بأن دريفوس نال جزاء لا يستحقه واتهمه الشعب الفرنسي ونفاه القضاء . . ولم يكن متورطاً في هذه الفضيحة المريعة : الخيانة العظمى ، من ناحية أخرى جاز أن يكون مثل هذا الاعتقاد الاحتمالي مستهيناً . . . يب الأطوار بالنسبة لمنطق التحليل القضائي المرتكز عادة ، على أدلة ثبوتية .

هل كانت قضية دريفوس ومأساة الشعب الفرنسي بكامله قصة اسطورية وحكاية خرافية رددها الحكواتي على مر الأيام وعلى صفحات التاريخ . . أم كانت وهماً غروبياً في صحراء المصالح الفردية المترامية الأطراف ؟ . . بالأحرى : هل كانت قضية دريفوس الدرامية ، شميسة طارئة اختلقها العميل الالماني السري شوارزكوبن . . وبكلمة أوضح : هل كانت شمساً كاذبة ، ترسل أشعتها الدافئة على سحابة وهمية . . هل كانت هذه الشمس الوهابة ، صورة فوتوغرافية صادرة عن خيال كاذب ؟ حقاً حقاً ، ما أقرب الواقع من الخيال وما الانسان في هذه الدنيا سوى الحلماوي[1] الهائم على وجهه في مركب هزيل حيث يجذبه إلى أعماق العدم ، بحر لجي حاقد[2] .

* * *

(١) الحلماوي : صفة حال نفسي ناتج عن تعاطي مواد معينة ، يشبه الحلم ويكون في اليقظة .
(٢) البحر اللجي أي المتلاطم الموج .



يدعونا به المؤلفان بيير بلمار وجان فرانسوا ناهميلز إلى مرافقتهما في هذه الرحلة المذهلة عبر هذه القصص الجنائية الواقعية الحافلة بالجرائم المثيرة والمذهلة والأعظم شأناً على مر العصور لاهميتها العالمية. .

صحيح أن الأسماء والأبطال الواردة في هذه القصص مشهورة أصلاً لكن موهبة الكاتبين الإبداعية استطاعت أن تُضفي على هذه الحقائق التاريخية إنطباعاً خاصاً حيث يبدو للقارىء كأنه يكتشف هذه الأسرار للمرة الأولى في حياته.

الناشر

